سلسلة الترجمات - ١٠




# Ibn Taymiyya

## Against Extremisms

Texts translated, Annotated and Introduced by

Yahya Michot

Foreword by

Bruce Lawrence

# ابن تيمية ضد التطرف

يحيى ميشوت

ترجمة : مركز دلائل

# ابن تيمية ضد التطرف




Dalailcentre@gmail.com

الرياض - المملكة العربية السعودية

ص ب: ٩٩٧٧٤ الرمز البريدي ١١٦٢٥

Dalailcentre@

+٩٦٦٥٣٩١٥٠٣٤٠

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ

مضمون الكتاب يعبر عن رأي مؤلفه

ولا يعبر بالضرورة عن رأي المركز

| | |
|---|---|
| **Ibn Taymiyya Against Extremisms** | ابن تيمية ضد التطرف... |
| **Yahya M. Michot** | يحيى ميشوت |
| | ترجمة: مركز دلائل |

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أي وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Arabic Language Translation Copyright © 2017 for **Dalail centre**
Ibn Taymiyya Against Extremisms by Yahya M. Michot
**@ Editions Albouraq, 2012**
Responsibility for the accuracy of the translation rests solely with Dalail centre. No part of this book may be reproduced in any form without the written permission of the original copyright holder.

## تصدير:

لا شك أن الترجمة هي من أوسع أبواب الاستزادة المعرفية والعلمية وتبادل الخبرات بين البلدان والأمم والثقافات والشعوب، ومن هنا كان لسلسلة (الترجمات) لدىٰ مركز دلائل عناية خاصة في انتقاء أفضلها وأكثرها ملاءمةً لتوجهاتنا واهتماماتنا، إذ معلوم اصطباغ كل عملٍ أو كتابٍ بمذهب أو فكر أو دين أو مجتمع صاحبه، فنقوم بإبراز ما فيه من فوائد، والتعليق علىٰ مالا يناسبنا منه، مع الوضع في الاعتبار عدم تبني المركز لكل مكتوب أو منقول بالضرورة.

**وفي هذا الكتاب** يستكشف القراء نواحي غير مشهورة عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وغير التي يصبغه بها الكثيرون اليوم من صبغات الإرهاب أو التطرف، وذلك بقلم من خارج بلاد العرب، إنه أستاذ الدراسات الإسلامية البلجيكي المسلم يحيىٰ ميشوت، حيث يجلي لنا نواحي الوسطية والمحبة الإلهية عند ابن تيمية رحمه الله ووضعه لأسس الاعتدال فيها بلا إفراط ولا تفريط، ويبرهن لنا كذلك علىٰ تفهم شيخ الإسلام لطبيعة الظروف التي قد تحيط بالمسلم من ظلم أو كفر وضرورة احتكاكه بها، وأيضا إدراكه لاختلاف الناس عامة، واختلاف المسلمين خاصة، وكيفية الحكم والتعامل في كل حالة.

**مركز دلائل**

* * *


بسم الله الرحمن الرحيم

# فهرس المحتويات

| المحتوى | الصفحة |
| --- | --- |



* * *

## التعريف بالكاتب:

يحيىٰ ميشوت Yahya Michot هو أستاذ دراسات إسلامية بلجيكي، عرف بتخصصه في دراسة وتتبع وترجمة التراث الإسلامي وتحليله، وخاصة تراث شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وقد تولىٰ رئاسة المجلس الأعلىٰ للمسلمين في بلجيكا من عام ١٩٩٥ إلىٰ عام ١٩٩٨.

يعمل بالتدريس في معهد هارتفورد - كونيتيكت كأستاذ للدراسات الإسلامية والعلاقات المسيحية الإسلامية، وهو محرر كذلك في مجلة «العالم الإسلامي» The Muslim World، وهو متحدث ضيف لمركز أكسفورد للدراسات الهندوسية.

له كتب وتراجم لبعض أعمال ابن تيمية وابن سينا وغيرهم، وقد تم تحرير بعض محتوىٰ الكتاب ليناسب جميع القراء بالابتعاد عن أية أسماء معروفة سياسيا في العصر الحالي. والاكتفاء بالخطوط العامة التي هدف الكاتب إلىٰ إبرازها وتوضيحها من تراث شيخ الإسلام ابن تيمية.

***

## تقديم:

نجد في جميع الأديان، كما هي جميع النظم الاجتماعية والثقافية والسياسية، مجموعة من الضوابط أو الحدود، وتلك الحدود لها علامات لمن ينتمي ومن لا ينتمي إليها. ولا تحدد هذه العلامات أفراد الجماعة من غيرهم فقط، وإنما أفراد الجماعة نفسها يجب ضبطهم وتقييمهم، ومن عدّ مستحقًا للانتماء يحمل اللقب والامتياز، بعكس آخرين يحملون اللقب ولا يستحقون مجده.

قليل من الأفراد في دين الإسلام أشير إليهم بالحفاظ علىٰ حدوده علىٰ مستوىٰ شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية (توفي عام ٧٢٨/ ١٣٢٨)[١]. عالم دين حنبلي، فقيه ومُناظر من دمشق، خالف العديد من كبار معاصريه، وأيضًا السلطات السياسية في مدينة إقامته دمشق التي أجبر علىٰ الانتقال إليها بسبب الاجتياح المغولي لمدينته الأم. عاش في وقت كان الأثر المغولي علىٰ الإسلام قد دخل مرحلته الثانية: بعد المرحلة الأولىٰ من احتلالهم للمدن الكبرىٰ في العالم الإسلامي واعتناقهم الإسلام ولكن هل كانوا مسلمين بصدق؟

(١) في كل التواريخ المذكورة في الكتاب يمثل الرقم الأول التاريخ الهجري، والرقم الثاني التاريخ الميلادي (المترجم).

هو سؤال قد يطرح كثيرًا، ولكن قلّة تجرؤوا علىٰ الإجابة بجرأة أو شمولية ابن تيمية. من أهم الأسباب التي تجعله دائم الإشارة إليه في حاضرنا هي إغواء إرثه لمتمردي العصر، وهم من يدعون بمتطرّفي العالم الإسلامي، الثائرين ليس فقط ضدّ الغرب المهيمن بل أيضًا ضدّ مسلمين آخرين من بينهم، وحتّىٰ الحكام، الذين يدّعون الإسلام ولكنّ امتثالهم لمبادئه الأساسية مشكوك فيه علىٰ أقلّ تقدير.

ورغم أن هذه القراءة المعاصرة لابن تيمية قد تكون مطلوبة، لكنّها أيضًا خطيرة. هي قراءة تترك في النفس تقديرًا واسعًا للعالِم الذي أراد الحفاظ علىٰ حدود الإسلام الحق، ولكنها في ذات الوقت تؤكّد علىٰ جوهره الإيجابي الأعمق. ذلك الجوهر كان بالنسبة لابن تيمية هو الاعتدال. الاعتدال بين الحدود القصوىٰ الغيبية - المُتمثلة في تجريد الله أو تجسيده - والاعتدال أيضًا بين الحدود القصوىٰ الاجتماعية - المُتمثلة في مذهب المتعة والشهوة نحو كائن آخر، أو علىٰ سبيل التدجيل، أو ادّعاء المرء كونه صنفًا ما من الأفراد بينما هو غير ذلك.

في سعيه نحو الوسطية أو الاعتدال كمبدأ جوهري في الإسلام، حصد ابن تيمية أيضًا دعمًا من الصوفية. لم تكن صوفية مفرطة كأتباع وحدة الوجود، والتي أدانها، أو الصوفية اللا اتباعية لدىٰ المتسوّلين، والتي أدانها كذلك، بل هي الصوفية التي كانت مشبعة بمحبّة الله. لقد أحيت محبة الله الصوفيين الحقيقيين كما أحيت جميع المسلمين الحقيقيين لأنّها عكست الرسالة الأعمق للكتاب المقدّس القرآن الكريم، وكذلك السلوك المثالي

لخاتم الرسل، رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام.

من بين الكتب الكثيرة التي كتبها ابن تيمية، كتاب بعنوان الكلم الطيّب، ويضمّ بعض الأحاديث الشريفة المنسوبة للرسول محمّد عليه الصلاة والسلام، والتي يعتقد أنّها مفيدة لجميع المسلمين. أحدها منسوب لزوجة الرسول عليه الصلاة والسلام عائشة. ذكرت أنّ الرسول «كان يحب التيمن». وذلك لحبه للفأل الحسن أو الصالح، ولذلك جاء في حديث آخر عندما سئل الرسول: «وما الفأل يا رسول الله؟ قال: الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم»[1].

كان ابن تيمية منكبًّا علىٰ سماع الكلام الطيّب، والذي يثل كل حق جاء في القرآن الكريم أو في كلام خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام. وبسبب اضطرار عائلته إلىٰ الانتقال لدمشق هربًا من المغول، لم ينقطع عن إخفاء هذه الخسارة في بحثه عن الكلم الطيّب. كان بحثًا قاده عادة إلىٰ السجن، إلا أنّه لم يذعن أبدًا لمُنتقديه أو معذّبيه؛ واستمرّ في تأييده لما شعر بأنّه الحق، أي الكلم الطيّب في الإسلام كسبيل يجب اتباعه وكنز يجب حفظه في آن معًا. لم يتزوّج أبدًا ومات في السجن مخلفًا إرثًا زاخرًا.

هل كان ابن تيمية مجرّد مُصلح شديد أم كان أيضًا صوفيًّا ورعًا[2]؟ منذ

---

(١) ابن تيمية، الكلم الطيب، ترجمة IBRAHIM وJOHNSON-DAVIES، Word، (٣٤٠).

(٢) الصوفية لفظة مستحدثة كانت تشير في الأصل إلىٰ حب الله والزهد في الدنيا وتزكية النفس والورع، ولذلك لا يحكم شيخ الإسلام علىٰ الصوفيين كلهم بحكم واحد وإنما يفصل في ذلك كعادته وعدله مع الآخرين فيقول في رسالته الصفدية (١/ ٢٦٧): «والشيوخ الأكابر الذين ذكرهم أبو عبدالرحمن السُلمي في «طبقات الصوفية» وأبو القاسم القُشيري في=

مقالة جورج مقدسي[1] عام ١٩٧٣، ظن البعض أنه صوفيّ قادري، ورغم أنّ فريتس ماير شكّك في هذا الاتباع[2]، إلا أن الإرث الأدبي الكبير لابن تيمية يحتوي على الكثير مما يدعم الطريقة الصوفية، حتى مع رفضه للتفكير التأملي الصوفي. فالصوفي الصادق أيضًا هو المُسلم الصادق: كلاهما كانا مرتكزين على الوحي القرآني والسلوك النبوي المتبع أو السنّة.

كان لدى ابن تيمية ميلٌ لتصنيف الجماعات أو المُمارسات؛ فتبعًا له كان الصوفيون إما:

المتنوّرون الحقيقيون، أو المخلصون والدمثون المتنسكون في الصوامع (خانقاه)، أو الصوفيون المدّعون للصوفية بالمظهر فحسب ويضلّون المُسلمين الصادقين. ويقارن بين المجموعتين الأولى والثانية مقابل الثالثة، مجموعة الدجالين. المجموعتان الأولى والثانية «تؤكد محبّة الله، وهذا أكثر

---

=«الرسالة» كانوا على مذهب أهل السنة والجماعة، ومذهب أهل الحديث كالفضيل بن عياض، والجنيد بن محمد، وسهل بن عبدالله التُستري... وأبو عبدالله محمد بن خفيف الشيرازي وغيرهم، وكلامهم موجود في السُنة، وصنفوا فيها الكتب؛ لكن بعض المتأخرين منهم كان على طريقة بعض أهل الكلام في بعض فروع العقائد، ولم يكن فيهم أحدٌ على مذهب الفلاسفة، وإنما ظهر التفلسف في المتصوفة المتأخرين، فصارت المتصوفة: تارةً على طريقة صوفية أهل الحديث، وهم خيارهم وأعلامهم - وتارةً على اعتقاد صوفية أهل الكلام فهؤلاء دونهم - وتارةً على اعتقاد صوفية الفلاسفة كهؤلاء الملاحدة» يعني ابن عربي وابن سبعين (المترجم).

(١) انظر: G. MAKDISI, *Sufi*

(٢) انظر: F. MEIER, *Cleanest*, 318

وضوحًا بينهم من بقية الأمور الأخرىٰ. الأساس في أسلوبهم (الطريقة) هو بساطة العزيمة والمحبّة. تأكيد محبة الله معروفة جيّدًا في خطاب شيوخهم الأوائل والجدد، تمامًا كما هو مؤكّد في الكتاب (القرآن) والسنة ومنهج السلف (الأجداد الورعون أو المسلمون الأوائل)»[1].

باختصار، مثل الصوفي الذي يؤكّد عمليا علىٰ محبة الله كمثل الرجل الذي أوصاه الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقول عند دخوله السوق: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو حيّ لا يموت، بيده الخير وهو علىٰ كلّ شيء قدير». من قال هذا الدعاء عند دخول السوق، أعلن الرسول ﷺ أن: «كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة»[2].

لا شك أنّ ابن تيمية قصد إصلاح من لا يقرّون بالكلمة الطيبة كما فهمها، وقد كشف كثيرًا وهاجم مرارًا ما شعر أنّه إسراف في الصوفية. نجد في أعلىٰ هذه القائمة أتباع وحدة الوجود أو الحلول والاتحاد[3]، والذي كان ابن

---

(١) انظر: T. HOMERIN, *Sufis*, 234

(٢) ابن تيمية، الكلم الطيب، ترجمة IBRAHIM وJOHNSON-DAVIES، *Word*، (٣٢٦) (مع بعض التعديل).

(٣) من الأفكار الوثنية القديمة التي انتقلت إلىٰ بعض المسلمين وخاصة الصوفية هي العقائد الباطلة مثل وحدة الوجود التي تزعم أن الوجود كله واحد (خالق ومخلوق)، أو عقيدة الحلول والاتحاد التي تزعم حلول الخالق في أحد مخلوقاته أو اتحاده به، وكذلك عقيدة الوحي التي يزعم أحدهم فيها ان الله يوحي إليه مثل الرسل والأنبياء بكلام مباشر أو يعفيه من العبادات وتكاليف الشرع، أو الذين يزعمون بأن أكثر المسلمين لهم القرآن الظاهر =

عربي أكبر ممارسيها وهو المتصوّف الأندلسي واسع الشهرة المؤلف للكتاب الصغير فصوص الحكم، والذي زعم أنّه تلقاه كإلهام في الحلم من الرسول الكريم بذاته[1]. كان كتاب فصوص الحكم بالنسبة لابن تيمية تشويهًا للرسالة الحرفية لآخر وحي الله. بإساءته تفسير القرآن، لم يتمسك ابن عربي بالكلمة الطيبة، ولذلك فتح الباب واسعًا للممارسات اللاأخلاقية. وأسوأ من ذلك كان أولئك الشعراء المتبعون لتعاليم ابن عربي. وبسبب اكتساب شعرهم الشهرة، أحدثوا ضررا في المجتمع المسلم تجاوز أعمارهم، مع تأثيرات وخيمة مما يدعون إليه للأسف لأنّها كانت خفية وماكرة ومستمرة[2].

كان مثل هذا الاعتقاد بالنسبة لابن تيمية - سواء في النثر أو الشعر، وسواء من شيوخ أو شعراء أو متصوفين - معادلًا للحلولية أو التجسيد. وقد ردّ كثير من الصوفيين الذين هاجمهم بأنهم كانوا يستعملون تعابير التوحد مع الله فقط بالمفهوم المجازي. ليس من المُمكن التوحد مع الله الواحد، وقالوا جدلًا: التوحيد يماثل التوحد، والتعبير الأعلىٰ للتقوىٰ هو في وحدة الوجود، أو رؤية الوحدانية كقوة نافذة في الكون والبشرية.

***

=ولكنهم لهم معاني خاصة في باطن القرآن لا يعلمها إلا هم. ومن أولئك وهؤلاء ظهر متمسحون في الصوفية يرتكبون المحرمات من شعر ماجن وزنا واختلاء بالنساء ورقص وخمر وترك للصلاة بدعوىٰ أنهم أهل الله وأهل العلم الباطن (المترجم).

(١) حول كتاب الفصوص. انظر: R. NETTLER, *Metaphysics*

(٢) انظر: T. HOMERIN, *Sufis*, 233

أبدىٰ ابن تيمية رفضًا لهؤلاء المتصوّفين المفرطين، وسنرىٰ ذلك ضمن مجموعة نصوص هذا الكتاب، والتي تتألف من أوامر شرعية أو فتاوىٰ وكتابات أخرىٰ من شيخ الإسلام الحنبلي، مبوبة حسب الموضوع ومترجمة للإنجليزية، ومعلق عليها ومعروضة للقارئ العام. يقدّم هذا الكتاب بعنوان ضدّ التطرف مواضيعًا في ثماني عشرة مسألة. المواضيع الستة الأولىٰ دقيقة ولكن متوقّعة: دين الاعتدال أو الوسطية، وواجب احترام التنوع الداخلي، والأمر بتقديم التسامح، والمظهر المختلط للدراويش «المجاذيب»، والعدالة الإلهية الحق، وحقوق الله. ومن قرأ من قبل أشياء لابن تيمية من مصادرٍ أخرىٰ قد يجد مواضيعًا مألوفة، وهي نقاشات وأدلة في هذه الفصول الستة، ولكن قد يتفاجأ بعض القراء أو حتّىٰ يذهلون من الفصول الثمانية التالية.

فمحتوىٰ الفصول من ٧ إلىٰ ١٤ يعد تأكيدًا علىٰ الحب كونه الأساس للتجربة الإنسانية بأكملها - من أول خلق آدم وحواء والرسل عليهم السلام، ومرورًا بالوحي لليهود والمسيحيين (النصارىٰ) قبل قدوم خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام، حيث تمام الحب في اتباع الشريعة وتوقير الرسول. فيوضّح ابن تيمية موقفه عبر مقارنة ومغايرة مع آراء خصومه في أكثر من موضع، مثل المعتزلة والمتصوفة المبتدعين، أو حتىٰ علماء الدين الفاسدين. حيث حاورهم ابن تيمية جميعًا ومن بعدها دحض أقوالهم. ولن يكون من العدل محاولة تلخيص حججهم في هذه الفصول أو الأدلة المختلفة، ولكن قد نلتقط حسّ حمية الفقيه الحنبلي في مناقشته لهم - عبر المقارنة/ المغايرة - للمفاهيم الرئيسية مثل: العشق، الشهوة والمحبة.

كامل محتوى الفصل السابع آت من نهاية قسم لمجموعة فتاوى ابن تيمية التي تتناول موضوع أمراض القلب وشفاؤها. وهي متشابكة تشابكًا معقدًا مع اقتباسات من مصادر نصية متعددة، وتدور حول حجة واحدة شاملة وهي أن: لا العشق ولا الشهوة مبرران كمفهوم لتفسير الحب المقبول أو المعتدل سواءً تجاه البشر أو الإله، ولا حتىٰ في عكس ذلك للنزعة الوجدانية للخالق تجاه مخلوقاته. فالعشق، كما سنرىٰ، هو مرض للقلب وهو ضار. والشفاء الوحيد للمريض «يتحقق باختفاء مرضه أو بالأخرىٰ اختفاء حبه المستحق اللوم من قلبه». وفي حُرمانية العشق، يقدم المُترجم حاشية طويلة تتعلق بتأملات روزبيهان البقلي الشيرازي للمواقف المعادية للسادة الصوفية السابقين، وينقل عن ابن تيمية في نفس الوقت انتقاده الشديد لهم: ليس فقط بالدليل من القرآن والسنة وإنما أيضًا من شهادة معظم علماء الدين، وهي ضدّ استعمال العشق بخصوص الله.

ولماذا العشق مرفوض؟ لأنّه يتعدىٰ الحدود، ويتجاوز تخوم الأدب، كما في هذا البيان: «العشق في الواقع هو محبّة مفرطة، تتجاوز الحدود الملائمة، وبما أن حب الله ﷻ لا منتهىٰ له؛ فإنه لا ينتهي عند حد لا يكون تجاوزه ملائمًا. فالعشق الذي يحكي عنه علماء الدين هؤلاء مُلام قطعًا ولا يجب الإشادة به؛ سواء بخصوص حب الخالق أو حب المخلوق. فهو حقًا حب مفرط يتجاوز الحد المحمود».

وبعد هذا الخطاب وكشف ورفض العشق، يجري ابن تيمية جِراحة شبيهة وإن كانت أقصر بالنسبة للشهوة قبل الالتفات إلىٰ الحب أو المحبة،

والتي يمدحها لأنها تتوسط فطرة البشرية بأكملها، وأيضًا هي المبدأ المركزي والجوهري والأسمىٰ في الإسلام. حيث يجب ألا نخلط بين الحب أو المحبة وبين مفهوم الحب اليهودي أو المسيحي، كما يفعل بعض الصوفيين للأسف. فهو جهاد ولكنه جهاد أسمىٰ وأعظم ضدّ النفس الفاسقة من الداخل، وليس الجهاد الأدنىٰ المادي بالقتال العسكري ضد عدو خارجي. ويعبر عنه تعبيرًا أفضل بالمودة أو الألفة مع الله (الخلة)، فهو تمجيد للظهور بالشكل الذي فعله إبراهيم ومحمد عليهما السلام مع اكتمال الرحمة الإلهية.

ما تصفه هذه الفصول من دقة وشغف هو تأكيد ابن تيمية علىٰ حرمة أي تصوير أدبي أو بيان بشري ينتهك حرمة سمو الله. ويميز بدقة بين ثلاث مراحل للتوحيد. المرحلة الأكثر عمومًا هي توحيد الربوبية، والتي تؤكّد سيادة الله علىٰ كلّ شيء. وهذا يشترك فيه مع المسلمين جميع الموحدين - اليهود والمسيحيين والسبئيين والزرادشتيين (المجوس) - وحتىٰ الوثنيين، وأما المرحلة الأدق عمومًا، والخاصة بالمسلمين الحق، فهي توحيد الألوهية. وتنادي بوحدة الله الكاملة والمطلقة. ورغم أنّها كانت مهمة جميع الرسل، لكنها كانت الرسالة التي سعىٰ لها محمد عليه الصلاة والسلام ولغايتها الأصيلة في تنزيه الله عن أي شبيه أو نسب من البشرية. لكن هنالك أيضًا نوع آخر من التوحيد أكثر صفاءً يصل الله بالبشرية. وهو يدور أيضًا حول الإسلام، ولكن يوسع طبيعة الصلة بين العبد وربه. يُسمىٰ توحيد الأسماء والصفات.

فلا سبيل لمعرفة كيفية تأثير هذه الوحدة الأخيرة لما وراء الغيرية الكلية

الله المعلنة في توحيد الألوهية. وعلىٰ المرء الإيمان بها. ابن تيمية يوضح كيفية ذلك وكيف أثرت في التاريخ البشري بالنسبة لمن يؤمنون بالله، ولكنهم ليسوا مسلمين.

ولعل من الاستبصارات الذكية الكثيرة في هذا الكتاب ضد التطرّف الأسلوب الذي يتتبّع فيه المؤلف آثار انفتاح شيخ الحنابلة علىٰ الآخرين، ومن بينهم غير المؤمنين، وإثباته الحق باختيار المصير الأبدي لمخلوقات الله تعالىٰ، وليس للحكام أو علماء الدين أو شيوخ المتصوفين. تتناول الفصول الأربعة الأخيرة من الكتاب طيفا من المواقف التي يواجه الإيمان فيها تحديا من العمل لدىٰ حكّام ظالمين، أو في حالة الاضطهاد والعنف وحتىٰ الموت.

حيث ينظر الفصل قبل الأخير في مصير الحاكم الحبشي الذي منح عام ٦١٥ م الملاذ للمسلمين المضطهدين. وقد تم عرض مصيره فيما يبدو في القرآن الكريم: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ (آل عمران:١٩٩).

لا تذكر التفاسير فقط والبحث في سياقات الوحي أن يكون النجاشي أو الحاكم الحبشي وحده سببا لنزول الآية، بل يجذب ابن تيمية الانتباه للمقارنة بين هذا المرء غير المؤمن الصادق وبين المنافقين. «بين أولئك الذين يعلنون إسلامهم، وبين المنافقين الذين لا يُصلّىٰ عليهم... مثل ابن أبي بن سلول ومن شابهه... كذلك قد يكون هنالك في أرض الكفر من هو مؤمن يصلىٰ عليه، لأنهم من نموذج النجاشي».

وأما فيما يتعلق بخدمة نبي الله يوسف ﷺ لملك مصر، فيلفت الفصل الأخير الانتباه إلىٰ خصلة الشمولية لدىٰ ابن تيمية - حيث بحفظ الحدود لكن مع تأييد الاعتدال - ويرجعها إلىٰ نشاطات العالِم نفسه. وكأنّ ابن تيمية يوجه تسامحه العفيف ضد التنديد بخصومه أو إعلانهم خارج حدود رحمة الله، وذلك عندما يقرّ بأنّ: «المُجدد لدينه والمُحيي لسنته [من هو إن لم يكن ابن تيمية نفسه؟] ينقل فقط ما يمكن استيعابه وتطبيقه.. لا يمكن للعالم أو الأمير أن يأمر بكامل الواجبات من البداية... فالأوامر والنواهي في الواقع مشروطة بإمكانية الفهم والفعل. فإذا افترضنا الآن أن هذا الشرط لم يتحقّق [مثل حالة يوسف ﷺ في خدمة ملك مصر]. فتأمل في هذا المبدأ الأساسي! إنه مفيد».

يمكن تعميم هذا القول علىٰ كامل مجموعة النصوص، والتعليقات والشروحات التي يضمها هذا الكتاب ابن تيمية ضدّ التطرّف. ومن أراد البحث في الأسرار والدوافع، والبيانات والحدود، لدىٰ ابن تيمية عالم الدين والفقيه الحنبلي الأعظم في عصره، فعليه تأمل هذا الكتاب! فهو مفيد، ومحاسنه واضحة وفوائده كثيرة!

**بروس ب. لورنس**

**جامعة ديوك**

**٢٠ أكتوبر ٢٠١١**

* * *

## مقدمة:

من بعد قرابة سبعمائة سنة من وفاته في سجن دمشق (٧٢٨ / ١٣٢٨) ما زال شيخ الإسلام ابن تيمية[١] من أكثر المفكرين الإسلاميين التقليديين تأثيرًا، وربما أكثر من الغزالي أو ابن عربي أو الرومي. علىٰ أية حال، لم يظهر اسم أي أحد من هؤلاء المشاهير في تقرير لجنة الحادي عشر من سبتمبر، ولكن بالمقابل ذكر اسم ابن تيمية في ذلك التقرير، وبلا أدنىٰ لطف طبعًا. كما أن الكثير من الكتابات سواء الآتية من دوائر حكومية (مسلمة أو غيرها) أو إسلاميين جهاديين، أو من مستشرقين غير مؤهلين، أو من الإعلام الغربي، تتهم عالم الدين بمعارضة المنطق والتصوف، وبالأصولية والتعصب والتطرف الراديكالي... تعلو تلك النبرة مرارًا وتكرارًا ويعاد طرحها، مثلًا ما يسمىٰ بشهادة ابن بطوطة علىٰ أن ابن تيمية «في عقله شيء»[٢] أو حديثًا، الجزم

(١) عن حياة ومؤلفات ابن تيمية اطلع علىٰ كتاب Y. RAPOPORT والشيخ أحمد (المحررون)، ابن تيمية Ibn Taymiyya؛ وكتاب H. LAOUST، بحث في آراء ابن تيمية الاجتماعية والسياسية Essai، سيرة ذاتية؛ و«التأريخ» في كتاب Y. MICHOT في كتابه ابن تيمية: المسلمين تحت حكم غير المُسلمين Ibn Taymiyya: Muslims under non-Muslim Rule, 69-149؛ كتاب C. BORI، السيرة الذاتية، مصدر Vita, Source.

(٢) انظر: D. P. LITTLE، هل في عقل ابن تيمية شيء؟ Did Ibn Taymiyya have a screw loose?

باقتباس المتطرفين فتوىٰ ماردين عن ابن تيمية عدة مرات[1].

ولكي نفسح للشيخ الدفاع عن نفسه بعد وفاته، فليس أمامنا إلا قراءة مؤلفاته الكثيرة، ولكن معظمها ليست متاحة بعد باللغات الغربية، ومكتوبة بلغة عربية مرهقة، ومقيدة بمصطلحات خاصة بالعلوم الإسلامية - مثل شرح القرآن والحديث، والفقه، وعلم الكلام، والفلسفة، والصوفية...

لذلك فإن الهدف الرئيسي من هذه المجموعة من الترجمات لابن تيمية ببساطة ووضوح هو: أن ندع شيخ الإسلام الدمشقي يتحدث عن نفسه، ونستمع له بإنصات، حتىٰ ندرك أنه أيضًا خبير روحي في الوسطية via media، أي السبيل الوسط القابع في قلب الإسلام الموروث.

ولنفترض فرضية فعالة هنا، حيث سننظر للمذهب التيمي كحديقة مختلفة الأصناف، ولكن تم وضع ألغام فيها، وانفجار أحدها قد ينذر «بتهديد كبير للحضارة بذاتها»... الآن إن زرعنا حقلًا من الخشخاش يحيط بهذه الحديقة فلن يقترب منها أحد وتنتهي المشكلة، لكن هذا النوع من القياس يشبه كثيرًا ما يوصي به بعض المثقفين: بأن تكون الصوفية ترياقا للسلفية، الداء السكري من السلمية المائعة irenicism كدواء عام لسرطان الإرهاب؛ ولكني وبمنطق سليم بسيط أفضل الاعتقاد بما يلي: إن كان هنالك حقًا ألغام في حديقة، فليس المعتاد أن يكون البستاني من وضعها. بالإضافة إلىٰ: لماذا لا نبذل جهدًا في إزالة الألغام من الحديقة لنبقيها متاحة لاستمتاع الناس بها؟ وبالفعل انشغلت بهذا الجهد لسنين طويلة وهو ما أعتبره أقل إيذاءً

---

(١) انظر: Y. MICHOT، الفتوىٰ الجديدة New Fatwa، (١٤٨).

وخطرًا مما قد يفترضه البعض. أوضحت في كتابات مختلفة وكما أوضح غيري من المختصين بابن تيمية: أن الاتهامات الثلاثة ذات الطبيعة السياسية المصوبة تجاهه ليس لها أساس. كلا، لم يقسم العالم فئويًا ضمن مناطق «للإسلام» و«الحرب». كلا، لم يكن قاتلًا مستبدًا؛ بل كان دومًا مخلصًا للسلطان المملوكي الناصر محمد، وكلا لم يكن مُكفرًا باغيًا(1).

بينما توجد بعض نصوص ابن تيمية التي بني عليها ذلك التحليل ضمن هذه المجموعة، لكن من الخطأ أن يعد هذا الكتاب مجرد جهد لتفكيك الألغام في حديقة، فحديقة ابن تيمية كانت دومًا مفتوحة لكل من لديه الرغبة في دخولها، وما تزال من بين الأكثر روعة من علوم الدين الإسلامي الروحانية. لذلك أكثر ما توصف به في هذا الكتاب هي كونها باقة: نجمع ونعرض فيها نخبة من النصوص، تماما كما يقطف المرء ويجمع الأزهار في حديقة ويرتبها في باقة، فيكون تنوع تلك الباقة وجمالها وعطرها هو خطاب البستاني الخاص وهي نفسها تقدم أكثر شهادة حقيقية عن مذهبه.

وباقتنا هنا تحتوي ثمانية عشر قسما من هذه المجموعة لابن تيمية يمكن قراءتها بأي ترتيب، فكل واحد له موضوعه الخاص، وله تفرده وعبيره الخاص. ولنكن واثقين أن بعضها قد يبدو غريبًا عجيبًا من وجهة نظر المسيحي التقليدي، أو تبث عطرًا أقل قبولًا لدىٰ الأنوف الغربية. لكن الورود لديها أيضًا أشواك، وهي لا تقلل من قيمة الباقة رغم ذلك. أم أن الشجرة تحجب الغابة لأننا نتعامل مع الفكر الإسلامي؟

---

(1) انظر: Y. MICHOT, *Muslims, Mecreance, Mythe*

ففي سياق بيان رحلاته في الدولة العثمانية حوالي عام ١٥٧٥، يروي ليونهارت راوولف Leonhart Rauwolf (توفي عام ١٥٩٦) الحكاية التالية عن السلطان سليمان القانوني: «حدث في عهد سليمان العظيم، كما أخبرنا البستاني، أنهم في اجتماعهم للتشاور فيما إذا كان مجديًا له أن يتحمل اليهود في أراضيه، أم يقتلعهم تمامًا؛ ومن بعد أن طرح الجميع آراءهم، وكان معظمهم علىٰ الرأي بعدم التسامح معهم بسبب تعاملهم بالربا غير المُحتمل الذي اضطهدوا به رعاياه؛ وبعد أن سمع السلطان رأي الجميع، عرض عليهم رأيه علىٰ هيئة مثال كما يلي. طلب منهم النظر إلىٰ آنية زهور، وهي تحوي كمية من أحسن الزهور بألوان متنوعة والتي كانت في الغرفة، ثم دعاهم للتفكير فيما إذا كانت إحدىٰ الأزهار بلونها لم تظهر جمال الأخريات؛ وإن حدث لإحداها أن ذبلت أو أخذت: ألن تخرب جمال الباقي؟ بعد أن سمع الجميع رأي السلطان، وأقروا بصحته؛ بدأ السلطان بتفسير رأيه فقال: كلما تنوعت الأمم الخاضعة لحكمي، كالترك والمغاربة والإغريق وغيرهم عظمت السلطة الآتية لمملكتي منهم، وجعلوها أكثر شهرة، ولا شيء ينتقص من عظمتي، وأرىٰ من المناسب أن جميع ما كان مجتمعًا طويلًا حتىٰ اليوم قد يحتفظ به ويُتحمل وسيبقىٰ للمُستقبل؛ وقد سعدوا بكلامه هذا كثيرًا مما دفعهم للموافقة بالإجماع، ولذا ليبقىٰ الأمر كما كان»[1].

كما بدىٰ لسليمان القانوني أنه «مُجدٍ أكثر» أن يتحمل اليهود في أراضيه، كذلك هي اللحظة الأخيرة لحكم الأقلية البلوتوقراطية (حكم طبقة الأثرياء)

---

(1) L. RAUWOLF. *Travels*. 46.

المحتفظة بالقوة الحاكمة علىٰ الأرض لتزرع تنوعًا صادقًا، وتسمح لكلمة العدل والإنسانية بالتفتح والازدهار، وخاصة مَن يُدعَون للإسلام، ويسمحوا لأنفسهم بمساءلة الشذىٰ المحمول في النسيم.

قد تبدو باقة ابن تيمية المعروضة هنا آتية من حديقة لسليمان باعتبارات مختلفة. النصوص التي تحويها منتقاة بالطبع - بأسلوب سأفسره هنا لاحقًا - ولكنه ليس اختيارًا يقصد منه «إخفاء طعم الدواء بالسكر» لأفكار شيخ الإسلام، وليس «تأطيره» كما تفعله وسائل الإعلام في المواضيع التي تغطيها. أوضحت في مقالة حديثة كيف تحول التأطير التعديلي لفتوىٰ ماردين لابن تيمية - الجزء والحزمة التعديلية revisionism لمشروع الإسلام المعدل جينيًا (genetically modified Islam (GMI - سريعًا إلىٰ حالة سرطانية[1]. لذلك لا أقصد أبدًا السقوط في ذات الفخ؛ تمنيت علىٰ أفضل تقدير عبر مجموعة من الترجمات الجديدة أن أقوض الذرائع الجاهلة وأفرض بعض التقليص علىٰ القناعات مفرطة التضخيم.

الأحمر والأبيض والأزرق الممثلة (علىٰ التتالي) الحب والسياسة وعلم الدين تمنح هذه الباقة خيوط ألوانها الرئيسية، وأقل بروزًا لكن كلية الوجود هي أيضًا ألوان الأخضر للنبوة والأصفر الداكن للمجتمع والأسود للقلوب. فالصورة المعروضة عالية الغنىٰ لونيًا وعميقة التوازن، وإن كان فيها قليل من الشذوذ واللمسات غير المتوقعة. يجمع ابن تيمية ببراعته خبرة استثنائية بالنصوص إلىٰ كفاءة مدهشة في التحليل المذهبي. لكن لا يجد

---

(١) انظر: Y. MICHOT, *New Fatwa*, 148.

المرء في هذه الخبرة والكفاءة أكبر صفاته أهمية، بل يعثر عليها في العاطفة النشطة التي تبث الحياة في كامل أفكاره الدينية - سواء كان يفسر عبادة الله أو تبجيل الرسول، أو كاشفا لمتاهة الشهوات المغرورة أو الحب الصادق، أو في فهم ضلال المؤمنين - الجماعي والفردي - أو في مواقفه من السلطات والآخرين، المُسلمين وغير المُسلمين. ويقوم بكل ذلك دون توقف عن التذكير بمطالب الحق والنور التي هي في جوهر قلب الدين، والصراع ضد الظلم والشر، والإيمان والعمل، والسمع والطاعة، وسلوك سواء السبيل والصد عن الخطأ، والعقل والتأمل الحذر، والأخوة والتسامح، والسلام والتشارك الاجتماعي.

إذاً ما أهمية أن يكون شيخ الإسلام الدمشقي صوفيًا أم لا؟ فهو بعيدًا عن هذه الألقاب، لم يهتم سوىٰ بمسألة واحدة دائمًا: توحيد النبوة. أي كيف يمكننا، مع اتباع الوحي الأخير واقتفاء أثر خاتم الرسل، جعل الله حقيقة في حياتنا بل الحقيقة الوحيدة التي تبث الحياة في حياتنا اليومية: أو حتىٰ، اقتباسًا من كلماته، جعل الله «أكثر أهمية لنا من الماء بالنسبة للسمك». يستشهد من الخبرة بعد تذوقه «حلاوة الإيمان»: مثل هذا الهدف ليس متعذرًا. لذلك يدعو للرحلة، دالًا علىٰ السبيل ومادا يده لمن يخوض فيها، وراء هذا الدليل الذي بدونه لن تجد للكون معنىٰ، وبصحبة المُسلمين الآخرين من أبناء وبنات آدم. ولا يجب أن يتردد أي آثم في أن يلحق بهذه القافلة لأن الله ما من شيء يحبه أكثر من حبه للتائبين.

يفترض بالتأكيد أن كثيرًا من الأزهار الأخرىٰ يجب أن تضاف إلىٰ هذه

الباقة للحصول علىٰ صورة نهائية لحديقة ابن تيمية الروحية. هنالك أيضًا كثير من العمل يجب إنجازه لفهم الأساس المنطقي وراء بعض أقسىٰ أفعاله فيما يتعلق بالتزامه بدين الوسطية. لكن من المشاكل الأساسية، في غياب البيانات الزمنية، استحالة تحديد السياقات التي أبصرت فيها نور الصباح معظم النصوص في المجموعة الحالية، وأي تطور في فكره قد توضحه بعضها. حتىٰ إن توفرت البيانات الزمنية تلك، ما يزال من الضروري تذكر واحدة من الحقائق الأساسية: آراء المُفتي العالم بالدين، بتأثرها وتجاوبها مع الظروف بوضعها، لا يتوقع أن تنشِئ نظامًا شاملًا ومتكاملًا للفكر. كيف يمكن للطريق، حتىٰ الطريق المُستقيم، ألا يتصل اتصالًا وثيقًا بمحيط المنظر الطبيعي الذي يجتازه؟

***

يتساءل كثير من الناس في نهاية هذه السنة ١٤٣٢/ ٢٠١١ عن مستقبل العالم العربي الإسلامي، بل يتساءل البعض حتىٰ عن الرأي حول هذا الإسلام، المفترض أنه أصولي أساسًا، حيث طردت الثورات التي ولدت من الاحتجاجات السلمية الحكام المستبدين. ويحتفل مراقبون «متنورون» مختلفون بنصر جديد للغرب، في تبخر الإسلام السياسي، إن لم يكن الإسلام بحد ذاته، وفي لغط الحديث عبر وسائل التواصل الاجتماعي. عندها لن يكون ابن تيمية أكثر من شاعر علىٰ إيديولوجيا ميتة، موجهة من الآن فصاعدًا بعيدًا عن اهتمام أي أحد إلا بعض المؤرخين للفكر الإسلامي في العصور الوسطىٰ.

لكن ماذا لو كانت الحقيقة غير ذلك تمامًا؟

في الواقع بقي ابن تيمية دائمًا مخلصًا لسلطانه، الناصر محمد المملوكي - رغم أن هذا السلطان من حيث الشريعة ليس أكثر التزامًا من المغول في ذلك الزمن أو الحكام العرب المسلمين المعاصرين... كما أن كتابات ابن تيمية واضحة: فبالنسبة له كما هو مع الغالبية العظمىٰ من المؤلفين من أهل السنة التقليديين، هذا الوفاء هو أساس علم الدين السياسي في الإسلام و«ستون سنة من سلطان ظالم خير من ليلة واحدة بلا سلطان».

أيضًا بالنسبة لابن تيمية[1]، إن «ضربت وسجنت» السلطة وقاسىٰ المرء تحت يديها مختلف أنواع الإساءة وبذلك نبذ ما يعرف من شرع الله ورسوله... لكن يبقىٰ من الواجب الصبر. وإن ارتكب فيك بحق الله بعض الحرام، فهي سبيل الله في نفاذ سنته مع أنبيائه ومن تبعهم. قال الله ﷻ: ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ... ﴾ (العنكبوت: ١ - ٣)، وقال ﷻ أيضًا: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ...﴾ (محمد: ٣١).

في النص المُترجم في القسم الأخير من الباقة الحالية، نجد ابن تيمية في الواقع أشاد بنبي الله يوسف لترشيح نفسه لإدارة كنوز ملك مصر، أي أنه وضع نفسه تلقائيًا في خدمة دولة كافرة، وواعيًا تمامًا أولًا بأن مؤسساتها ليست قائمة علىٰ «إرث الرسل وعدلهم»، وثانيًا أنه كان بعيدًا عن قدرته علىٰ تطبيق كل ما «يعده ركنا من دين الله».

(1) IBN TAYMIYYA, *MF*, xxxv, 373.

لكن دعنا نعود إلىٰ حسني مبارك، من بعد أن كان نائب الرئيس السادات تقلد السلطة عبر اغتيال الأخير، أي عبر انقلاب مسلح...أريد أن أقول أن الإسلام السياسي المغولي يدين بالفضل لروبسبيار والبلشفية أكثر من الإرث الإسلامي كما أوضحه ابن تيمية وكثير من المصادر الإسلامية التقليدية الأخرىٰ. وبعد مرور ثلاثين سنة كانت الثورة الشعبية السلمية هي التي أطاحت بالطاغية. إذا هل هذا صعود لما بعد الأسلمة سياسية؟ بالتأكيد، وبتوفيق الله! لكن أيضًا وأخيرًا تأتي ثورة إسلامية حقيقية. أعني بذلك ثورة مخلصة بحق لسنة الله والرسول، مهما يكن قول علماء السلطة، في مصر أو بمكان آخر.

الصبر والوفاء وخدمة فرعون وعدم لعن السلطة الضالة والظالمة ورفض التسلح للقيام ضدها - هذه بحد ذاتها لا تعني الطاعة غير المشروطة والمطلقة لسلطة بشرية، والصمت الأخرس وعصيان الخالق، هنالك في الواقع مجال في الإسلام للاعتراض الواعي والاحتجاج السلمي والعصيان المدني المستنير بالإيمان. أو بالأحرىٰ في بعض الظروف تكون من الواجبات في الدين، كما هو مفروض اتباع الوسطية ومقارنة الفوائد والمضار في كل الأمور. يقول الحديث الشريف: «مَثَلُ المؤمنين في تَوَادهم وتراحُمهم وتعاطُفهم: مثلُ الجسد، إِذا اشتكىٰ منه عضو: تَدَاعَىٰ له سائرُ الجسد بالسهَرِ والحُمىٰ». من بين المواثيق التي بايع عليها الصحابة الرسول، والتي يستحضرها ابن تيمية علىٰ الدوام، كان هنالك أيضًا: «القول - أو تبني - الحق حيثما يكون وألا يخاف في الله لومة لائم». قام بـ أي أنه في نفس الوقت

«يتبنىٰ» و«يقف بجانب» و«ينهض لصالح» الحق، أي الصواب والصدق.

فتبعًا لابن حنبل وابن ماجة وجامعي الحديث الآخرين قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»[1] - وبصياغة معاصرة: «قول الحق للسلطة».

* * *

التحضير للكتاب الحالي جزء من مسعىٰ لترجمة أعمال شيخ الإسلام الدمشقي والذي بدأ قبل أكثر من عشرين سنة وما يزال مستمرًا. وإلىٰ جانب كتب مختلفة نشرت علىٰ شكل مقالات بالفرنسية من عام ١٩٩٠ إلىٰ ١٩٩٨، ستة عشر من النصوص الروحية لابن تيمية Textes spirituels d'Ibn Taymiyya في مراجعة الرجل المسلم Le Musulman لجمعية الطلاب المسلمين في فرنسا Association des Étudiants Islamiques de France. زيدت هذه النصوص بين عامي ١٩٩٩ و٢٠٠٢ بواحد وعشرين من الصفحات الروحية لابن تيمية Pages spirituelles d'Ibn Taymiyya التي نشرت في المبادرة الشهرية لجمعية المبادرة الإسلامية في موريشيوس Action Islamique association of Mauritius. أطلقت عام ٢٠٠٩ سلسلة جديدة من النصوص الروحية لابن تيمية متاحة مباشرة علىٰ الإنترنت قبل طباعتها ورقيًا مسبقًا. وزع حتىٰ الآن أحد عشر نصًا من هذه السلسلة توزيعًا إلكترونيا.

---

(١) انظر للمثال في: مسند ابن حنبل (٤، ٣١٥)؛ وسنن ابن ماجة، الفتن (٢، ١٣٢٩)، رقم (٤٠١١)؛ وسنن الترمذي، الفتن (٣، ٣١٨)، رقم (٢٢٦٥).

كانت غايتي الأصلية جمع هذه النصوص والصفحات في كتاب واحد ضخم لمختارات ابن تيمية يُنشر في الذكرىٰ المئوية الهجرية السابعة لوفاة شيخ الإسلام وذلك عام ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م. ثم لم تسمح ظروف الحياة بهذه الفكرة أن تثمر، ولكن هذا الكتاب ضد التطرف يمثل بشكل ما تحقيقًا جزئيًا من ذلك الهدف، ومتأخرًا بلا شك ولكن بلغة يتوقع أن تضمن انتشارًا واسعًا للعمل، حيث تمثل المجموعة المختارة من ستة عشر من هذه النصوص والصفحات والتي نشرت أو وزعت أولًا في فرنسا من عام ١٩٩٠ إلىٰ ٢٠١٠ اللب الرئيسي لهذا الكتاب[1]. والمبادرة في هذا المشروع بهذه الهيئة نابعة من المحرر والمُترجم، الأخ والزميل السابق في أوكسفورد، جميل قرشي Jamil Qureshi. جمع أولًا مجموعة مختارة من أعمالي وترجمها إلىٰ الإنكليزية، واقترحت عددًا من الأعمال الأخرىٰ والتي قام بترجمتها كذلك، ثم بعدها راجعت جميع الترجمات وأنشأت صفحات الكتاب وقمت بفهرستها.

مثل بقية النصوص والصفحات الروحية من إعدادي، كانت ترجمات ابن تيمية المجموعة هنا باللغة الإنكليزية موجهة في الأساس إلىٰ جمهور

---

(١) تم عرض التاريخ والعنوان القصير للمنشورات الأصلية لهذه النصوص والصفحات بين أقواس أسفل عناوين الأقسام. القسمين الرابع والخامس هما نسخة إنجليزية لترجمات نشرت في الأصل علىٰ صورة كتابين في باريس:

- ابن تيمية واللاأدرية والمغفرة IBN TAYMIYYA. Mécréance et Pardon (2005)
- ابن تيمية، رب متردد؟ IBN TAYMIYYA. Un Dieu hésitant? (2004)

القـراء المـسلمين ومـع الاعتنـاء بـشأنين: عـدم الانـصراف بـأي شـكلٍ عـن الصرامة العلمية الدينية المطلوبة، ثم إبقائها متاحـة لغيـر المختـصين في نفس الوقـت. وربمـا يمكـن قيـاس درجـة تحقيـق هـذين الـشأنين بعـدد المواقـع الإسلامية علىٰ شبكة الإنترنت التي تعيـد نـشر هـذه الترجمـات أو دمجهـا في منـصاتها النقاشـية، وبعـدد الدراسـات الجامعيـة المُستـشهدة بهـا في الغـرب. تحتوي الملاحظات الملحقة بهذه الترجمات أحيانًا علىٰ انعكاسـات لطبيعـة شخصية أكثر[1]. وبعكس كتابات ابن تيمية فجميـع هـذه الملاحظـات مؤرخـة بقلـم مفكـر مُـسلم أثـارت أفكـاره الجـدل أحيانـًا، فقـد تقـدم بعـض هـذه الملاحظات علامات الطريق لخوضه كمؤمن. ولأنه ما من سبب لرفض هذه الملاحظات، ترجمت أيضًا بصدق إلىٰ الإنكليزية في هذا الكتاب. ويجـب أن تقـرأ علىٰ مـا هـي عليـه، أي دون أي توقعـات لـتعلم مـنهج كامـل أو تحليـل مـذهبي كامـل للنـصوص التـي تقـدمها. ومـن أجـل هـؤلاء المهتمـين بالتقـدم الروحي لمن هو محتـاج لرحمتـه تعـالىٰ، علـيهم أن يحتفظـوا في أذهـانهم بـأن هـذه الكتابـات هنـا هـي مـن بـين عديـد مـن الكتابـات الأخـرىٰ، وأن الحكـم

---

(١) توضيح بالنسبة لهذه الملاحظات التعريفية: كان طولها في النصوص والـصفحات الأصـلية تابع للسطور المتاحة في الصفحة عندما أعدت النصوص والحواشـي، ولـم يكـن مـسموحًا بفراغـات خاليـة أو تجـاوز إلـىٰ صـفحة تاليـة مـسموحًا. والكاتـب المـسؤول عـن إنـشاء الصفحة في هذه الكتابات لديه هـذا الـنمط مـن القلـق أيـضًا! كانـت مقدمـة القـسم الرابـع، والتي نشرت في كتاب مؤلف من مئة صفحة أو ما يقاربها، بالتأكيد بعيدة عن هذا القدر مـن التقييد، وهي لذلك أطول بكثير من البقية.

النهائي علىٰ أي شخص ليس منطقيًا إلا من بعد وفاته.

نتيجة لكتابتها علىٰ فترة امتدت لعشرين سنة، قد لا يتوقع أن تكون ترجمات ابن تيمية المجموعة هنا بنسخة إنجليزية منتظمة تمامًا في المصطلحات. ومن إحدىٰ المهام في مراجعتها كانت منحها قدرًا من الاتساق، وخاصة بخصوص الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. لكن لا أدعي أنني حللت جميع الفروقات بالكامل. سمح التحويل للإنكليزية أيضًا بفرصة لإصلاح أخطاء مختلفة شابت النسخة الفرنسية بسبب إغناء الحواشي وإزالة أي تكرار ظهر عند جمع الترجمات معًا في النسخة الفرنسية. وعدا هذه التعديلات، تبقىٰ الأقسام الثمانية عشر في هذا الكتاب ابن تيمية ضد التطرف مطابقة في الأساس للنماذج الفرنسية.

نشرت الكثير من الأفرودات والمقالات المُشار إليها في المقدمات والحواشي لهذه النسخ الفرنسية الأصلية باللغة الفرنسية. وقد يكون بعضها أصبح متوفرًا بترجمة إنجليزية ولكن لم يكن ممكنًا التحقق من جميعها وتهيئة المراجع تبعًا لذلك.

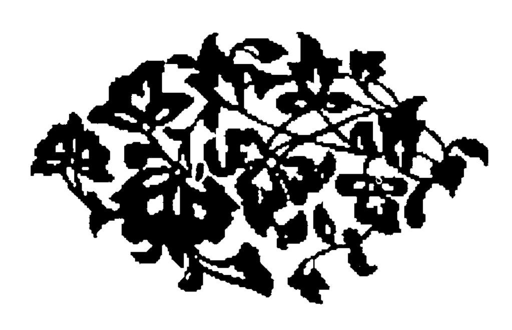
في كتابة الألفاظ العربية بحروف لاتينية، أؤمن بقوة بالفوائد التربوية للحروف المنقطة وأطبق النظام الذي تعلمته من البروفيسور Simone Van Riet من مدينة لوفان والمُحرر الأول لكتاب Avicenna Latinus. ومن المعروف أن ألفاظًا عربية سائدة الآن في الإنجليزية أبقي عليها عمومًا بشكلها في قاموس أوكسفورد الإنجليزي الموجز (النسخة ١١، ٢٠٠٤)، علىٰ سبيل المثال: cadi (قاضي)، وfatwa (فتوىٰ)، وfiqh (فقه)، وhadith (حديث)،

وimam (إمـام)، وimamate (إمامـة)، وIslam (إسـلام)، وjihad (جهـاد)، وRamadan (رمـضان)، وSharia (شـريعة)، وshaykh (شـيخ)، وSunna (سنة)، وSunni (سني)، وsura (سورة)، وulema (عُلماء)... ترجمت هذه المصطلحات أحيانًا كذلك مع نقل حرفي رسمي يتبعه بين قوسين. ترجمت كلمة شريعة إلىٰ Law، أو Way أو كلاهما (Way/Law).

أدين بعظيم الامتنان لجميل قرشي وذلك للأسباب المختلفة المذكورة أعلاه، وما كان لهذا الكتاب أن يأتي للوجود من دونه. فمن أولىٰ مراحل تحضيره إلىٰ آخرها كان إيثاره في الالتزام والعناية كاملًا وكنت دومًا قادرًا علىٰ الاعتماد علىٰ طاقته الجبارة وعونه اللامحدود وذكائه الرائع. أما فيما يخص الهفوات والأخطاء بجميع أشكالها فالمسؤولية تقع طبعًا عليّ بالكامل. أقر بجزيل الشكر أيضًا لـ بروس لورانس Bruce B. Lawrence لقراءته مسودة الكتاب الكاملة وكتابته تقديما له. فمنذ بدأ هذا العمل من سنوات، وقد منحني الكثير من الإخوة والأصدقاء والطلاب الذين ناقشتهم حوله في هارتفورد وهيرندون وبروكسل نصائحًا قيمة وتشجيعًا منتظمًا، فأقدم شكري كذلك لهم. وأخيرًا أود شكر كل قارئ ما زال مهتمًا بالبدء في قراءة الصفحة التالية. أرسلوا لي ملاحظاتكم أو تعليقاتكم أو انتقاداتكم علىٰ بريدي الإلكتروني Lechebec@hotmail.com. لا أستطيع أن أعدكم بأن أجيب علىٰ كل رسالة، ولكن إن شاء الله سأقرؤها جميعًا.

علىٰ مر ثلاثين سنة، كانت L. A. تقدم لي كل ما أحتاجه، وتتحمل جميع حماقاتي، وتشرفني بالعطف المليء بالحب. ما من كلمات تصف ما

أدين لها به. ربما الأزهار قد تفي بالأمر.



❊ ❊ ❊



## الفصل الأول:

# دين الوسطية
# (الصفحات II، 1999)

ترافَقَ التحرر الثقافي والأيديولوجي للعالم المسلم من الاستعمار واسترداد الروح والشخصية الاجتماعية في بعض الأحيان مع حوادث مؤسفة. وصحيح أن التوافق المجتمعي قد أبعد نفسه بشكل عام عن هذه التجاوزات، إلا أنها كانت تمثل تربة خصبة لوسائل الإعلام الطامعة في إثارة الضجة، غير المكترثة بفهم أسباب هذه الأحداث ولا ما هو على المحك فيها، متناسية - على أي حال - الماضي الغربي وأن أصحابه هم الأجدر بالاعتذار. والنتيجة: تصوُّر الكثير من السُّذَّج أن الأسلمة (Islamism) إنما هي رديف للتعصب (Fanaticism) والتطرف (Extremism) بسبب تشابه القافية في هذه الكلمات باللغة الإنجليزية.

ومع ذلك، يعلم الله، أنه ليس هناك أبعد من هذه المفاهيم المتطرفة عن دينه، وكما هو مذكور في القرآن، وممثل بوضوح من خلال حياة الرسول؛ فإن جوهر الإسلام بحق هو الاقتصاد، والاعتدال، والقسط - أي الوسطية -. لا ينحرف الإسلام إلى اليمين أو إلى اليسار، فهو بمثابة النور الذي يوقد من

زيت ﴿ شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ (النور:٣٥). حتىٰ يكون المسلمون ﴿ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة:١٤٣)، فالله تعالىٰ ذكر بنفسه أنه لم يجعلهم متطرفين متشددين وإنما جعلهم أمة وسطًا، حيث قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة:١٤٣).

يتناول النص التالي[1] عدة مفاهيم للشخصية المتوازنة للإسلام الحق، دين الوسطية، النابع من الفطرة السليمة والعقل السليم، بعكس ما هي عليه بعض التجاوزات التي تميز بعض المعتقدات الأخرىٰ، أو في الحقيقة بعض الطوائف والمدارس التي قسمت المسلمين في بعض الأحيان. وهنا نجد أن خطابات شيخ الإسلام الدمشقي - سواء حول موضوع النبوة (وخصوصًا حول الكرستولوجيا)، أو السلطة الدينية والكنسية، أو علم التوحيد الصحيح الذي يتناول (الله وصفاته وأفعاله)، أو الأخلاق، أو القضاء والقدر، أو حال الإيمان والمعصية، أو أخيرًا تاريخ صحابة الرسول - تمكننا من أن نفهم بشكل أفضل: ماذا يعني أن تكون سنيًا مخلصًا صافيًا بعيدًا عن كل تطرف؟

---

(١) هذا النص مأخوذ من الوصيات الكبرىٰ لابن تيمية والتي وجهها (علىٰ الأرجح عام ٧٠٥/ ١٣٠٥) للطائفة العدوية الصوفية لكي يلفت انتباههم إلىٰ طبيعة بعض عقائدهم المذهبية المنحرفة.

انظر: H. LAIUST, Profession, 16

وانظر: IBN TAYMIYYA, MF, iii, 369, l. 14-375, l. 14

## الفرقة الناجية:

وهذا الصراط المستقيم هو دين الإسلام المحض، وهو ما في كتاب الله تعالىٰ، وهو السنة والجماعة، فإن السنة المحضة هي دين الإسلام المحض، فإن النبي ﷺ روي عنه من وجوه متعددة رواها أهل السنن[1] والمسانيد[2] - كالإمام أحمد وأبي داوود والترمذي وغيرهم - أنه قال: «ستفترق هذه الأمة علىٰ ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة»[3] وفي رواية: «من كان علىٰ مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي». وهذه الفرقة الناجية هي أهل السنة وهم وسط في النحل، كما أن ملة الإسلام وسط في الملل.

## نبوة الوسطية:

فالمسلمون وسط في أنبياء الله ورسله وعباده الصالحين، لم يغلوا فيهم كما غلت النصارىٰ[4] الذين ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة:٣١).

ولا جفوا عنهم كما جفت اليهود، الذين كانوا ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ

---

(١) تحمل أربعة مؤلفات عن السنن النبوية اسم السنن، وهي سنن ابن ماجة (ت٢٣٧/ ٨٨٧)، وسنن أبي داود (ت ٢٧٥/ ٨٨٩)، وسنن الترمذي (ت ٢٧٩/ ٨٩٣)، وسنن النسائي (ت٣٠٣/ ٩١٥).

(٢) مسند ابن حنبل (ت ٢٤١/ ٨٥٥)، ومسند الدارمي (ت ٣٠٣/ ٩١٥).

(٣) انظر: سنن ابن ماجة، كتاب الفتن، الباب الثاني، (١٣٢٢)، رقم (٣٩٩٣).

(٤) يعني المسيحيين.

حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: ٢١)، والذين قال الله فيهم أيضا: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (البقرة:٨٧).

بل المؤمنون آمنوا برسل الله وعزروهم ونصروهم ووقروهم وأحبوهم وأطاعوهم، ولم يعبدوهم ولم يتخذوهم أربابًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٧٩ - ٨٠).

ومن ذلك: أن المؤمنين توسطوا في المسيح، فلم يقولوا هو الله ولا ابن الله ولا ثالث ثلاثة[1] كما تقوله النصارىٰ، ولا كفروا به وقالوا علىٰ مريم بهتانًا عظيمًا، حتىٰ جعلوه ولد بغية كما زعمت اليهود، بل قالوا هذا عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم العذراء البتول وروح منه[2].

### تعاليم الوسطية:

وكذلك المسلمون وسط في شرائع دين الله، فلم يحرموا علىٰ الله أن ينسخ ما شاء[3] ويمحو ما شاء، ويثبت، كما قالته اليهود كما حكىٰ الله تعالىٰ ذلك عنهم

---

(١) إشارة إلىٰ سورة المائدة، الآيتان (٧٢-٧٣)، وسورة التوبة، والآية (٣٠).

(٢) إشارة إلىٰ سورة النساء، الآيتان (١٥٦، ١٧١).

(٣) فيما يخص تغيير القبلة علىٰ سبيل المثال، واستبدال مكة بالقدس كقبلَةٍ للصلاة، كما أشارت الأسطر التالية.

بقوله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ﴾ (البقرة: ١٤٢). وبقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ (البقرة:٩١)، (أي لما في كتابهم المقدس).

ولا جوّزوا لأكابر علمائهم وعُبّادهم أن يغيروا دين الله، فيأمروا بما شاءوا وينهوا عما شاءوا، كما يفعله النصارىٰ، كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة: ٣١). قال عدي بن حاتم رضي الله عنه(١): قلت: يا رسول الله ما عبدوهم؟ قال: ما عبدوهم، ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم(٢).

والمؤمنون قالوا: لله الخلق والأمر، فكما لا يخلق غيره لا يأمر غيره. وقالوا: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (البقرة: ٢٨٥)، فأطاعوا كل ما أمر الله به، وقالوا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ (المائدة: ١). وأما المخلوق فليس له أن يبدل أمر الخالق تعالىٰ ولو كان مخلوقًا عظيمًا.

## ثيوديسيا وسطية:

وكذلك في صفات الله تعالىٰ: فإن اليهود وصفوا الله تعالىٰ بصفات المخلوق الناقصة، فقالوا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ (آل عمران: ١٨١)، وقالوا:

---

(١) عدي بن حاتم، أبو طريف، أحد صحابة رسول الله، ومن أنصار عليّ رضي الله عنه، (أسلم عام ٩ أو ١٠/ ٦٠٠ ٣٦٠ أو ٣٦١، ت ٦٨/ ٦٨٧-٨). انظر: A. Schahde, EI2, art Adi b Hatim

(٢) انظر: الترمذي، السنن، التفسير، التوبة (٩)، المجلد الرابع (٤٢-٣٤١)، رقم (٥٠٩٣)، تفسير الطبري، المجلد العاشر (٨٠-٨١)، وصف الترمذي هذا الحديث بالضعيف.

﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ (المائدة: ٦٤)، وقالوا: إنه تعب من الخلق فاستراح يوم السبت. إلىٰ غير ذلك.

والنصارىٰ وصفوا المخلوق[1] بصفات الخالق المختصة به، فقالوا: إنه يخلق، ويرزق، ويغفر، ويرحم، ويتوب علىٰ الخلق، ويثيب، ويعاقب.

والمؤمنون آمنوا بالله ﷻ، ليس له سمي ولا ند، ولم يكن له كفوًا أحد، وليس كمثله شيء، فإنه رب العالمين وخالق كل شيء[2]. كل ما سواه عباد له وفقراء إليه: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ (مريم: ٩٣ - ٩٥).

## أخلاقيات الوسطية:

ومن ذلك: أمر الحلال والحرام، فإن اليهود كما قال الله تعالىٰ: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ (النساء: ١٦٠)، فلا يأكلون ذوات الظفر[3]، مثل الإبل[4] والبط[5]، ولا شحم الثرب والكليتين[6]، ولا

---

(١) «المسيح» مثلًا.

(٢) إشارة إلىٰ: سورة مريم (٦٥)، والبقرة (٢٢)، والإخلاص (٤)، والشورىٰ (١١)، والفاتحة (١)، والأنعام (١٠٢).

(٣) انظر سورة الأنعام، الآية (١٤٦): ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ﴾.

(٤) أكل الجمال محرم في التوراة؛ لأنها لا تحقق الشرطين من حيث الحوافر المشقوقة والاجترار.

(٥) الطيور الجارحة أو اللواقط محرمة في التوراة، بينما قد يؤكل البط.

(٦) انظر: سفر الخروج (١٣:٢٩): «وَتَأْخُذُ كُلَّ الشَّحْمِ الَّذِي يُغَشِّي الْجَوْفَ، وَزِيَادَةَ الْكَبِدِ=

الجدي في لبن أمه[1]... إلىٰ غير ذلك من الطعام واللباس وغيرهما؛ حتىٰ قيل: إن المحرمات عليهم ثلاث مئة وستون نوعًا، والواجب عليهم مئتان وثمانية وأربعون أمرًا[2]. وكذلك شدد عليهم في النجاسات حتىٰ لا يؤاكلوا الحائض ولا يجامعوها في البيوت.

وأما النصارىٰ فاستحلوا الخبائث وجميع المحرمات، وباشروا جميع النجاسات، وإنما قال لهم المسيح: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ (آل عمران: ٥٠)، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ (التوبة: ٢٩).

وأما المؤمنون فكما نعتهم الله به في قوله: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ

---

=وَالْكُلْيَتَيْنِ وَالشَّحْمَ الَّذِي عَلَيْهِمَا، وَتُوقِدُهَا عَلَىٰ الْمَذْبَحِ»، تعتبر الكليتان غير موافقتين للشريعة اليهودية؛ لأنه لا يمكن إفراغهما كليًا من الدم.

(١) انظر: سفر الخروج (٩:١:٢٣): «لاَ تَطْبُخْ جَدْيًا بِلَبَنِ أُمِّهِ».

(٢) تبعًا لأتباع موسىٰ بن ميمون وباقي الحاخامات، هنالك (٦١٣) وصية في التوراة، منها (٣٦٥) وصية تمنع بعض الأفعال (وصية لكل يوم شمسي)، و(٢٤٨) وصية تُعزىٰ إلىٰ عدد العظام والأعضاء المهمة في جسم الإنسان.

انظر: ويكيبيديا .en.wikipedia.org/wiki/613/mitzvot

وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧)، وهذا باب يطول وصفه.

**العقيدة الوسطية في الصفات الإلهية:**

وهكذا أهل السنة والجماعة في الفرق، فهم في باب أسماء الله وآياته وصفاته وسط بين أهل التعطيل الذين يلحدون في أسماء الله وآياته، ويعطلون حقائق ما نعت الله به نفسه؛ حتىٰ يشبهونه بالعدم والموات، وبين أهل التمثيل[1] الذين يضربون له الأمثال ويشبهونه بالمخلوقات.

**العقيدة الوسطية حول القدرة:**

وهم في باب خلقه وأمره وسط بين المكذبين بقدرة الله الذين لا يؤمنون بقدرته الكاملة ومشيئته الشاملة وخلقه لكل شيء؛ وبين المفسدين لدين الله الذين يجعلون العبد ليس له مشيئة ولا قدرة ولا عمل، فيعطلون الأمر والنهي والثواب والعقاب، فيصيرون بمنزلة المشركين الذين قالوا: ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾ (الأنعام: ١٤٨).

فيؤمن أهل السنة بأن الله علىٰ كل شيء قدير، فيقدر أن يهدي العباد ويقلب قلوبهم، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في ملكه ما لا يريد ولا يعجز عن إنفاذ مراده، وأنه خالق كل شيء من الأعيان والصفات والحركات.

---

(١) انظر علىٰ سبيل المثال: كيف فهم ابن تيمية الاستواء من قوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ (الأعراف: ٥٤) في Y. MICHOT, Textes X, 28, n. 9.

ويؤمنون أن العبد له قدرة ومشيئة وعمل، وأنه مختار، ولا يسمونه مجبورًا؛ إذ المجبور من أُكره علىٰ خلاف اختياره، والله سبحانه جعل العبد مختارًا لما يفعله، فهو مختار مريد، والله خالقه وخالق اختياره، وهذا ليس له نظير، فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

**العقيدة الوسطية في الإيمان:**

وهم في باب الأسماء والأحكام والوعد والوعيد وسط بين الوعيدية[1] الذين يجعلون أهل الكبائر من المسلمين مخلدين في النار، ويخرجونهم من الإيمان بالكلية، ويكذبون بشفاعة النبي ﷺ، وبين المرجئة[2] الذين يقولون: إيمان الفسّاق مثل إيمان الأنبياء، والأعمال الصالحة ليست من الدين والإيمان، ويكذّبون بالوعيد والعقاب بالكلية.

فيؤمن أهل السنة والجماعة بأن فساق المسلمين معهم بعض الإيمان وأصله، وليس معهم جميع الإيمان الواجب الذي يستوجبون به الجنة، وأنهم لا يخلدون في النار، بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان أو مثقال خردلة من إيمان[3]، وأن النبي ﷺ ادخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته.

---

(١) حول الوعيدية؛ انظر: كتاب الملل لأبي الفتح الشهرستاني، ترجمة: جماريت ومونوت، الأديان، المجلد الأول (١١٢).

(٢) حول المرجئة؛ انظر: كتاب الملل لأبي الفتح الشهرستاني، ترجمة جماريت ومونوت، الأديان، المجلد الأول (٣٣-٤١٩).

(٣) حول الموت في النار تبعًا لابن تيمية؛ انظر: J. R. Hoover, Universalism

### العقيدة الوسطية في الصحابة:

وهم أيضًا في أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم وسط بين الغالية الذين يغالون في علي رضي الله عنه، فيفضلونه علىٰ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ويعتقدون أنه الإمام المعصوم دونهما، وأن الصحابة ظلموا وفسقوا وكفروا الأمة بعدهم كذلك، وربما اتخذوه نبيًا أو إلهًا؛ وبين الجافية الذين يعتقدون كفره، وكفر عثمان رضي الله عنهما، ويستحلون دماءهما ودماء من تولاهما، ويستحبون سب عليّ وعثمان ونحوهما، ويقدحون في خلافة عليّ رضي الله عنه وإمامته.

### الموقف الوسطي من كل شيء:

وكذلك في سائر أبواب السنة هم وسط؛ لأنهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما اتفق عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان.

* * *

## الفصل الثاني:

# الوحدة واحترام التنوع في المجتمع (الصفحات ا، 1999)

ليس غريبًا أن يكون ابن تيمية اليوم أحد أكثر من يُقرأ لهم من علماء الإسلام التقليديين، ولكن مع الأسف لا يُفهم دائمًا بشكل صحيح؛ فلقد ساهم تقديسُ أفكاره والتطرفُ تجاهها وتحريفُها في بعض الأحيان في تغذية التعصب والنقاشات العقيمة. والرجل من دون أدنىٰ شك بريء من كل ذلك؛ وكما سنرىٰ من خلال كلماته بعد قليل، فإنه لمن الغلو والعداء أن نلوم عالمًا لسهو أو أخطاء قال عنها الله: إنها مغفورة. وعلىٰ الجانب الآخر فإن الاصطفاف الأعمىٰ خلف لوائه يوحي بأن العصمة لم تكن فقط للرسول وإجماع الأمة من بعده، وإنما لبعض الأشخاص العباقرة أيضًا.

إن هذا هو جوهر النصوص[1] التي ستأتي تباعًا: كما أرسل الله رسله بدين

---

(١) أترجم نصين من كتاب مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية، الباب التاسع عشر، ١١٤، ١. ١٥-١١٨، ١. ٢ (A)، و١٢٦، ١. ٥-١٢٨، ١. ٦ (B)؛ single F. نهاية النص A (من صفحة ١٦، ١. ١٤) وكل النص (B) معاد إنتاجه في كتاب الألفة لعبد الفتاح أبو غدة، ٦٨، ١. ٤-٧٠، ١. ٦ و٨٣، ١. ٤-٨٥؛ single U.

واحد وأمرهم بألا يتفرقوا فيه، فإنه كذلك أمر المسلمين أينما كانوا بالاجتماع ونهاهم عن الفرقة والتباعد. وعلىٰ كل حال، فإن هذا لا يعني التماثل أو أن يكونوا علىٰ نمط واحد. فكما اتبع الرسل طرقًا مختلفة وسلكوا مسارات عدة، كذلك يجب أن يُعاش الإسلام بمرونة وتنوع مع احترام للاختلاف والتسامح. وعندما يكون السعي للاجتهاد مرتبطًا بالإخلاص، نجد أن الإسلام يدعو إلىٰ العدل والانسجام، وإلىٰ الوسطية ونبذ التطرف. تأمل ما يختم به ابن تيمية قائلًا: «فإنه أصل جامع نافع عظيم».

### أ. واجب الوحدة:

قال الله تعالىٰ لنا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٢ - ١٠٣) إلىٰ قوله: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ ﴾ (آل عمران: ١٠٥) وحتىٰ قوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

فأمرنا بملازمة الإسلام إلىٰ الممات كما أمر الأنبياء جميعهم بالإسلام، وأن نعتصم بحبله جميعًا ولا نتفرق، ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وذكر: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٦)؛ قال

ابن عباس[1]: «تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة». وذكر أنه يقال لهم: ﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٠٦)، وهذا عائد إلىٰ قوله: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٢). فأمر بملازمة الإسلام وبيّن أن المسودةَ وجوههم أهل التفرق والاختلاف يقال لهم: ﴿ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٠٦)، وهذا دليل علىٰ كفرهم وارتدادهم، وقد تأولها الصحابة في الخوارج[2].

وهذا نظير قوله للرسل: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ (الشورىٰ: ١٣)، وقد قال في البقرة: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ ...الآية (البقرة:٢١٣)، وقال أيضًا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ ﴾ (الأنعام: ١٥٩)، وقال تعالىٰ: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥٣)، وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (يونس: ١٠٥)، ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (الروم:٣٢)، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ

---

(١) عبد الله بن عباس، صحابي وعالم جليل من القرن الأول (ت ٦٨هـ/ ٦٨٦-٨م).

انظر: L. VECCIA VAGLIERI, El2. art, Abd Allah b. Abbas

(٢) أوائل الشقاق الإسلامي خاضها علي ﷺ أولًا.

انظر: G LEVI DELLA VIDA, El², art. 'Kharijite's'.

بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (آل عمران:١٩)[1]، ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ (البينة:٤)، ونظيرها في ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُم بَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ ﴾ (الجاثية:١٧).

وقال الله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (النساء:٥٩). وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحشر:١٠).

إذا كان الله تعالىٰ قد أمرنا بطاعة الله وطاعة رسوله وأولي الأمر منا، وأمرنا عند التنازع في شيء أن نرده إلىٰ الله وإلىٰ الرسول، وأمرنا بالاجتماع والائتلاف، ونهانا عن التفرق والاختلاف، وأمرنا أن نستغفر لمن سبقنا بالإيمان، وسمانا «المسلمين» وأمرنا أن ندوم عليه إلىٰ الممات، فهذه النصوص وما كان في معناها توجب علينا الاجتماع في الدين كاجتماع الأنبياء قبلنا في الدين.

وولاة الأمور فينا هم خلفاء الرسول، قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «إن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي قام نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء ويكثرون، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: أوفوا بيعة الأول فالأول، وأدوا لهم الذي لهم، فإن الله سائلهم عما

(١) يذكر ابن تيمية فقط بداية الآية ومن ثم يكتب «... و(تكملة) الآية».

استرعاهم»[1]. وقال أيضًا: «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ»[2]، ورُوي عنه أنه قال: «وددت أني قد رأيت خلفائي! قالوا: ومن خلفاؤك؟ قال: الذين يحيون سنتي يعلمونها للناس»[3]. فهؤلاء هم ولاة الأمر بعده وهم الأمراء والعلماء. وبذلك فسرها السلف ومن تبعهم من الأئمة كالإمام أحمد[4] وغيرِه؛ وهو ظاهر قد قررناه في غير هذا الموضع.

فالأصول الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع هي بمنزلة الدين المشترك بين الأنبياء ليس لأحد خروج عنها، ومن دخل فيها كان من أهل الإسلام المحض، وهم أهل السنة والجماعة، وما تنوعوا فيه من الأعمال والأقوال فهو بمنزلة ما تنوعت فيه الأنبياء قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ (العنكبوت: ٦٩)، وقال تعالى: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، الباب الرابع (١٦٩)، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، الباب السادس (١٧).

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب العلم، الباب الأول (٢٤)، وسنن أبي داود، كتاب العلم، الباب الثالث (٣١٧)، رقم (٣٦٤١).

(٣) من رواته أبو القاسم سليمان الطبراني (المتوفى ٣٦٠هـ/ ٩٧١م)، قال علي بن أبي بكر الهيثمي (المتوفى ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥)، المجمع، الباب الأول (١٦٢): قال أبو الحسن علي الدارقطني (المتوفى ٣٨٥/ ٩٩٥) إنه حديث باطل، وأبطله شمس الدين محمد الذهبي (المتوفى ٧٤٨/ ١٣٤٨)، الميزان، الأول (١٢٦)؛ انظر: عبد الفتاح أبو غدة، الألفة (٦٩)، رقم (٣).

(٤) أحمد بن حنبل، عالم مشهور، فقيه ومحدث، صاحب مذهب من المذاهب الفقهية الأربعة المتبوعة، (متوفى سنة ٢٤١/ ٨٥٥).
انظر: H. LAOUST, EI$^2$, art, Ahmad b. Hanbal

مُّبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ (المائدة: ١٥ - ١٦).

### ب. واجب التسامح:

فالمذاهب والطرائق والسياسات للعلماء والمشايخ والأمراء إذا قصدوا بها وجه الله تعالىٰ دون الأهواء ليكونوا متمسكين بالملة والدين الجامع الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له، واتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم من الكتاب والسنة بحسب الإمكان بعد الاجتهاد التام: هي لهم من بعض الوجوه بمنزلة الشرع والمنهاج[1] للأنبياء عليهم السلام. وهم مثابون علىٰ ابتغائهم وجه الله وعبادته وحده لا شريك له، وهو الدين الأصلي الجامع، كما يُثاب الأنبياء علىٰ عبادتهم الله وحده لا شريك له، ويثابون علىٰ طاعة الله ورسوله فيما تمسكوا به من شرعة رسوله ومنهاجه، كما يثاب كل نبي علىٰ طاعة الله في شرعه ومنهاجه.

ويتنوع شرعهم ومنهاجهم، مثل أن يبلغ أحدهم الأحاديث بألفاظ غير الالفاظ التي بلغت الآخر، وتفسر له بعض آيات القرآن بتفسير يخالف لفظه التفسير الآخر، ويتصرف في الجمع بين النصوص واستخراج الأحكام منها بنوع من الترتيب والتوفيق ليس هو النوع الذي سلكه غيره، وكذلك في عباداته وتوجهاته، وقد يتمسك هذا بآية أو حديث وهذا بحديث أو آية أخرىٰ.

وكذلك في العلم، من العلماء من يسلك بالاتباع طريقة ذلك العالم

---

(١) الشرعة هي: الشريعة؛ أي السنة. المنهاج هو: الطريق والسبيل (مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية، الباب السادس عشر: ١١٣).

فتكون هي شرعهم حتىٰ يسمعوا كلام غيره ويروا طريقته، فيرجح الراجح منها، فتتنوع في حقهم الأقوال والافعال السالفة لهم من هذا الوجه، وهم مأمورون بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه كما أمرت الرسل[1] بذلك؛ ومأمورون بأن لا يفرقوا بين الأمة، بل هي أمة واحدة كما أمرت الرسل بذلك، وهؤلاء آكد؛ فإن هؤلاء تجمعهم الشريعة الواحدة والكتاب الواحد.

وأما القدر[2] الذي تنازعوا فيه فلا يقال: إن الله أمر كلًّا منهم باطنًا وظاهرًا بالتمسك بما هو عليه كما أمر بذلك الأنبياء، وإن كان هذا قول طائفة من أهل الكلام، فإنما يقال: إن الله أمر كلًّا منهم أن يطلب الحق بقدر وسعه وإمكانه، فإن أصابه وإلا فـ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة:٢٨٦). وقد قال المؤمنون: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (البقرة:٢٨٦)، وقال الله: «قد فعلت!»[3]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ ﴾ (الأحزاب:٥). فمن ذمهم ولامهم علىٰ ما لم يؤاخذهم الله عليه فقد اعتدىٰ، ومن أراد أن يجعل أقوالهم وأفعالهم بمنزلة قول المعصوم[4] وفعله وينتصر لها بغير هدىً من الله فقد اعتدىٰ واتبع هواه بغير هدىً من الله.

ومن فعل ما أمر به بحسب حاله: من اجتهاد يقدر عليه، أو تقليد إذا لم

---

(١) انظر: سورة الشورىٰ، الآية (١٣) - وقد مرّت-.

(٢) حرفيًا: «القدْر».

(٣) انظر: صحيح مسلم كتاب الإيمان، الباب الأول (٨١).

(٤) حول عصمة الرسول؛ انظر:

Y. MICHOT, Textes, XII, 30, n. 36, B. ABRAHAMOV, Ismah, Sh. AHMED, Verses.

يقدر علىٰ الاجتهاد، وسلك في تقليده مسلك العدل، فهو مقتصد[1]. إذ الأمر مشروط بالقدرة: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦). فعلىٰ المسلم في كل موطن أن يسلم وجهه لله وهو محسن ويدوم علىٰ هذا الإسلام، فإسلام وجهه: إخلاصه لله، وإحسانه: فعله الحسن، فتدبر هذا فإنه أصل جامع نافع عظيم.

* * *

(١) «وإن اقتصادًا في سبيل وسنة خيرٌ من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة؛ فاحرصوا أن تكون أعمالكم اقتصادًا واجتهادًا علىٰ منهاج الأنبياء وسنتهم». (مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية، الباب العاشر، ترجمة مايكوت، النص الخامس، رقم ٩).

# الفصل الثالث:

## التسامح، والتشدد، ووحدة المجتمع
## (النصوص VIII، ١٩٩٢)

يقوم عوام المسلمين وأولو الأمر اليوم بنفس ما كانوا يقومون به في الماضي، إما بتكوين صداقات مع بقية المسلمين، أو على العكس: إيذاء بعضهم، أو تكفيرهم، أو قتالهم، يصنفونهم بحسب انتماءاتهم الدينية أو العقدية أو القومية... إلخ، سواء كانت هذه التصنيفات لها أساس شرعي من حيث النصوص أو لا أساس لها، متجاهلين بذات الوقت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو غاية وجود الأمة.

بإعادة الأمور إلى نصابها، يستحضر شيخ الإسلام ابن تيمية ضرورة التزام التسامح والصداقة والأخوة بمعناها الحقيقي بين كل المسلمين، كما يحض أيضًا على تنفيذ عملي لوصايا الشريعة والتي يستفيض فيها.

هل يعكس النص المترجم[١] أمورا سياسية بدلًا من الأمور الدينية؟ الجواب: لا، بحكم أن «ولاية الله» تبقى بقلب مواضيع ابن تيمية. وعلى

---

(١) مجموع الفتاوى، الباب الثالث، MRK. I. 303. 1. 18-313. 25-415. 1.4 مثل النص الأول المترجم في الأعلى، صفحة ٢-١٠، فهذا النص مقتطف من «الوصية الكبرى».

الرغم من ذلك، فإن إدراك تلك الصداقة يتضمن ويتوقف، من بين أمور أخرىٰ، علىٰ صداقة الإنسان التي تعتبر كمساهمة فاعلة في بناء المجتمع ومنفتحة علىٰ التعددية مع عدم التنازل في القضايا الأساسية.

### الأمة ونسبية الانتماء:

وكذلك [لا ينبغي] التفريق بين الأمّة وامتحانها بما لم يأمر الله به ولا رسوله: مثل أن يقال للرجل: «أنت شكيلي أو قرفنديّ»[1]. فإن هذه أسماء باطلة ما أنزل الله بها من سلطان[2]. وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ ولا في الآثار المعروفة عن سلف الأئمة لا شكيلي ولا قرفنديّ. والواجب علىٰ المسلم إذا سئل عن ذلك أن يقول: «لا أنا شكيلي ولا قرفنديّ بل أنا مسلم متبع لكتاب الله وسنة رسوله».

وقد روينا عن معاوية بن أبي سفيان[3] أنه سأل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

---

(١) لم أستطع التعرّف علىٰ معنىٰ هذين المثالين من الألقاب؛ وفي الحقيقة فإن نطق هاتين الكلمتين غير مؤكد، فربما تكون قرفندي خطأ إملائي لكلمة قلندري، كما يمكن أن تكون خطأ عن كلمة خرفوش، وهو اللفظ المشتق من التركية - الفارسية، وتعني من يرتدي الأسود من الرعاع في المدن المملوكية العظيمة. انظر: C. TORTEL. Ascetc, 36-8. وسواء أكان ذاك التلميح حول شخص أو حول موضة غير مشهورة، فإن حجة ابن تيمية هنا واضحة.

(٢) سورة النجم، الآية (٢٣): ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾. انظر أيضا: سورة الأعراف، الآية (٧١).

(٣) الخليفة الأموي الأول (ت ٦٠/ ٦٨٠)؛ انظر: H. LAMMENS, EI1, art. Muawiya.

فقال: «أنت علىٰ ملة علي أو ملة عثمان؟» فقال: «بل أنا علىٰ ملة رسول الله ﷺ». وكذلك كان كُلٌّ من السلف يقول: «كل هذه الأهواء في النار»، ويقول أحدهم: «ما أبالي أي النعمتين أعظم عليّ أن هداني الله للإسلام أو أن جنّبني هذه الأهواء». والله تعالىٰ سمانا في القرآن «المسلمين»، «المؤمنين»، «عباد الله». فلا نعدل عن الأسماء التي سماها الله بها إلىٰ أسماء أحدثها قوم - وسموها هم وآباؤهم - ما أنزل الله بها من سلطان.

بل الأسماء التي قد يسوغ التسمي بها مثل انتساب الناس إلىٰ إمام، كالحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي[1]، أو إلىٰ شيخ، كالقادري[2] والعدوي[3] ونحوهم، وقد كان ابن تيمية يُقدّره كثيرًا؛ فيقول: «والشيخ عدي

---

(١) أهل المذاهب الأربعة في الإسلام السني يتبعون إما أبا حنيفة (ولد في الكوفة ٨٠/ ٦٩٩، وتوفي في بغداد ١٥٠/ ٧٦٧)، أو مالك بن أنس (ولد في المدينة بين ٩٠/ ٧٠٨ و٩٧/ ٧١٦، توفي ١٧٩/ ٧٩٦)، أو محمد بن إدريس الشافعي (ولد في غزة ١٥٠/ ٧٦٧، توفي في القاهرة ٢٠٥/ ٨٢٠)، أو أحمد بن حنبل (ولد في بغداد ١٦٤/ ٧٨٠، توفي في بغداد ٢٤١/ ٨٥٥).

(٢) أحد أتباع الشيخ عبد القادر الجيلاني «أو الجيلي» (توفي ٥٦١/ ١١٦٦)، عالم حنفي المذهب، ومؤسس الطريقة القادرية الصوفية. انظر: W. BRAAUNE, $EI^2$, art. Abd Al-kader al Djilani. كتب ابن تيمية تعليقا حول كتاب فتوح الغيب لعبد القادر الجيلاني، ويبدو وكأنه عضو في جماعة القادريين، فقد كان يكنُّ عظيم الاحترام للجيلاني. انظر: Th. MICHEL, Sharh, G. MAKDISI, Sufi.

(٣) أحد أتباع الشيخ الصوفي عدي بن مسافر الأموي الهكاري (ت ٥٥٧/ ١١٦٢)، والذي يوجه ابن تيمية النص التالي لأتباعه؛ انظر:
A. S. TRITTON, $EI^2$, art, 'Adi b. Musafir', B. ACIKYILDIZ, Yezidis, 82-86.

قدس الله روحه كان من أفاضل عباد الله الصالحين وأكابر المشايخ المتبعين وله من الأحوال الزكية والمناقب العليا ما يعرفه أهل المعرفة بذلك وله في الأمة صيت مشهور ولسان صدق مذكور وعقيدته المحفوظة عنه لم يخرج فيها عن عقيدة من تقدمه من المشايخ الذين سلك سبيلهم، كالشيخ الإمام الصالح أبي الفرج عبد الواحد بن محمد بن علي الأنصاري الشيرازي ثم الدمشقي، وكشيخ الإسلام الهكاري ونحوهما». (مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية، الباب الثالث، ٣٧٧).

يَعتبر اليزيديون الشيخَ عدي بن مسافر المؤسس لدينهم، ويقولون بألوهيته، ويعتبر ضريحه في لاليش في كردستان أهم الصروح الدينية المقدسة لديهم[1].

وفي الأسفل في الصفحة (٢٩): يتنبه شيخ الإسلام ابن تيمية للانحرافات التي عانت منها تعاليم الشيخ عدي بن مسافر ابتداء من خليفته الثالث وهو حسن بن عدي بن أبي البركات بن صخر بن مسافر. فينتقد هذه الانحرافات لديهم التي تمثلت في إيلاء أهمية زائدة للخليفة يزيد بن معاوية ضد الشيعة الذين يعتبرون أن يزيدًا هو السبب في مقتل الحسين في كربلاء (٦١/ ٦٨٠): «وأقوام يعتقدون أنه كان إمامًا عادلًا هاديًا مهديًا، وأنه كان من الصحابة أو أكابر الصحابة، وأنه كان من أولياء الله تعالىٰ. وربما اعتقد بعضهم أنه كان من الأنبياء! ويقولون: من وقف في يزيد وقفه الله علىٰ نار جهنم. ويروون عن

---

(١) انظر:

P. G. KREYENBROEK, EI², art. Yazidi, B. ACIKYILDIZ, Yezidis, J. S. GUEST, Yezidis, 15-27.

الشيخ حسن بن عدي: أنه كان كذا وليًا، ومن وقفوا فيه وقفوا على مثل الانتساب إلى القبائل: كالقيسي واليماني[1]، وإلى الأمصار كالشامي، والعراقي، والمصري؛ فلا يجوز لأحد أن يمتحن الناس بها، ولا يوالي بهذه الأسماء ولا يعادي عليها، بل أكرم الخلق عند الله أتقاهم من أي طائفة كان[2].

النار: لقولهم في يزيد. وفي زمن الشيخ حسن زادوا أشياء باطلة نظمًا ونثرًا. وغلوا في الشيخ عدي وفي يزيد بأشياء مخالفة لما كان عليه الشيخ عدي الكبير قدس الله روحه فإن طريقته كانت سليمة لم يكن فيها من هذه البدع، وابتلوا بروافض عادوهم، وقتلوا الشيخ حسنًا[3]، وجرت فتن لا يحبها الله ورسوله. (مجموع الفتاوى لابن تيمية، الباب الثالث، ٤١٠).

### التقوى والولاية[4]:

وأولياء الله الذين هم أولياؤه: هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، فقد أخبر

---

(١) القبيلتان العربيتان الرئيسيتان واللتان لعب صراعهما الدموي دورًا مهمًا في التاريخ العربي – الإسلامي: قبيلة قيس (عيلان أو عرب الشمال)، واليمنيون أو عربُ الجنوب.
انظر: W. MONTGOMERY WATT, EI$^2$, art. Kays Aylan

(٢) انظر سورة الحجرات، الآية (١٣): ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

(٣) حاكم الموصل بدر الدين لؤلؤ (ولد في ٦٠٧/ ١٢١١ وتوفي في ٦٧٥/ ١٢٥٩) كان ابنًا لوالد شيعي، هاجم اليزيديين، واقتاد الشيخ حسنًا وأعدمه في ٦٥١/ ١٢٥٤.
انظر: B. ACIKYILDIZ. Yezidis, 41-42

(٤) «والولاية ضد العداوة، وأصل الولاية: المحبة والقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد» (مجموع الفتاوى لابن تيمية، الباب الحادي عشر، ١٦٠).

سبحانه أن أولياءه هم المؤمنون المتقون وقد بيّن المتقين في قوله تعالىٰ: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ[1] وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٧٧). والتقوىٰ هي فعل ما أمر الله به وترك ما نهىٰ الله عنه.

وقد أخبر النبي ﷺ عن حال أولياء الله وما صاروا به أولياء، ففي صحيح البخاري[2] عن أبي هريرة[3] ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تبارك تعالىٰ: من عادىٰ لي وليا فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس

---

(١) يعني: إعتاق العبيد، وفداء الأسرىٰ.

(٢) محمد بن إسماعيل البخاري (توفي في خرتنك ٢٥٦/ ٨٧٠) مؤلف أعظم كتاب في الحديث؛ انظر: ROBSON, EI$^2$. art. 'al-Bukhari'، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، الباب الثامن، رقم ١٠٥. الرواية نوعًا ما مختلفة، وهناك رواية أقصر عن عائشة في مسند ابن حنبل، الباب الرابع، الرقم ٢٥٦. حول هذا الحديث القدسي المهم؛ انظر: W.A. GRAHAM, Divine, 74-173, no. 49

(٣) صحابي جليل (ت ٨٥/ ٦٧٨)؛ انظر: J. ROBSON, EI$^2$, art. 'Abu Hurayra'

عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه».

فقد ذُكر في هذا الحديث أن التقرب إلىٰ الله تعالىٰ علىٰ درجتين: إحداهما التقرب إليه بالفرائض، والثانية هي التقرب إلىٰ الله بالنوافل بعد أداء الفرائض. فالأولىٰ درجة «المقتصدين» الأبرار أصحاب اليمين. والثانية درجة «السابقين» المؤمنين كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ (المطففين: ٢٢ - ٢٨)[1]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يمزج لأصحاب اليمين مزجًا، ويشربه المقربون صرفًا».

وقد ذكر الله هذا المعنىٰ في عدة مواضع من كتابه: فكل من آمن بالله ورسوله واتقىٰ الله فهو من أولياء الله.

## الولاية والأخوة:

والله سبحانه قد أوجب موالاة المؤمنين بعضهم لبعض، وأوجب عليهم معاداة الكافرين، فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا

(١) يذكر ابن تيمية فقط الآيات من (٢٢-٢٦)، ومن أجل التوضيح فقد أضفنا الآيات (٢٧-٢٨)، كما يفعل هو نفسه في أماكن أخرىٰ حول نفس الموضوع (كما في مجموع الفتاوىٰ، الباب الحادي عشر، الرقم (٢٣) علىٰ سبيل المثال).

دَآبِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ (المائدة: ٥١ - ٥٦).

فقد أخبر سبحانه أن وليّ المؤمنين هو الله ورسولُه وعبادُه المؤمنون، وهذا عام في كل مؤمن موصوف بهذه الصفة؛ سواء كان من أهل نسبة أو بلدة أو مذهب أو طريقة أو لم يكن، وقال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ ﴾ (التوبة: ٧١)، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ ﴾ (الأنفال: ٧٢ - ٧٥). وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ

ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات: ٩ - ١٠).

وفي الصحاح: عن النبي ﷺ أنه قال: «مَثَلُ المؤمنين في تَوَادِّهم وتراحُمهم وتعاطُفهم: كمثل الجسد، إذا اشتكىٰ منه عضو؛ تَدَاعَىٰ له سائرُ الجسد بالحُمَّىٰ والسهر»[1]. وفي الصحاح أيضًا: أنه قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان؛ يشد بعضه بعضا»[2] وشبك أصابعه. وفي الصحاح أيضًا: أنه قال: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[3]. وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلِمه»[4].

وأمثال هذه النصوص في الكتاب والسنة كثيرة، وقد جعل الله فيها عبادَه المؤمنين بعضهم أولياء بعض، وجعلهم إخوة متناصرين متراحمين متعاطفين،

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأدب، الباب الثامن، رقم (١٠)، صحيح مسلم، كتاب البر، الباب الثامن، رقم (٢٠)، مسند ابن حنبل، الباب الرابع، رقم (٢٧٠)، بروايات مختلفة بشكل طفيف.

(٢) انظر علىٰ وجه الخصوص: صحيح البخاري، كتاب الأدب، الباب الثامن، رقم (١٢)، صحيح مسلم، كتاب البر، الباب الثامن، رقم (٢٠)، مسند ابن حنبل، الباب الرابع، رقم (٤٠٥)، بروايات مختلفة بشكل طفيف.

(٣) انظر علىٰ وجه الخصوص: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، الباب الأول، رقم (١٢)، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، الباب الأول، رقم (٤٩)، مسند ابن حنبل، الباب الثالث، رقم (١٧٦)، بروايات مختلفة بشكل طفيف.

(٤) انظر علىٰ وجه الخصوص: صحيح البخاري، كتاب المظالم، الباب الثالث، رقم (١٢٨)، صحيح مسلم، كتاب البر، الباب الثامن، رقم (١١)، مسند ابن حنبل، الباب الثاني، رقم (٦٨)، بروايات مختلفة بشكل طفيف.

وأمرهم سبحانه بالائتلاف ونهاهم عن الافتراق والاختلاف، فقال: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ (آل عمران: ١٠٣). وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥٩).

### تقسيم الأمة وإضعافها:

فكيف يجوز مع هذا لأمة محمد ﷺ أن تفترق وتختلف حتىٰ يوالي الرجل طائفة ويعادي طائفة أخرىٰ بالظن والهوىٰ بلا برهان من الله تعالىٰ؟ وقد برّأ اللهُ نبيَّه ﷺ ممن كان هكذا، فهذا فعل أهل البدع، كالخوارج الذين فارقوا جماعة المسلمين واستحلوا دماء من خالفهم. وأما أهل السنة والجماعة فهم معتصمون بحبل الله.

وأقل ما في ذلك أن يفضل الرجل من يوافقه علىٰ هواه وإن كان غيره أتقىٰ لله منه. وإنما الواجب أن يقدم من قدمه الله ورسوله، ويؤخر من أخره الله ورسوله، ويحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، وينهىٰ عما نهىٰ الله ورسوله عنه، وأن يرضىٰ بما رضىٰ الله به ورسوله؛ وأن يكون المسلمون يدًا واحدة.

فكيف إذا بلغ الأمر ببعض الناس إلىٰ أن يضلل غيره ويكفره، وقد يكون الصواب معه وهو الموافق للكتاب والسنة، ولو أخطأ أخوه المسلم في شيء من أمور الدين؛ فليس كل من أخطأ يكون كافرًا ولا فاسقًا، بل قد عفا الله لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان، وقد قال تعالىٰ في كتابه في دعاء الرسول ﷺ

والمؤمنين: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦)، وثبت في الصحيح أن الله قال: «قد فعلت».

لا سيما وقد يكون من يوافقكم في أخص من الإسلام، مثل أن يكون مثلكم على مذهب الشافعي أو منتسبًا إلى الشيخ عدي، ثم بعد هذا قد يخالف في شيء، وربما كان الصواب معه، فكيف يستحل عرضه ودمه أو ماله مع ما قد ذكر الله تعالى من حقوق المسلم والمؤمن؟! وكيف يجوز التفريق بين الأمة بأسماء مبتدعة لا أصل لها في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ؟!

وهذا التفريق الذي حصل من الأمة علمائها ومشايخها وأمرائها وكبرائها هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها. وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ ﴾ (المائدة: ١٤).

فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به؛ وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرق القوم؛ فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا؛ صلحوا وملكوا؛ فإن الجماعة رحمة والفرقة عذاب.

**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

وجماع ذلك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ

لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢ - ١٠٤).

فمن الأمر بالمعروف: الأمر بالائتلاف والاجتماع، والنهي عن الاختلاف والفرقة. ومن النهي عن المنكر: إقامة الحدود علىٰ من خرج من شريعة الله تعالىٰ.

فمن اعتقد في بشر أنه إله، أو دعا ميتًا، أو طلب منه الرزق والنصر والهداية وتوكل عليه أو سجد له، فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه.

ومن فضّل أحدًا من المشايخ علىٰ النبي ﷺ، أو اعتقد أن أحدًا يستغني عن طاعة رسول الله ﷺ، استتيب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه.

وكذلك من اعتقد أن أحدًا من أولياء الله يكون مع محمد ﷺ كما كان الخضر[1] مع موسىٰ عليه السلام، فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه؛ لأن الخضر لم يكن من أمة موسىٰ عليه السلام ولا كان يجب عليه طاعته، بل قال له: «إني علىٰ علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت علىٰ علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه». وكان مبعوثًا إلىٰ بني إسرائيل كما قال نبينا ﷺ: «وكان النبي يبعث إلىٰ قومه خاصة، وبُعثت إلىٰ الناس عامة»[2]. ومحمد ﷺ مبعوث إلىٰ جميع الثقلَيْن: إنسهم وجنهم، فمن اعتقد أنه يسوغ لأحد

---

(١) اتخذ بعض الصوفيين عدم خضوع الخضر لموسىٰ كذريعة للتنصل من طريق الإسلام. رفض ابن تيمية أي صحة لهذا العذر.

انظر: Musique 39-138. Y. MICHOT. Texts III. 9-10, n 16,

(٢) انظر علىٰ وجه الخصوص: صحيح البخاري، كتاب التيمم، الباب الأول، رقم (٧٤).

الخروج عن شريعته وطاعته؛ فهو كافر يجب قتله.

وكذلك من كفر المسلمين أو استحل دماءهم وأموالهم ببدعة ابتدعها ليست في كتاب الله ولا سنة رسوله؛ فإنه يجب نهيه عن ذلك وعقوبته بما يزجره ولو بالقتل أو القتال، فإنه إذا عوقب المعتدون من جميع الطوائف، وأكرم المتقون من جميع الطوائف، كان ذلك من أعظم الأسباب التي ترضي الله ورسوله ﷺ وتصلح أمر المسلمين.

ويجب علىٰ أولي الأمر وهم علماء كل طائفة وأمراؤها ومشايخها أن يقوموا علىٰ عامتهم، ويأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر، فيأمروهم بما أمر الله به ورسوله، وينهوهم عما نهىٰ الله عنه ورسوله ﷺ.

## أوامر ونواهي الشريعة:

(فالأول) مثل شرائع الإسلام: وهي الصلوات الخمس في مواقيتها وإقامة الجمعة والجماعات من الواجبات، والسنن الراتبات: كالأعياد، وصلاة الكسوف، والاستسقاء والتراويح وصلاة الجنائز، وغير ذلك. وكذلك الصدقات المشروعة والصوم المشروع وحج البيت الحرام. ومثل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره، ومثل الإحسان وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك[1].

ومثل سائر ما أمر الله به ورسوله من الأمور الباطنة والظاهرة، ومثل

---

(١) انظر حديث جبريل في: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، الباب الأول، رقم (١٩) في نصوص ابن تيمية المترجمة في .Y. MICHOT, Texts IV 11

إخلاص الدين لله، والتوكل علىٰ الله، وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. والرجاء لرحمة الله والخشية من عذابه، والصبر لحكم الله، والتسليم لأمر الله، ومثل صدق الحديث، والوفاء بالعهود، وأداء الأمانات إلىٰ أهلها، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، والإحسان إلىٰ الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والصاحب والزوجة والمملوك والعدل في المقال والفعال.

ثم الندب إلىٰ مكارم الأخلاق، مثل: أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٤٢ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ (الشورىٰ: ٤٠ - ٤٣).

وأما المنكر الذي نهىٰ الله عنه ورسوله فأعظمه الشرك بالله، وهو أن يدعو مع الله إلهًا آخر، إما الشمس وإما القمر وإما الكواكب أو ملكًا من الملائكة أو نبيًّا من الأنبياء أو رجلًا من الصالحين أو أحدًا من الجن أو تماثيل هؤلاء أو قبورهم أو غير ذلك مما يدعىٰ من دون الله تعالىٰ أو يستغاث به أو يسجد له، فكل هذا وأشباهه من الشرك الذي حرمه الله علىٰ لسان جميع رسله.

وقد حرم الله قتل النفس بغير حقها، وأكل أموال الناس بالباطل إما بالغصب وإما بالربا أو الميسر، كالبيوع والمعاملات التي نهىٰ عنها رسول الله

ﷺ، وكـذلك قطيعـة الـرحم وعقـوق الوالـدين وتطفيـف المكيـال والميـزان والإثم والبغي بغير الحق.

وكذلك مما حرمه الله تعالىٰ: أن يقول الرجل علىٰ الله ما لا يعلم، مثل أن يروي عن الله ورسوله أحاديث يجزم بها وهـو لا يعلـم صـحتها، أو يـصف الله بصفات لم ينزل بها كتاب من الله ولا أثارة مـن علـم عـن رسـول الله ﷺ، سواء كانت من صفات النفي والتعطيل(١)، مثل قول الجهمية(٢): إنه لـيس فـوق العرش ولا فوق السماوات، وإنه لا يرىٰ في الآخرة، وإنه لا يتكلم ولا يحـب، ونحو ذلك مما كذبوا به الله ورسوله أو كانت من صفات الإثبات والتمثيـل(٣)، مثل من يزعم أنه يمشي في الأرض أو يجالس الخلق، أو أنهم يرونـه بـأعينهم، أو أن السماوات تحويه وتحيط به، أو أنه سار في مخلوقاته، إلىٰ غير ذلـك مـن أنواع الفرية علىٰ الله.

وكذلك العبادات المبتدعة التي لم يشرعها الله ورسوله ﷺ، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ (الشورىٰ: ٢١). فإن الله شرع لعباده المؤمنين عبادات، فأحدث لهم الشيطان عبادات ضاهاها

---

(١) التعطيـل: G. MAKDISI, Ash'ari، (٥١)، هـو تعبيـر جديـد يـستخدم كمـصطلح فنـي، والمعنىٰ: التعرية والإنقاص حتىٰ اللاشيء.

(٢) أتباع جهم بن صفوان، أبو محرز (ت ١٢٨/ ٧٤٦).

انظر: W.MONTGOMERY WATT, EI$^2$, art, 'Diam b. Safwan', 'Diahmiyaa'

(٣) نفي صفات الله وتعطيلها أو إثباتها بتشبيه الله لعباده هي تجاوزات رفض ابـن تيميـة أن تتضمنها المنهجيـة الـسنية، ويعتبر ابـن تيميـة جهـم بـن صـفوان مـن أتبـاع جعـد بـن درهـم (ت١٢٤/ ٦٤٢) منشئ المعتزلة.

بها، مثل: أنه شرع لهم عبادة الله وحده لا شريك له، فشرع لهم شركاء وهي عبادة ما سواه والإشراك به.

* * *

# الفصل الرابع:

## الكفر والمغفرة

## (Mecreance, 2005)

في التكفير خطر، والسكوت لا خطر فيه.

**الغزالي، الفيصل، ١٤٤.**

إن البحث عن أعذار للناس بشكل موسع هو منهج ابن تيمية المتمثل بعدم تكفير الناس حتىٰ يتم تبليغهم ووضع الحجة عليهم بخصوص ما يشكون فيه؛ فمن أقواله: «عندما يصف مجتهد جهول مسائل معينة بأنها كفر وضلال، ربما لم يصله الدليل الصحيح، فلعله يتوب ويعود يومًا إلىٰ ربه». كما قال أيضًا: «لا نكفر صاحب الإيمان الراسخ اليقينيّ حتىٰ نكون نحن متيقنين».

**الذهبي، النبذة، ٣٣٧.**

تبعًا للجنة الوطنية للهجمات الإرهابية في الولايات المتحدة ففي تقريرها حول أحداث ١١ سبتمبر أن شيخ الإسلام المتوفّىٰ في السجن في دمشق عام ٧٢٨/ ١٣٢٨ متهم بالاسم بكونه المؤسس لهذا «التقليد طويل من التعصب الشديد»[1].

---

(١) لمزيد من الأمثلة حول مثل هذه الاتهامات؛ راجع: Y. MICHOT, Muslims, 123-32

من الطبيعي أن يكره المسلمون الإمبريالية بحكم أنّهم مأمورون بالجهاد لتحقيق العدل بأيّ طريقة كانت.

وعلىٰ كل حال فإنّه عند اللجوء إلىٰ القوة في الإسلام، كما في غيرها من جوانب الحياة، هناك بعض القواعد التي يجب اتباعها. كما تتطلب بعض المواقف المعقدة شيئًا من التعقل والموازنة بين الإيجابيات والسلبيات وبعض البراغماتية. عندما سئل ابن تيمية عن حالة بلاد الحرب وبلاد السلم في ماردين، والتي كانت محتلة من المغول في وقته، رفض أن يحدد نفسه بهذين الخيارين فقط، واقترح حالة أخرىٰ وهي «الحالة المركبة»[1]؛ إنّ هذا وحده كافيًا أن يبطل حكمًا ضده من المسؤولية عن تبنّيٰ هذه الثنائية في «تقسيم العالم إلىٰ مجالين منفصلين تمامًا: دار الإسلام ودار الكفر (المسلمين مقابل الكافرين) مع حتمية العداوة بينهما»[2].

إنّ العلاقة بين المسلمين وأعدائهم في الخارج ليست موضوع البحث في هذا القسم والذي يناقش المشاكل الداخلية للمسلمين وعلاقة المسلمين مع بعضهم. كما أننا لن نناقش هنا السياسات الخارجية أو الداخلية فلقد دُرست هذه المواضيع في مطبوعات أخرىٰ[3]. لقد أتيحت لي الفرصة في تلك الأعمال عندما تكلمتُ عن علاقة المسلمين بحكامهم أن أبيّن أن الاتهام بالتعصب الشديد الموجه بشكل غير مباشر لابن تيمية من قبل لجنة ١١/ ٩ هو اتهام باطل.

---

(١) انظر: Y. MICHOT, Muslims, 65, New Fatwa

(2) N. J. DELONG-BAS, Wahhabi, 248.

(٣) انظر: Y. MICHOT, Muslims, 49-56

ولكن، مع غياب أي سؤال عن الاستعمار أو عن الغزاة الكفار وبقية المغول، أوعن الحكومات القديمة والحديثة أو المستبدة، أو عن الطغاة وبقية الدكتاتوريين الذين لا يقلون سوءًا عن التتار؛ ألا يضع التكفير المتبادل للمسلمين النقاط علىٰ الحروف في حياة المسلمين اليومية كأفراد وجماعات؟ أليست الأمة ممزقة بين السلفيين والصوفيين، بين المستغربين والأصوليين، بين المُصلحين والإرهابيين، بين المتمسكين والمتنازلين، بين العلمانيين وطالبان؟ وفي خضم هذا التنابز بالألقاب، يركز ابن تيمية فقط علىٰ الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان، ولكن من المؤكد أنه يدعو لاحترام التنوع ضمن الإسلام[1]. ومع ذلك، نجد أنّ ن ج ديلون - باس تؤكد أنّ ابن تيمية يختلف عن بقية العلماء «في استعداده لقبول أي شخص يدعي الإسلام ويتصرف كالكفار»[2].

تعود صفية قائلة: أيتُها الأخوات، لدينا فرصة مواتية لنمضي هذه الليلة بمزيدٍ من الرضىٰ، وإن كنتن تفكرن بما أفكر به، فلن نفوت الفرصة. هنالك ثلاثة قلندريين علىٰ بوابتنا، منظرهم كعادتهم ولكن ما سيلفت انتباهكم هو أنهم لا يرون بعيونهم اليمنىٰ، كما أنهم حليقو الرأس والذقن والحواجب. يقولون أنّهم وصلوا لتوهم إلىٰ بغداد التي لم يزوروها مسبقًا؛ وعندما عمّ المساء ولم يجدوا مكانًا يأوون إليه، طرقوا بابنا صدفة مستحلفيننا بحب الله

---

(١) انظر سورة النجم، الآية (٢٣): ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾. وانظر: سورة الأعراف، الآية (٧١)، ونص ابن تيمية المترجم في ص (٢٠-٢١).

(2) N.J. DELONG_BAS, Wahhabi, 248.

أن نشفق عليهم ونستضيفهم في منزلنا. لا يهمهم المكان طالما أنهم في مأوىٰ حتىٰ لو آويناهم إلىٰ حظيرة. إنّهم وسيمون ويبدو أنهم طيبون أيضًا، إلّا أنني لا أتمالك نفسي من الضحك كلما نظرت إلىٰ شكلهم الموحد الظريف»[1].

مَن مِن قرّاء الليالي العربية ينسىٰ قصة الدراويش الثلاثة؟ يقدمهم غالاند في ترجمته الفرنسية الشهيرة علىٰ أنهم «دراويش (أو مجاذيب) وأنّ المسلمين بشكل عام لا يقرّونهم علىٰ حياتهم الدينية»[2].

تستخدم القلندرية في العربية عادة للإشارة إلىٰ الانحراف الاجتماعي عن الدروشة وتشمل أنواعًا ودرجات مختلفة من الفقر، التسول، التنقل، الرهبنة، وتعذيب النفس. وتبعا لـ أ. قره مصطفىٰ، والذي ساهم بدراسة قيمة جدًا حول هذا الموضوع[3]، فإنّ بداية ظهور هذا النوع من الزهد علىٰ شكل «تجمعات اجتماعية معروفة» كانت في القرن السابع/ الثالث عشر في سوريا ومصر[4]. ففي دمشق ثم في دلتا النيل ودمياط، حيث يعتقد أنّ الإيراني جمال

---

(1) R. L. MACK (ed), Nights. 71 (anonymous 'Grub Street' translation. c. 1706-1721. of A. GALLAND. Nuits, n. XXXII. i. 118-19).

(2) Ibid.. 118.

(٣) A. KARAMUSTAFA. Friends، انظر أيضا: الدراسة الممتعة لـ C.TOREL, Ascete الذي يربط القلندريين بالزهد والغجر في الهند. يشبههم ت. يازجي بالهيبيين المعاصرين في EI[2]. art. 'Kalandar'. 'Kalandariyya'

(٤) بالنسبة لأدبيات القلندرية يمكن أن تجد آثارا لها في التصوف الإيراني من القرن السادس/ الثاني عشر، إن لم يكن قبل ذلك.

انظر: A. KARAMUSTAFA. Friends, 32-34. J. T. P. DE BRUIJN. Qalandariyyat.

عايش العصر التالي للإسلام التقليدي تطور الصوفية إلىٰ الصوفية الشعبية وحركات الدراويش وبقية الفقراء الذين يزيد أو ينقص إيمانهم بالشرع. قد يفكر المرء بأن هذه=

الدين الصاوي (أو الصواجي المتوفىٰ ٦٣٠/ ١٢٣٣)[1] قد لعب دورًا بارزًا في تكوين القلندرية من خلال عادته بحلق رأسه كاملًا (الشعر، الذقن، الشوارب، الحواجب، حتىٰ الرموش أحيانًا). ولأنه أراد أن يكون ميتًا بالنسبة للعالم، فقد اعتاد العيش بالمقابر، وكان بالكاد يلبس كيسًا (جولقًا)، منسحبا بالكامل من تعاليم الدين بدون أن يسبب ذلك له أية مشاكل. وعلىٰ الرغم من عدم تقبل الناس لأفعال الصاوي كمظهر من مظاهر التقوىٰ، إلا أنّه سرعان ما انتشرت حركة القلندرية لدىٰ مسلمي الشرق كما في وسط آسيا والهند[2].

---

=الحركات التي تدعي بأنها تنتمي لشيوخ العراق كعبد القادر الجيلاني (ت ٥٦١/ ١١٦٦) وأحمد الرفاعي (ت ٥٧٨/ ١١٨٢)، أو شيوخ الأندلس كأبو ميدان (ت ٥٩٤/ ١١٩٧)، أو إلىٰ نجم الدين الكبرىٰ الخوارزمي (ت ٦١٧/ ١٢٢٠)، أو إلىٰ شيوخ المغرب كأبي الحسن الشاذلي (ت ٦٥٦/ ١٢٥٨) وأحمد البدوي (ت ٦٧٥/ ١٢٧٦)، أو إلىٰ جلال الدين الرومي الأفغاني، أو إلىٰ شيوخ مصر كإبراهيم الدسوقي (ت ٦٧٧/ ١٢٧٨؟)، أو إلىٰ شبه الأسطورة التركي الحاج بكداش (ت ٥٦١/ ١١٦٦).

انظر:

J. SPENCER-TRIMINGHAM, Orders. A. POPOVIC & G. VEINSTEIN (eds). Voies. 55-67 (article by E. GEOFFROY).

إن حركة الدراويش الموصوفة بالقلندرية هي الحيدرية، وهي جماعة إمامها الإيراني قطب الدين حيدر (ت ٦١٨/ ١٢٢١)؛ انظر:

A. KARAMUSTAFA, Friends, 3, 44046, TOREL, Ascete. 201-02. Y. MICHOT, Haschich, 40-41.

(١) انظر: A. KARAMUSTAFA, Friends, 39-44, C. TOREL, Ascete, 196-201

(٢) يصف A VAMBERY في كتابه (Voyage. 86-87) قلندريي خيفا الذين قابلهم عام ١٨٦٣ بما يلي: «رجعت إلىٰ خان القلندرية عند بوابة المدينة الوحيدة، فوجدت بضعة=

وبكونها كذلك، سرعان ما ظهر النقاد والساخرين لهذه الطريقة؛ ففي حياة الصاوي نفسه[1]، وضع زين الدين الجوبري «الجولقية» وهم الذين يرتدون الجولق وهو كيس حفظ الحبوب - يعني القلندريين - من ضمن المشعوذين والدجالين الذين يسعد بوصف سلوكهم في كتابه مقتطفات من فضائح سرائر الستائر ( Anthology of the Disclosing of Secrets and Tearing of Curtains) فلا يكتفي باتهامهم بحلق الذقون، ولكنه يزيد على ذلك بقوله: «إنّهم لا يصومون ولا يصلون ولا يتبعون أيّا من أوامر الدين، ولا يطهرون أنفسهم بالوضوء»[2].

ومن الشيوخ المعاصرين للصاوي، الشيخ المتعصب أبو حفص عمر

---

=دراويش قد برزت عظامهم لإدمانهم المخدرات، كانت حالتهم يرثىٰ لها ويصعب حتىٰ النظر إليهم؛ فقد كانوا ممددين هنا وهناك علىٰ أرض مهجعهم الرطبة. ألقوا التحية وقدموا بعض الخبز والفاكهة. وعندما أردت دفع ثمن الطعام، ضحكوا وأعادوه قائلين إنّ العديد منهم لم يلمس فلسًا واحدًا منذ عشرين عامًا. في الحقيقة، لقد اهتم أهل الحي بهم، وخلال المساء رأيت العديد من الفرسان الأوزبكيين يأتون ليدفعوا حصتهم من الضريبة ويملؤوا بالمبادلة سجائرهم المفضلة بالحشيش؛ يفعلون ذلك ليتهربوا من الأمر القرآني بتحريم الخمر والمشروبات الكحولية المقطرة. للمزيد من الشرح المبكر عن القلندريين مما كتبه الرحالة الأوربيون؛ انظر ما جمعه: C. TOREL, Ascee, 205-08، وحول القلندريين الهنود في القرن العشرين؛ انظر: O. M. BURKE. Dervishes, 70-81، وانظر الصور التي جمعها: R. & S. MICHAUD, Dervishes, 144-45

(١) انظر: A. KARAMUSTAFA, Friends, 4-6, 32-36

(٢) AL-JAWBARI, Kushf, trans. KHAWAM, Viole, I. 84، وحول الكشف انظر: C.E. BOSWORTH, Underworld, i. 106-18.

السهروردي في بغداد (ت ٦٣٢/ ١٢٣٤) والذي يرفض تصنيف القلندريين كمتصوفة. وعند مقارنتهم بالملامتية (رجال اللوم)[١]، يعيب عليهم عدم امتثالهم للأوامر وروحانيتهم التي يعتبرها مماثلة بالحد الأدنىٰ للسعي وراء الملذات.

**الباب التاسع: في ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم[٢].**

ينضوي تحت هذا المسمىٰ من يطلقون علىٰ أنفسهم «قلندرية» أو «رجال الملامتية»، وقد وضحنا سابقا الحالة الروحانيّة لرجال الملامية بأنها حالة نبيلة وموقف ثمين ملتزم بالسنة والسلف الصالح، والصدق والإخلاص، وأن لا علاقة لها بما يدعيه بعض المفتونين.

وعند الحديث عن القلندريين، فإنّ هذا المصطلح يشير إلىٰ أولئك الذين استفحلت طيبة قلوبهم إلىٰ الحد الذي أفشل عاداتهم وجعلهم لا يلتزمون بقواعد الجماعة، هائمين علىٰ وجوههم باستهتار بسبب هذه الطيبة. وإذا ما تحدثنا عن صلاتهم وصيامهم، فإنّهم قلما يقومون بأكثر من المفروض. لا يعنيهم أبدا التلذذ بأي من ملذات الحياة بما فيها تلك التي أحلها الشرع، وغالبا ما يكفيهم مجرد الشعور بأنهم مخولون لفعل أمر ما.

---

(١) عادة صوفية ظهرت في القرن الثالث/ التاسع، يبتعد أصحابها عن كل مظاهر التفاخر الديني. يظهرون فقط ضعفهم وقصورهم بشكل يجعلهم يحاكمون ويلومون أنفسهم والآخرين. للمزيد؛ اقرأ:

F. DE JONG, EI[2], art. 'Malamatiyya', AL-SULAMI (d.412/1021), Risala, trans, DELADREIRE, Lucidite.

(2) AL-SUHRAWARDI, 'Awarif, title of ch. IX, Istanbul, Süleymaniye, MS Leila Ismail 180, fol. 35r.

وعلاوة علىٰ ذلك، لا يطلبون عزائم الأمور، كما تراهم عاطلين عن العمل لا يجتمعون بالناس لاهثين وراء زيادة حالتهم الروحانيّة. يقنعون أنفسهم بالطيبة التي تحظىٰ بها قلوبهم المتصلة بالله ﷻ، وهم راضون بذلك؛ فليس منهم من هو منهمك بالبحث عن أي شيء عدا الانشغال بزيادة طيبة قلبه.

يتجلىٰ الفرق بين رجال الملامية والقلندريين في أنّ رجال الملامية يبذلون أنفسهم ليخفوا عباداتهم، في حين أن القلندريين يبذلون أنفسهم ليخربوا عاداتهم. كما يلتزم رجال الملامية بكل مجال للخير والتقوىٰ، فتظهر عليهم الفضيلة ولكنهم يخفون أعمالهم وروحانيّاتهم عن الآخرين. يتصرف الواحد منهم كالعوام ويتجلىٰ ذلك من خلال مظهره ولباسه وحركاته وتعاملاته بحيث يحاول إخفاء روحانيته فلا يكتشفه أحد. ومع وضع كهذا، تجد الواحد منهم منشغل بزيادة حالته الروحانيّة ويجتهد لفعل كل ما يقربه من ربه. أما بالنسبة للقلندريين، فإن الواحد منهم غير ملتزم بمظهر معين، ولا يهمه إن عرف أم لم يعرف الآخرون حالته الروحانيّة التي هي كل ما يملك»[1].

لقد كانت ملاحظة لاوست صحيحة بأنه ومع بداية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي كان «التصوف يبلي بلاء حسنا»[2]، وأن

---

(١) AL-SUHRAWADI, Awarif, CH. IX, 76، انظر أيضا:

A. KARAMUSTAFA, Friends, 34-36, J. SPENCER-TRIMINGHAM, Orders, 267.

أعيدت صياغة نص السهروردي في AL-MAQRIZI, Khitat, ii, 432-33

ترجمت نسخة المقريزي من (بأخطاء مهمة) وشرحت من غير الانتباه لما تضمنته من السهروردي من قبل J. –C. GARACIN, Soufis, 32-33

(٢) H LAOUST, Essai, 22 يرسم لاوست لوحة جميلة من نجاحه الباحر في الصوفية في=

القلندريين ليسوا كسالىٰ تماما فلديهم زوايا تحت تصرفهم؛ ليس فقط في دمياط قرب ضريح الصاوي، وإنّما في القاهرة ودمشق أيضًا. والفضل هنا يعود للروح المغامرة لحسن الجوالقي القلندري (المتوفىٰ في دمشق ٧٢٢/ ١٣٢٢)، وهو واحد من الشيوخ الذين تلقوا دعما من السلطان المملوكي العادل زين الدين كتبغا الذي لم يعش طويلا (حكم من ٦٩٤/ ١٢٩٥ إلىٰ ٦٩٦/ ١٢٩٧)[1].

لقد تم تدوين الخلافات الجدلية بين ابن تيمية وفقراء الأحمدية الرفاعية بشكل جيد[2]. وعلىٰ العكس من ذلك، فإننا لا نعلم عن أي مواجهة مباشرة حصلت بينه وبين القلندريين، إلا أنّه عندما سئل عنهم في أول نص مترجم في الأسفل (النص A)، لم ينم جوابه عن أي موقف محدد أو عداء تجاههم. أما فيما يخص عباداتهم، فلا يخبرنا بشيء لأن الجوباري الفوضوي حليق اللحية الممتنع عن الصيام والصلاة لم يتكلم عن الموضوع. بالنسبة لأفكارهم، فإنّه يعتبر أن الذين لم يكفروا منهم قد «ضلوا وانحرفوا في أحسن

---

=هذا الكتاب (٢٢-٣٢). للمزيد حول القرن السابع/ الثالث عشر بشكل عام؛ انظر:
L. POUZET, Damas, 207-43

(١) انظر: L. POUZET, Damas, 228-29, 281, 446 KARAMUSTAFA, Friends, 53,
يتأرخ لـ بوزيت وفاة الشيخ حسن الجوالقي بـ ٧٠٢/ ١٣٠٣. لا يبدو الدعم الرسمي بشكل مستمر، ففي ٧٦١/ ١٣٥٩، منع السلطان المملوكي القلندريين من حلق لحاهم ولبس الأشياء الغريبة (كاللباس الفارسي)، بمعنىٰ عودتهم إلىٰ السنة. انظر:
A. KARAMUSTAFA, Friends, 53-54, T. E. HOMERIN, Saving, 75, n 60 .
وحول زوايا القلندرية في القاهرة؛ انظر: J. -C. GARCIN, Sooufis, 23

(٢) انظر: H. LAOUST, Essai, 126-27

الأحوال»[1]. كما أنّ محاولة ربط هذه الحركة بصحابي يدعىٰ قلندر هي محاولة بائسة وعارية عن الصحة تمامًا؛ لأنّها مجرد حركة ولاءٍ فارسية الأصل اتخذت سبيلًا خاطئًا. يكرر ابن تيمية في النص المقتبس في الأعلىٰ بأن السهروردي قد تفانىٰ محاولا مقارنة القلندريين برجال الملامتية.

في الحقيقة ومن وجهة نظر شيخ الإسلام الدمشقي، ليس فقط القلندريون من يميزون أنفسهم «بممارساتهم البغيضة»، لذلك؛ فإنه يوضح بأن عتابه وتوبيخه ليس مقتصرًا علىٰ هذه الحركة فقط، وإنّما يتعداها ليشمل من أبناء عصره كل من اشتهر ببدعة أو ضلال أو انحراف أو جعل الدين موضع تساؤل؛ مهما كانت منزلتهم الاجتماعية: سواء كان متدينًا أو فقيهًا أو عالم عقيدة أو فيلسوفًا، أو سواء أكان أميرًا أو واحدًا من العوام. وهنا نجد أنّ الأكثر إثارة للاهتمام، من وجهة نظر سياسية اجتماعية، هو هذا التعداد الذي يقود ابن تيمية إلىٰ تقديم العناصر المهمة في المجتمع المملوكي، حيث يلاحظ المرء بادئ ذي بدء الفصل الصريح بين الطبقة الدينية والطبقة العلمانية مع أخذ كلا المصطلحين هنا بمفهومهما الواسع. علاوة علىٰ ذلك، إن كان هناك من سبب جيد لاعتقاد أنّه يوصف المجموعات المختلفة بطريقة هرمية ابتداءً من الأعلىٰ، فيجب أن نلاحظ الأولوية التي يوليها للمتدينين وعلماء الفقه الإسلامي، وبدرجة أقل علماء الكلام[2].

---

(١) إن الاقتباسات الموجودة في المقدمة مشتقة من النصوص المترجمة في الجزء الرئيسي من هذا القسم ويمكن العودة لها بسهولة.

(٢) يمكن من الآن فصاعدًا عكس ما يقدمه "H. LAOUST "Essai. 41 في ترتيب العناصر=

من غير المفاجئ أن يصرّ بعد ذلك على العقيدة الضرورية في تعاليم وأخلاقيات الشيوخ وبقية رجال الدين، أو أن يستنكر إيلاءهم أهمية تفوق أهمية الله ورسوله (كما يفعل المنافقين أو الكفار).

عندما سأل هولاكو الشيخ الفيلسوف المشهور نصر الدين الطوسي (ت ٦٧٢/ ١٢٧٤) عن مجموعة من القلندريين، دعاه الشيخ لذبحهم[1]. أمّا من وجهة نظر ابن تيمية، فإنه يمتنع عن المضي قدما في انتقاد القلندريين، ويقوم عوضا عن ذلك بالبحث عن الظروف أو الأعذار المخففة لهم مع أنه كان متشددًا معهم، فنجد أنه فجأة يغير الموضوع متسائلًا ما سبب الاستطراد في الأشكال الروحانية - كالشرك والتساهل أو التعصب - التي ينكرها، فيجد أن المتهم الرئيسي هو الجهل والافتقار إلى العلم الشرعي بالإضافة إلى ما يسميه «إضعاف تأثير رسالة النبوة في معظم الدول»، وعلاوة على ذلك يضع اللوم أيضًا على رجال الدين؛ لأنهم لم يتحملوا مسؤولياتهم في تعليم الناس وتوجيههم! فعندما يفشل العلماء في الإجابة على أسئلة الناس، لن يكون غريبًا تضاعف أعداد المشعوذين.

إن هذه الملاحظات بالغة الأهمية من الناحية الشرعية لأنها قد تغير رأي البعض؛ فمن غير الوارد اتهام رجل جاهل بالكفر. وعلى خلاف ذلك، هناك من يلجأ إلى التكفير غير المشروط وإلى الإدانة التلقائية للناس. إلّا أنّ علماء

---

=المكونة لطبقة العلماء: علماء العقيدة، الفقهاء، المتصوفة.

(١) انظر: R. AMITAI-PREISS. Sufis. 29 A. KARAMUSTAFA. Friends, 53
لمعرفة رأي ابن تيمية في الشيخ نصر الدين الطوسي؛ انظر: Y. MICHOT. Vizir

العقيدة يصرون على تقديم رحمة الله وأولوية الإيمان والحذر وأخذ الأصول الشرعية فيما يتعلق بالتحريم وفهم الظروف، بالإضافة إلى الشرط الواجب بأن يكون المتهم قد نشأ نشأةً إسلامية.

«لقد غفر الله لهذه الأمة الخطأ والنسيان». وبذلك فإن وضع الإنسان كمؤمن ليس عرضة للتقييم من أي شخص آخر، وعليه، لن يكون هناك تصريح بالكفر ضد أي شخص، حتى تنطبق عليه شروط التكفير، وحتى لا يبقى أي مجال لنفي ذلك الكفر. فيما يخص البلاد والأزمان التي يضعف فيها تأثير الدين، فيجزّئ المرء ما لديه من قليل إيمان، كما أن الله يغفر للعبد ما لم تقم عليه الحجة به، ولكنه لا يغفر لمن قامت عليه الحجة.

سيكون الانفتاح والتسامح والحصافة والوسطية في هذه النصوص مفاجئا فقط للمستشرقين الجدد وبعض المتأسلمين بالإضافة للإعلام الجاهل؛ فهؤلاء جميعًا ينظرون لابن تيمية على أنه أصوليّ متطرف كما يصورونه في رسومهم الكاريكاتيرية. وبكل الأحوال من لا يعجبه ما يقرأه في الفصل (٢٨) من كتابه المثير للإعجاب (مجموع الفتاوى) والذي يتحدث فيه عن الجهاد، فلن تعجبه هذه النصوص التي تمضي في سياق متصل بالحديث عن التأملات، البراغماتية والتسامح والإنسانية، حيث يقدم نفسه من خلال بعض المفاهيم كالهجرة والامتناع عن المعاصي ودار الإسلام[1].

---

(١) انظر المقدمة ونصوص ابن تيمية المترجمة في: Y. MICHOT, Muslims

وهنا، نجد أنفسنا وجها لوجه مع عالم جليل دراسته أعقد مما يطرح عادة. ولنكون واضحين، فإن هذا ما نتوقعه بشكل خاص لشخص نذر نفسه لخدمة دينه؛ فهو صاحب علم واسع بمصادر وتاريخ وجوهر وروح هذا الدين، كما أنه ملمٌّ بالتفاصيل الدقيقة لرسالته وطريقته. لذلك؛ فإن الفتوىٰ التي يكفّر[1] بها القلندريين (النص A في الأسفل) ليست بسبب ممانعة شخصية منه، وإنما تستند إلىٰ أدلة دينية. نلاحظ أنه يذكر أخبارًا عن بعض صحابة النبي وبعض السلف، ومنها ما ينقله عن حذيفة بن اليمان الذي يؤكد أنه في وقت من الأوقات ستحفظ كلمةُ «لا إله إلا الله» الإنسانَ من الخلود في النار. ومن الأخبار اللافتة التي يرويها هنا: أن رجلا علىٰ فراش أوصىٰ أقرباءه بأن يحرقوا جثته ويرموا رمادها في البحر حتىٰ يهرب من الله تعالىٰ فلا يمسكه.

وفي فتواه حول القلندريين، يذكر ابن تيمية أنّها مجرد «فتوىٰ» ويؤكد أنه لا يسمح بمزيد من التفصيل. لحسن الحظ، يعود إليها في كتابات أخرىٰ، وسوف يتوضح ذلك عندما نتطرق لترجمات النصوص B وC التي تحوي توضيحات حول هذا الموضوع[2].

---

(١) حول التكفير: ماضيه، وشروطه؛ انظر المقدمات للغزالي في: الفيصل
S. A. JACKSON, Boundaries & F. GRIFFEL, Rechtglanbigkeit, Apostasie.

(٢) للحكم من خلال الأقراص المدمجة (CD-ROMs) علىٰ أعمال ابن تيمية (المجموع، المغلفات)؛ يظهر أن النص A هو الوحيد الذي يتحدث به عن القلندريين، والاستثناء الوحيد في الوصية الكبرىٰ. هناك يجد المرء كلمة قرفندي، وهو المعنىٰ الذي لم أنجح في اكتشافه، فقد يكون خطأ مطبعيا لكلمة قلندري؛ حيث إن الكلمتين متشابهتان في العربية.

إن النص B مأخوذ من كتاب بغية المرتاد، والهدف الذي يرمي إليه الشارح هو الرد علىٰ الفلاسفة والقرامطة والفرق الباطنية. وهنا، عندما يذكر ابن تيمية قصة الرجل الذي يريد الهروب من الله، فإنه يفصّل فيها أكثر مما يذكره في فتوىٰ القلندريين؛ وهذا الحديث في الصحيحين وراويه أبو هريرة، وما نتعلمه من قصة هذا الرجل أنه ليس نموذجًا فاضلًا، كما أنّ حرقَ جثته ونثرَ رمادها في البحر لن يمكّنه من الإفلات من الله تعالىٰ. فعندما يأمر الله ﷻ الأرض والبحر أن يجمعوا رماد جسده ويعيده إلىٰ الحياة يسأله عن السبب الذي دفعه لذلك، يجب الرجل بأنّه الخوف منه ﷻ، فيسامحه ﷻ.

إحدىٰ روايتي حديث ذلك الرجل مكتوبة بجانب حديث آخر للرسول يذكر فيه عقاب المرأة التي حبست قطتها حتىٰ ماتت. يوضح كلا الحديثين الحديث الآخر، فعندما نفكر في الآخرة، من المناسب ألا نقنّط الناس من عفو الله، وبنفس الوقت يجب ألا يطمعوا بأنّ نجاتهم أكيدة.

اندهش البعض؛ كيف يعفو الله عن رجل شك في قدرته تعالىٰ علىٰ بعثه من جديد ثم عاد واعترف بشكل متأخر بخوفه منه. يطرح العديد من الكتّاب بعض الشروح حول حديث هذا الرجل بغية تبرئته متقوّلين بأنه لم يشك أبدًا في قدرة الله الكلية. يذكر ابن تيمية بعضا من هذه الشروح ليحكم بعدم صحتها، وإلىٰ جانب ذلك، يشدد علىٰ التعقل الكبير قبل إطلاق أحكام التكفير علىٰ أي أحد.

وحول فتوىٰ القلندرية، فإنه يؤكد الصفح عن زلات المؤمن الحقيقي، صحيح العقيدة أو صحيح الممارسة؛ فيتحدث عن ضرورة إبراز الحجة

الشرعية قبل إدانة أي أحد، ويتساءل أين ومتىٰ تم إضعاف نور النبوة لأخذ ذلك بعين الاعتبار، ومن ثم يقتبس الحديث الذي يرويه حذيفة بن اليمان وفيه أنه في وقت معين تُنجي شهادةُ أن لا إله إلا الله الإنسانَ من الخلود في نار جهنم.

يقول ابن تيمية معتمدًا علىٰ أحاديث من صحيح مسلم ومستذكرًا الظروف المرافقة لنزول أواخر سورة البقرة، أنه عندما نزلت: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة:٢٨٤) وتلاها الرسول علىٰ صحابته، وجد الصحابة صعوبة في فهمها، فأكمل لهم الرسول الآية التي تليها موضحا أنّ مناشدات العفو والغفران في تلك الآيات موجهة لله تعالىٰ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ ﴾ (البقرة:٢٨٦)، فيجيبهم الله تعالىٰ بأنه لن يؤاخذهم. والملاحظ هنا في كل النص B، كما في فتوىٰ القلندرية (النص A)، التركيز علىٰ رحمته تعالىٰ.

النص الثالث (C) المترجم في الأسفل مأخوذ من فتوىٰ لابن تيمية حول حرمة الامتناع عن اتباع سلطان النبوة، وتتضمن إلىٰ جانب حديث حذيفة وحديث الرجل الذي يموت، حديثًا ثالثًا حول التسامح وعفو الله تعالىٰ.

وكما هو الحال في فتوىٰ القلندرية، يبدأ ابن تيمية بإظهار نفسه شديدًا معتبرًا أن ليس هناك من هو أكثر كفرًا ممن رفض الخضوع لله وشرعه. كما يعتبر أن الانتماء لأحد الشرائع المنسوخة قبل الإسلام أفضل من هذا الكفر. يعتبر أن البشر لا يمكن أن ينتقلوا من الطاعة إلىٰ مرحلة يصبحون فيها مخلوقات عظيمة غير معتمدة علىٰ إله، لذلك فإن ما يفعله العديد من الناس

هو مجرد اتخاذ الشيطان إلهًا من دون الله، أو أنهم يخترعون لأنفسهم دينًا واضعين لأنفسهم قائمة جديدة بالأوامر والنواهي متذرّعين بذرائع واهية كالتفوق الروحاني أو الانتماء إلىٰ النخبة الاجتماعية أو العقلية أو الأخلاقية أو... إلخ.

وعلىٰ كل حال، إنّ ميلًا كهذا ليس جديدًا بالنسبة لشيخ الإسلام، حيث يستذكر علىٰ سبيل المثال ما حصل في عهد عمر عندما عمدَ قدامة بن مظعون إلىٰ تبرير شربه للخمر من خلال تقواه وإيمانه وأعماله الصالحة متعللًا بالآية (٩٣) من سورة المائدة! يوضح ابن تيمية أن هذا الادعاء باطل؛ لأنه يخدم قضية شخصية، وأنّ الآية نزلت فيمن شرب خمرًا من المؤمنين قبل أن يتم تحريمه قطعيًا، ولا تشمل من يشربه بعد هذا التحريم. إنّ فعل ما لم يتم تحريمه لا يعتبر ذنبًا، ولكن في المقابل، لا يمكن المداومة علىٰ فعل قد نزل تحريمه، سواء كان شربًا للخمر أو زنىٰ أو صلاةً باتجاه بيت المقدس.

من وجهة نظر ابن تيمية، إنّ أي رفض عام لحكم شرعي يبيحه أو يحرمه الإسلام يستوجب الإعدام. وأكثر من ذلك، فإنه يكّفر بعض الصوفيين من أبناء عصره الذين أجازوا لأنفسهم لاعتبارات روحانيّة فعل الفواحش مع النساء أو الصغار، بل اعتبرهم أعداء الدين.

وعلىٰ الرغم من إطلاقه هذا الحكم، نجده يدعو مرة أخرىٰ إلىٰ الحيطة والتسامح؛ فكما فعل في النصين A وB، نراه يمنع تكفير الجاهل أو من لم تبلغه الرسالة. ويذكر من ضمن أمثلة متعددة أن العلماء اختلفوا حول مسألة ضرورة الالتزام بأثر السلف فيما يتعلق بالأوامر الشرعية التي يهملها الإنسان

لحين ثمّ يكتشف لاحقا أنها مفروضة. ينقسم العلماء إلىٰ فريقين متساويين في مسألة التزام الإنسان بأمر لم ينتبه له مع أنه قد يكون نظريًا خاضعًا له؛ نجد أن الشيخ يختار الوقوف إلىٰ جانب أولئك المتفهمين والمراعين لطبيعة البشر الضعيفة: «إنّ الخطاب الديني غير ملزم لمن لم يسمع به».

قد يحاجُّ البعض في أن الجهل بالشرع ليس عذرًا، ولكن هذا الجهل بموضوع الدين بالنسبة لابن تيمية يعني الكثير من الناس ولربما ليس ذنبهم، لذلك لا يمكن معاقبتهم عليه مهما كان الأثر الوارد. إنّ جهلهم اللاإرادي بواجبات الدين ليس خطيئة ليحاسبوا عليها، وعليه ينبغي التعقل قبل إطلاق الأحكام بتخطئتهم، أو أهم من ذلك: قبل تكفيرهم.

وكما يفعل في النصين A وB، يقوم الشيخ بذكر حال العديد من المسلمين الذين ينشؤون في أماكن وأزمنة قد ضعف فيها التمسك بنبراس النبوة، وقلت احتمالية تعلمهم للعلم الشرعي الكفائي، ولذلك لا يمكن تكفيرهم. في الحالة الخاصة عند الحديث مثلا عن شخص قد نشأ في الغابات بعيدا عن الناس بعيدًا عن العلم والدين، وأسلم مؤخرا وبدأ يمارس واحدًا أو أكثر من طقوس الدين. يضيف ابن تيمية بأنّ هناك إجماعا بين الأئمة حول منع التكفير قبل التعليم الديني، يصعب تقدير من يقصده شيخ الإسلام في ذلك، ولكن عدا القلندريين؛ يُستبعد أن يكون تلميحًا عن المغول أو المماليك.

تنطبق الخصائص التي وضحها ابن تيمية علىٰ التتار تمامًا، فعلىٰ سبيل المثال نجد بأن الخان غازان محمود (٦٧٠/ ١٢٧١ - ٧٠٣/ ١٣٠٤)، وهو

الحاكم لمغول إيران بأمر جنكيز خان، تحول من البوذية إلىٰ الإسلام مع كامل جيشه قبل التتويج بقليل[1] (عام ٦٩٤/ ١٢٩٥). وبعد خمس سنوات وفي خضم هجومه علىٰ سوريا، استطاع ابن تيمية مقابلته برفقة جيشه، فلاحظ الإغفال الكبير عن أوامر الدين، مما دعاه إلىٰ القول: «لقد قابلنا الجيش المغولي، فلم نشاهد الجنود يصلون الصلوات، ولم نلحظ وجود مؤذن وإمام معهم»[2]. أما بالنسبة للمماليك الحاكمين لسلطنة مصر التي ذاع فيها صيت ابن تيمية، فما نعرفه عنهم بأنهم كانوا عبيدًا آسيويين من أصل غير مسلم، تم جلبهم لمصر في شبابهم، أسلموا عندما مارسوا الإمارة، وأنهم قلما كانوا قدوة في ممارسة الدين[3].

سواء قصد شيخ الإسلام المغول والمماليك أو لا؛ فإنّ أول ما أستشفه من هذا النص هو الأسباب الدينية الخاصة وراء ولائه لسلطنة القاهرة[4]. وأبعد من ذلك، فإن هذا النص يعارض التصلب الظاهر في بعض النصوص التي تنفي إسلام تتار إيران بغية تكفيرهم ومن ثمّ استدعاء المسلمين لقتالهم[5]. كما يوضح النص أيضا الطابع الحدسي لفتوىٰ ابن تيمية

---

(١) حول تحول غازان إلىٰ الإسلام وهجماته علىٰ سوريا؛ انظر:

Y. MICHOT, Roi croise. Texts XI-XIII. C. MELVILLE, Padshah. R. AMITAI-PREISS, Ghazan.

(2) IBN TAYMIYYA. MF, trans. MICHOT. Texts XI, 31.

(٣) حول المماليك؛ انظر:

A. CLOT, Egypt, D AYALON, Phenomena, the references given in Y. MICHOT, Martin, 55, n.1.

(٤) حول الولاء؛ انظر: Y. MICHOT, Muslims. 53-56.

(٥) انظر: Y. MICHOT. Texts XI-XIII

ضد المغول التي كتبها لتحفيز المجتمع على التحرك ضد غازٍ أجنبي وعدم شرعية استخدام هذه الفتاوى اليوم لتحفيز أي نوع من الثورات الإسلامية[1].

يشير ابن تيمية إلى حديث حذيفة حتى يدلل ويؤصل على التسامح واللين الذي يدعو له، فلا يكتفي بذكر الحديث وإنّما ينقل أربع صيغ مختلفة لحديث الرجل على فراش الموت والذي كان يسرق الأكفان في حياته. وبشكل معاكس لما يفعله في النص B، فإنه يتناول المشكلة هنا ليوضح: لماذا يرفض شروح الحديث التي تبرّئ سارق الأكفان هذا وهو الذي يشك بمقدرة الله على بعثه بعد أن يحرقوا جثته؛ فحتى يبرر لنفسه هروبه من الله تعالى، يقول «لو قدر الله علي، فإنه سيعذبني عذابًا لم يعذبه أحدًا من العالمين». إنّ كلمة (قدر علي) تعني فقط ما تعنيه وليست تعني (ضيّق) أو (قضى) أو (قدّر)، كما يدّعي بعض من يستند إلى تلاعب مريب بالكلمات ومعاني قرآنية متخيَّلة.

وبقراءة الصفحات الأخيرة من النص C، يلحظ المرء كم يصبح شيخ الإسلام علميًا وتقنيًا عندما يدحض التفاسير التي يعتبرها خاطئة من وجهة نظره. ولكيلا نبتعد عمّا نحن بصدده، نذكر هنا الخاتمة فقط: «إن كان هناك رجل لا يعرف صفات الله تعالى وأنه سبحانه هو القدير، فلربما العديد من المؤمنين لا يعرفون أمورًا مشابهة، لذا لن يكونوا كافرين».

---

(١) انظر: Y. MICHOT, Muslims, 48-54, 123-31.

إن أفعال الشيخ المختلفة في هذا الباب والمبادرات التي طرحها حول طريقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١]، ساهمت بكل تأكيد في تكوين صورة الشيخ العالِم. وعلىٰ كل حال، فإن الانطلاق من هنا لادّعاء مسؤوليته لتبرير ما لا يمكن تبريره، أو بجعله في بعض الأحيان تكفيريًا عنيفًا أو نموذجا للتعصب الشديد، يعتبر خطوة مستحيلة عندما يأخذ المرء في عين الاعتبار طيفًا أوسع من كتاباته. ومثال علىٰ ذلك فتوىٰ القلندرية والنص B وC المترجمين في الأسفل. وفيما يخص موضوع تكفير المؤمنين العوام كما في موضوع السياسات الداخلية والخارجية، فهناك تناسق في الأفكار يصور شيخ الإسلام الدمشقي عبر وسائل الإعلام مثل نبي الإسلام بعيدًا عن أي تطرف.

لماذا يستغرب البعض عندما يتم تصنيف الشيخ في بعض الأحيان قريبًا جدا من الغزالي؟ يشرح الغزالي في كتابه فيصل التفريق[٢] ويؤكد أنّ الإيمان كما الكفر من اختصاص الله ورسوله ولا يخضعان لحكم الناس أو آرائهم وميولهم.

---

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ انظر: .M. COOK, Commanding حول الأفعال المختلفة لابن تيمية في هذا؛ انظر: =

H. LAOUST, Essai, 126-27, Y. MICHOT, Haschich, 16-17, C. BORI, Vita, 131.

(٢) (الكفر) حكم شرعي مثل العبودية والحرية يتضمن إباحة سفك دم من يقع به، مع إطلاق حكم بأنه سوف يخلد في النار. وبما أنه حكم شرعي، فإنه إما أن يستقىٰ من النص الصريح أو من القياس الصحيح لنص صريح.

(AL-GHAZALI, Faysal, 128, trans. JACKSON, Boundaries, 92, see also Faysal, 146, trans. JACKSON, Boundaries, 115).

## A. فتوى حول القلندريين[١].

وسئل رحمه الله عن قول العلماء في هؤلاء القلندريين الذين حلقوا رؤوسهم ولحاهم بشكل كامل، ما هم؟ ولأي دين يجب تصنفيهم؟ ماذا تقول باعتقادهم: أن رسول الله ﷺ أطعم شيخهم القلندري العنب وكلمه بلسان أعجمي؟

فأجاب الشيخ بأن القلندريين[٢] المحلّقين لحاهم إنما هم من أهل الضلالة والجهالة؛ فمعظمهم لا يؤمن بالله ولا رسوله. لا يقولون بوجوب الصلاة أو الصوم، لا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله، ولا يسلكون طريق الدين القويم. حتىٰ إنّ الكثير منهم أكثر كفرا من اليهود والنصارىٰ أنفسهم، فهم ليسوا من أهل الملة ولا من أهل الذمة. قد يكون منهم المسلمون ولكنهم مبتدعون ضالون أو فسّاق فجار.

---

(١) انظر فتوىٰ ابن تيمية حول القلندريين في: مجموع الفتاوىٰ، الباب الخامس والثلاثين، ص (١٦٣-١٦٥)، (١.٦).

تشكل فتوىٰ ابن تيمية قسما من الأقسام المختارة، تحت عنوان أهل الصوفا، وتتضمن العديد من الأسئلة والأجوبة المتعلقة بالأشكال المنحرفة من الصوفية. إن النص المترجم هنا مطابق لـ(MRM1, I, 33, 11. 15-17 (question), and i. 64-1. 11-66, 1. 10 (response, M1 وإن صيغة فتوىٰ أهل الصوفا المنقحة في (MF, xi. 37-70) لا تتضمن فتوىٰ القلندرية. كما أن صيغة فتوىٰ القلندرية المنشورة في (MRM2) هي إعادة إنتاج للصيغة المذكورة في (MRM1). النص A المترجم هنا يتوافق مع ((MRM2, i. 34, 11. 12-14 (question))، و((i. 61, 1. 13-63, 1. 2 (response, M2) إن الترتيب F, M1, M2 ينم عن فوائد نثرية متنوعة مشار إليها في الملاحظات.

(٢) القلندريين والملامتين (فصل القول في بعض فرق أهل الصوفية).

كاذبٌ مفترٍ كل من يدعي بأنّ القلندريين عاصروا الرسول ﷺ. وإنما القول الأصدق في نشأة هذه الفئة هو أنّهم عبارة عن مجموعة من النسّاك في بلاد فارس، بحثوا عما يريح قلوبهم بعد فراغهم من أداء فروضهم بعيدًا عن الأمور المحرمة؛ هذا على الأقل ما يذهب إليه الشيخ أبو حفص السهروردي(١) في كتابه العوارف. وبعد ذلك توقفوا عن أداء واجباتهم الدينية وبدأوا بارتكاب المحرمات.

ومضت أمورهم على ذلك بعد ظهور رجال الملامتية الذين اعتادوا على إخفاء أعمالهم الصالحة والخروج بمظهر لا يوحي للآخرين بأنّهم صالحون(٢)، حيث كانوا يلبسون ثياب الأغنياء أو يضعون العمامة. وعلى كل حال، إنّ ذلك لم يبتعد بهم كثيرا عن الدين بحكم أن من يقوم بمثل هذه الأعمال سوف يحاسب على نيته. ثم بعد ذلك اتبعوا بعض من يقوم بالأمور المكروهة شرعًا، وتفاقم الأمر إلى أن أصبح بعضهم يقترفون الفواحش

---

(١) عالم وفقيه صوفي (ت ٦٣٢/ ١٢٣٤)؛ انظر:

S. VAN DEN BERGH. EI[2], art. Al-Sahrawadi. Umar .

(٢) يشعر رجال الملامتية بالاستياء عندما يُعَامَلون باحترام أو عندما يسعى الآخرون لرفقتهم. يقولون: «ماذا يفعل العبد بهذا كله؟».

(AL-SULAMI, Risala, trans. DELADRIERE, Lucidite`, 90).

إن رجال الملامتية تبعا للسُّلامي، وخلافًا لما يخبرنا به ابن تيمية، يوصون بعدم تمييز الشخص بعادة أو لباس مختلف عن الآخرين، وأن يتصرف مع الآخرين كما يتصرف معهم، وأن يجاهد لكيلا يشعر بالخجل الشخصي (ibid-85). تفصل ثلاثةُ قرون بين الكاتبَين، لذا وخلال كل هذا الوقت لا بدّ أن يتطور كل من روحانية وسلوك رجال الملامتية.

والمنكرات مع ترك الفروض والواجبات مدّعين أنهم يسيرون علىٰ خطىٰ رجال الملامتية؛ وهم صادقون بذلك طالما أنهم يعتبرون أنهم يستحقون اللّوم والذم وعقاب الله في الدنيا والآخرة. وهنا يجب أن يُعاقبوا ويتم إيقافهم عن تمييز أنفسهم من خلال هذه الأعمال الذميمة، تماما كما يتم نهي أصحاب الفجور والبدع الذين يبتدعون علانية أمام الناس.

إنّ هذا لا ينطبق فقط علىٰ هؤلاء القوم بشكل خاص، وإنما يتعداهم ليشمل كل متنسّك، كل متفقّه، كل متعبّد، كل متزهّد، كل متكلم، كل متفلسف[1]، وكل من يشابههم من الملوك والأغنياء، أمناء السر والعلماء، أهل الديوان والعامة[2] وكل من يبتعد عن طريق الهدي النبويّ أو يبتعد عن الدين

---

(١) إن إضافة (المتفلسفين) من قبل ابن تيمية إلىٰ جانب الفقهاء وتضمينها في هذه القائمة الممثِّلة لمكونات مجتمعه في ذاك الوقت يُظهِر بشكل جليّ انتشار الفلسفة في أيام المماليك وذلك بسبب العلاقات التي ساهمت في بنائها. حول انتشار الفلسفة؛ انظر:
Y. MICHOT, Vanite's, 602, Mamluk 1, 164-68

(٢) من الملوك حتىٰ العوام، يعني من أمراء المماليك وحتىٰ الجماهير الحضرية (مع غياب الفلاحين)؛ نجد أن ابن تيمية يميز سبع طبقات اجتماعية، فحديثه عن الملوك بصيغة الجمع يوحي بأن السلطان القاهري غير كامل الصلاحيات ويشترك بالحكم مع غيره (حتىٰ إنه يشير لنفس المعنىٰ في مواضع أخرىٰ)؛ فإن لم يكن الحكم مقسمًا بين الأمراء، يكون جماعيًا بواسطة الجيش الأقلوي التابع للسلطان؛ انظر:
Y. MICHOT, Rashid al-Din, 125, 137, H LAOUST, Essai, 50-51.
أما الأغنياء فيحتمل أنه يقصد بهم التجار. وحول الأهمية الاجتماعية لعلماء العصر المملوكي؛ انظر:
D. BEHRENS-ABOUSEIF, Faith Allah, Image.
إن الشرع من وجهة نظر ابن تيمية يحكم الملوك كما يحكم باقي مكونات المجتمع، دينية=

القويم الذي أرسل اللهُ به رسلَه الكرام، أو لا يقرّ بكل ما أخبرنا الله به علىٰ لسان نبيّه، أو لا يحرّم ما حرّم الله ورسوله، أو يدين بدين مخالف للدين الذي أرسل الله به رسوله (إن ظاهريا أو باطنيا).

علىٰ سبيل المثال، الإنسان الذي يؤمن بأن شيخه مطّلع علىٰ رزقه أو يستطيع أن ينجيه أو يهديه أو يعينه، أو من يعبد شيخه فيدعوه في تضرعه ويسجد له، أو من يوليه مقامًا أعلىٰ من مقام النبي عليه الصلاة والسلام، سواء علىٰ الإطلاق أو بشكل مقيّد معتقدًا بأن هذا الفعل سوف يقربه من الله تعالىٰ(١)،

=كانت أو مدنية، ولذا فإنه من غير المقبول السماح لأي أحد كائنا ما كان بالابتداع أو الفساد علنا. بين ذلك وبين استدعاء تمرد مسلح ضد السلطات الجائرة؛ هناك خطوة لا يسمح شيخ الإسلام لنفسه بتخطيها، مهما قال وادّعىٰ الإسلاميون والمستشرقون الجدد. هنالك العديد من العوامل التي تؤخذ بعين الاعتبار عند الحديث عن ابن تيمية وهو الحنبلي البراغماتي الذي يفضّل في النهاية الطاعة والصبر علىٰ أي تمرد أو عصيان. انظر:
Y. MICHOT, Muslims, 49-57.
ويلمح هنا إلىٰ المجتمع المملوكي بأنه تمت السيطرة عليه من ثلاث جوانب: من جانب شيوخ الصوفية والفقهاء، ومن جانب العسكر، ومن جانب الأثرياء. انظر:
H. LAOUST, Essai, 39-43, 317.
وبالنسبة لأهل الإدارة والحكم الذين قد يظن المرء أنهم مثل الحكومة المدنية اليوم، فيمكن ملاحظة أنّ ابن تيمية لا يصنفهم عاليا بالسلم الاجتماعي. يثار هنا مرة أخرىٰ سؤال حول طبيعة الحكومة المملوكية، إن لم يكن سؤالا حول وجودها ابتداء. إن نصا كهذا يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار عفويًا عند أي تحليل للأفكار السياسية لابن تيمية، أو تحليل لعقيدة الحكومة الإسلامية المعاصرة التي تتخذه مرجعًا. من الواضح أنّه ليس لديه الكثير ليقوله ضد التنظيم المجتمعي الذي يلمّح له. انظر:
Y. MICHOT, Muslims, 57-61. LAOUST, Essai, 317.

(١) قد يكون الولاء الشديد الذي يتمثله بعض شيوخ الصوفية هو مناط الحديث في عصر=

أو من يعتقد بأنّه وشيخَه معذورون في عدم اتّباع النبي عليه الصلاة والسلام.

إنّ كل هؤلاء القوم كافرون إن أظهروا ذلك، ومنافقون إن لم يظهروه.

إنّ تزايد أعداد هذه الأنواع المختلفة من الناس في هذا الزمان إنّما يكون علىٰ حساب العدد القليل من الأشخاص الدّاعين إلىٰ العلم والإيمان، وهو ما يؤدي إلىٰ تخفيف أثر رسالة النبوة في معظم الأقطار[1]. وفيما يتعلق بآثار الرسالة النبوية وميراث النبوة، فإن معظم هؤلاء لا يبتعدون عنها؛ لأنها لم تصلهم ابتداءً. يجازىٰ المرء بما يحمله من قليل إيمان في الأزمان والبلدان

---

=ابن تيمية، لذلك نجد انتقاده لتضخم مكانة الوسطاء بين العباد وربهم؛ انظر أيضا النص المترجم في: Y. MICHOT, Intermediaries, Sidis, Sang.

(١) لا يتمسك ابن تيمية دائمًا بنظرة متشائمة لوضع الإسلام في زمانه، علىٰ الأقل من وجهة نظر جيوسياسية. ولكن المؤكد أنه كان شديدًا فيما يتعلق بالسلطات: «حصلت الفرقة في المجتمع بسبب علمائه، شيوخه، أمرائه وأعيانه، وهو ما أدىٰ إلىٰ سيطرة الأعداء عليه. وحصل ذلك بسبب عدم طاعة الله ورسوله» (مقتبس من ص (٢٨) من مجموع الفتاوىٰ). إن انتصارات المماليك علىٰ المغول في بداية القرن (٨/ ١٤)، قادته إلىٰ الحكم بأن الإسلام كان يعاني في ذلك الوقت، ولكن لحسن الحظ وجد هؤلاء الأبطال الذين كانت قوتهم آخذة في الازدياد وخيرهم في تنَامٍ. Qubrus, trans, MICHOT. Roi croise. 179
انظر أيضا: Y. MICHOT, Texts XIII. 26-28

كتب الشيخ إلىٰ السلطان الناصر محمد بن قلاوون: «لقد أنعم الله علىٰ السلطان وعلىٰ المؤمنين في دولته نعمًا لم تُعهد في القرون الخالية، وجُدِّد الإسلام في أيامه تجديدًا بانت فضيلته علىٰ الدول الماضية». (etract trans. In Y MICHOT, Rashad al-Din, 133-34)
وذكر نفس الشيء في رسالته إلىٰ الملك الصليبي السابق جوهان حيلبيت: «إن هذا الدين يعيش الازدهار والتجديد». (Qubrus, trans, MICHOT, Roi croise, 180).

التي يتم فيها تخفيف رسالة النبوة، ومن ثم يغفر الله لمن لم تبلغه الحجة. في حين لا يغفر لمن بلغته تلك الحجة. ولذا نقرأ في الحديث المشهور: «يأتي علىٰ الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا زكاة ولا صوما ولا حجا إلا الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة، يقول: أدركنا آباءنا وهم يقولون لا إله إلا الله». سئل راوي الحديث حذيفة بن اليمان[1]: «ما تغني عنهم لا إله إلا الله؟»، فقال: «تنجيهم من النار»[2].

إن المبدأ الأساسي[3] الواجب اتباعه هنا مرتبط بشروط تكفير مرتكب ما يوجب التكفير أو المتفوه بكلمات الكفر، وهي الشروط الواردة في كل من القرآن والسنة والإجماع. قد يذهب البعض إلىٰ أنّها كلمات كفر؛ لأن الشخص يقولها أو مستندا إلىٰ دليل شرعيّ. ولكن في الواقع إن الإيمان هو الحكم المثبت من قبل الله ورسوله وليس ما يحكم عليه الناس تبعاً لميولهم وأهوائهم. لذلك يتوجب عدم تكفير من يتلفظ بمثل هذه الألفاظ إلىٰ أن تنطبق عليه الشروط الصحيحة وإلىٰ أن تنتفي موانع هذا التكفير.

قد يقول شخص ما علىٰ سبيل المثال بأن الخمر أو الربا حلال بسبب حداثة عهده بالإسلام، أو كونه نشأ في أماكن بعيدة عن المدن المسلمة، أو لأنه سمع بعض الأقوال المخالفة لرأيه ولم يصدق أنها آتية من القرآن أو من

---

(١) حذيفة بن اليمان العبسي (متوفى ٣٦/ ٦٥٦)، صحابي شهد أحدا، وكان له دور في فتح إيران وأذربيجان. انظر: IBN AL-ATHIR, Usd, I, 390-92.

(٢) الحديث مذكور فقط في سنن ابن ماجة:
IBNMAJA, Sunan, Fitan, ii, 1344-45, no. 4049.

(٣) شروط التكفير ومرتكب المكفرات.

أحاديث المصطفىٰ ﷺ. من المؤكد: أن من السلف من خالف بعض الأمور إلىٰ أن اطّلعوا بأم أعينهم علىٰ أقوال الرسول ﷺ وهي مخالفة ما هم عليه. وبشكل مماثل، لقد شك بعض الصحابة ببعض الأمور مثل رؤية الله تعالىٰ[1] وغيرها، إلىٰ اللحظة التي سألوا فيها رسول الله ﷺ حول هذه الأمور.

وهناك أمثلة أخرىٰ أيضًا، كالمرء الذي قال لعائلته: «احرقوني بعد موتي وانثروني في البحر عساني أهرب من عقاب الله»، وغير ذلك من الأمور المشابهة.

لن يتم تكفير هؤلاء الناس حتىٰ يتم وضع الحجة عليهم، كما بين المولىٰ ﷻ: ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء:١٦٥).

لقد فصلنا في القواعد الواجب احترامها في مكان آخر حيث كان من الممكن الاستفاضة، ولكن الفتوىٰ لا تسمح بمزيد من التفصيل، والله أعلم.

## B. حديثان مذهلان.

نقرأ في الصحيحين من حديث أبي هريرة، واللفظ لمسلم عن معمر[2]

---

(١) حول شكوك بعض الصحابة في رؤية الله تعالىٰ؛ انظر:

D. DIMARET, Doctrine, 340-44.

لقد أكد لهم النبي ﷺ هذه الرؤية بقوله: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر».

AL-BUKHARI, Sahih, Mawaqit, I, 115, MUSLIM, Sahih, Iman, I, 112.

(٢) أبو عروة معمر بن رشيد الأزدي (ت ١٥٣/ ٧٧٠)؛ انظر: الشذرات لابن العماد، الباب الأول، (٢٣٥).

حيث قال: قال الزهري[1]: ألا أخبرك بحديثين مذهلين؟ يقول الزهري: أخبرني حميد بن عبد الرحمن[2] عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «كان رجل يسرف علىٰ نفسه في المعاصي، فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مت، فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم اذرُوني في الريح في البحر، فوالله لئن قدَر عليَّ ربي ليعذبنّي عذابًا ما عذَّب به أحدًا».

قال: ففعلوا ذلك به، فقال الله للأرض: «أدِّي ما أخذتِ»، فإذا هو الرجل قائم، فقال له: «ما حملكَ علىٰ ما صنعتَ؟» فقال: «خشيتك يا رب - أو قال: مخافتك - فغفر له بذلك»[3].

قال الزهري وحدثني حميد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض حتىٰ ماتت هزلا»[4].

---

(١) أبو بكر محمد بن شهاب الزهري (ت ١٢٤/ ٧٤٢)، محدّث مهم؛ انظر:
M. LECKER, EI$^2$, art. 'al-zuhri, Ibn Shihab'.
انظر أيضا: الشذرات لابن العماد، الباب الأول (١٦٢-٦٣).

(٢) حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهري (ت ٩٥/ ١٧٤)، من التابعين؛ انظر: الشذرات لابن العماد، الباب الأول (١١١).

(٣) انظر: صحيح مسلم، كتاب التوبة، الباب الثامن (٩٧-٩٨)؛ صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، الباب الرابع (١٧٦).

(٤) انظر: صحيح مسلم، كتاب التوبة، الباب الثامن (٩٨)؛ صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، الباب الرابع (١٣٠).
حول هذا الحديث وحول القطط في الإسلام بشكل عام؛ انظر:
A. SHIMMEL, Katze, 11-12.
هنالك نصين لابن تيمية يفضّل فيهما القطط بشكل أقل؛ النص الأول عبارة عن فتوىٰ=

قال الزهري: «بهذين الحديثين، لا ينبغي للمرء أن يأمن كثيرًا ولا أن يقنط»[1].

=حول المشاكل المنزلية لشخص مسكين. أما النص الثاني فيتحدث عن القطط السوداء بشكل خاص.

سئل شيخ الإسلام رحمه الله عن شخص مسكين يعاني من ثلاثة أمور: زوجته والقطة والنمل؛ فزوجته كانت ترضع طفلًا ليس بطفلها، مما جعل بيت هذا المسكين وفراشه بائسين. أما القطة فكانت تصطاد وتأكل دجاجه. في حين أن النمل لم يتوقف عن المشي فوق الأكل. وبالتالي كان هناك ثلاثة أسئلة: هل يحق لهذا الرجل أن يمنع زوجته من إرضاع ذلك الطفل؟ ومن ثم هل يحق له أن يقتل تلك القطة؟ وأخيرا هل يحق له أن يضرم النار في عش النمل؟

أجاب الشيخ بأن علىٰ زوجته أن تأخذ إذن زوجها قبل أن ترضع أي طفل ليس بطفله. أما القطة، فعندما تأكل أكلَه، له أن يمنعها سواء بقتلها أو إبعادها إلىٰ مكان بعيد، حيث يجوز قتلها إن تعذر إبعادُ أذاها بغير قتلها. أما بالنسبة للنمل، فليس له أن يحرقهم وله أن يكفّ أذاهم بطريقة أخرىٰ، والله تعالىٰ أعلىٰ وأعلم.

يقول المصطفىٰ ﷺ: «إن الكلب الأسود هو شيطان بين الكلاب»، حيث يأخذ الجن عادة شكل [الكلب الأسود]. وهذا ينطبق أيضا علىٰ القطط، فاللون الأسود في الحقيقة يمتص القوىٰ الشيطانية أكثر من بقية الألوان، وبه تزداد الحرارة.

ومن الوسائل التي يُتقرب بها إلىٰ الجن هو ذبح الحيوانات، حيث يذبح بعض الناس الذبائح من أجل الجن. إن هذا من الإشراك بالله الذي حرمه الرسول ﷺ (مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية، الباب التاسع عشر، ٥٢)؛ وحول الروابط بين الحيوانات والشياطين في الإسلام؛ انظر: M. BENKHEIRA, Interdicts,183-87

(١) روىٰ ابن شهاب الزهري هذا الحديث [الرجل الذي أراد حرق جثته] ثم روىٰ حديث المرأة التي تدخل النار في القطة التي حبستها حتىٰ ماتت من الجوع، وبعدها علّق:=

نقرأ أيضا في أحاديث الصحاح عند مالك وغيره: عن أبي الزناد[1] عن الأعرج[2] عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «أوصىٰ رجل لم يعمل خيرًا في حياته أولاده قائلا: أنا إذا متّ، فاحرقوني وانثروا نصفي فوق الأرض ونصفي في البحر، فوالله لو قدر الله عليّ، ليعذبنني عذابا لم يعذبه أحدًا من العالمين».

وعندما مات الرجل، فعلوا كما أوصاهم أبوهم، فأمر الله الأرض لتجمع بقاياه التي عليها، وأمر البحر بذات الأمر، ومن ثمّ قال للرجل: «لم فعلتَ ذلك؟»، فأجاب: «مخافة منك يا إلهي، إنك أنت العليم»؛ فغفر الله تعالىٰ له[3].

=«لا ينبغي للمرء أن يأمن كثيرا أو أن يقنط». وهذا يعني أنه عندما روىٰ ابن شهاب الحديث الأول كان خائفا من أن يجعل سامع الحديث يثق بأعماله ويأمن كثيرًا بسبب ما يوحيه الحديث من رحمة الله وعظمة الأمل والرجاء، لذلك ألحقه بالحديث الثاني والذي يثير الخوف ويوحي بأن الخوف والرجاء متلازمان. كذلك نجد في معظم آيات القرآن من تلازم الخوف والرجاء. وعلاوة علىٰ ذلك، فقد قال العلماء بأنه من المفضل أن يتحدث الوعاظ عن الخوف والرجاء في خطبهم، مما يجعل الناس لا يأمنون كثيرًا ولا يقنطون كثيرًا. حتىٰ قال أحدهم: «وليكن جانب الخوف في كلامهم أكبر»؛ وذلك لأن الأرواح تحتاجه بشكل أكبر بسبب أنها تميل بطبعها إلىٰ طول الأمل، فالرجاء مما يجعلها تتراخىٰ وتأمن نفسها وتتجاهل الأعمال الصغيرة (شرح النووي، الباب السابع عشر، ٧٨).

(١) عبد الله بن ذكوان الزناد (ت ١٣١/ ٧٤٩ في المدينة) من التابعين؛ انظر: المنتظم لابن الجوزي، الباب السابع (٢٩٠)، رقم (٧١٠).

(٢) عبد الرحمن بن هرمز الأعرج (المتوفىٰ ١١٧/ ٧٣٥ في الإسكندرية)، تابعي من التابعين؛ انظر: الشذرات لابن العمادي، الباب الأول (١٥٣).

(٣) انظر: صحيح مسلم، كتاب التوبة، الباب الثامن (٩٧)؛ صحيح البخاري، كتاب=

لقد استفضنا في الكلام عن هذا الحديث في مكان آخر عند تناول أسئلة التكفير وما استشكل على الناس، ووضحنا بأن من يشرح كلمة «قدر» في هذا الحديث على أنها: «ضيّق»[1] أو «قضى»[2]، فهو غير مدرك لغرض الحديث وقصده[3].

---

=التوحيد، الباب الرابع (١٤٥).

(١) سيفهم عندها القسم الأول من الحديث بمعنى: حتى لو ضيّق الله عليّ.

(٢) سيفهم عندها القسم الأول من الحديث بمعنى: حتى لو قدّر أو قضى الله عليّ.

(٣) اختلف العلماء في تفسير قول الرجل «لو قدر الله علي»، أي (لو استطاع الله أن يجمعني من جديد ليوم الحساب).

تقول طائفة من العلماء: إن الرجل لم يقصد نفي قدرة الله عليه؛ لأن من يشك في قدرة الله هو حقا كافر. وكونه قال في نهاية الحديث «خوفا منك يا رب»؛ فهو إذن يخاف الله، في حين أن الكافر لا يخاف الله وبالتالي لا يُغفر له. إن لهذه العبارة تفسيرين اثنين، الأول: أن لو قدّر الله عليّ، وهي بمعنى قضى، والتفسير الثاني: قدَر بمعنى ضيّق عليّ، كمثل قوله تعالى في سورة الفجر، الآية (١٦): ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ ويعني: ضيق عليه رزقه.

بينما ذهبت طائفة أخرى من العلماء إلى الأخذ بظاهر كلمة «قدَر»، وعلى كل حال، فإن الرجل قالها بشكل غير جدي، فهو لا يريد المعنى الحرفي لها ولم يعتقدها في قرارة نفسه. وأكثر من ذلك، لقد قالها في حالة سيطرة الدهشة والخوف والجزع عليه إلى الحد الذي أذهب تعقله وتدبره لما يقوله. لذا لا ينبغي أن يرفض الإنسان اللين تجاه من يكون في مثل تلك الحالة.

وإلى ذلك، تنحو مجموعة أخرى من العلماء نحوا مغايرًا بقولها: إن كلام الرجل مما يستخدمه العرب في تعبيراتهم المجازية، وهو ما يطلقون عليه خلط الشك باليقين، ومنه ما يستخدم في القرآن، ونجده في الآية (٢٤) من سورة سبأ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، فالشكل يوحي بالشك، ولكن المعنى يقيني.

تقول مجموعة أخرى: إن هذا الرجل كان جاهلا بصفة من صفات الله ﷻ. =

لقد أثبتنا بأنّ المؤمن الذي لا يُشك مطلقا في إيمانه قد يخطئ في مسائل معينة من العلم أو من العقيدة، وهو معذور في ذلك تمامًا مثلما أنه معذور في بعض الأعمال التي قد يخطئ بها[1]. إنّ تكفير المؤمن لن يكون ذا معنىٰ حتىٰ يتم نصحه بحجة الله طبقا للأصول المعتبرة التي أرسل الله بها رسولَه الكريم، فكما يقول تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء:١٥)[2].

---

=ومجموعة غيرها تقول: إن هذا الرجل كان يعيش في زمن كان يفيد فيه التوحيد العادي البسيط، حيث لم يكن هناك أي تكليف بشيء آخر قبل مجيء الشرع تبعا للعقيدة الصافية، وهذا ما يتضح في قوله تعالىٰ في الآية (١٥) من سورة الإسراء: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الأحاديث للنووي ٥٣-٥٤).

لقد عمم البعض التفسيرين اللذين انتقدهما ابن تيمية علىٰ ما جاء في سورة الأنبياء، الآية (٨٧) في قوله تعالىٰ عن يونس ﷺ: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، حيث نجد في شرح فخر الدين الرازي تلميحًا إلىٰ أن يونس ﷺ قد شك في قدرة الله ﷻ. ولكن من المعلوم أن الذي يعتبر أن الله غير قادر علىٰ فعل شيء ما فهو كافر. وعلاوة علىٰ ذلك، ليس هناك خلاف حول هذه المسألة إطلاقا؛ لأنه من غير المسموح أن ننسب مثل هذه الآراء إلىٰ المؤمنين، ناهيك عن الرسل عليهم السلام. (التفسير للرازي، الباب الثاني والعشرون، ٢١٤-١٥). من بين التفسيرات الستة لهذه الآية التي يفترضها الشيخ الإيراني، نجده يضمّن كلا من (قدَر) و(ضيّق أو قضىٰ).

(١) بالنسبة للرسل أيضا، يقر ابن تيمية باحتمال خطئهم وارتكاب المعاصي الصغيرة، فعصمة الرسل عنده هي حمايتهم من الله بعدم الإصرار علىٰ الخطأ، وليس العصمة من الخطأ نفسه؛ انظر: B. ABRAHAMOV, Isma, sh. AHMED, Verses, 92.

(٢) يفصّل ابن تيمية في عقوبة المجتمعات الكافرة، فعلىٰ الرغم من كون أعمال هذه=

=المجتمعات فعلًا سيئة ومقيتة (بعكس رأي الأشاعرة)؛ فإنها لا تستحق العقاب حتىٰ يأتيها رسول من الله (علىٰ عكس ما يراه المعتزلة).

يقول الله ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ (القصص:٥٩)، ويقول في سورة النساء، الآية (١٦٥): ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾. ويقول في سورة الملك، الآيتين (٨ - ٩): ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾. حيث كان ما يفعلونه قبل مجيء الرسل قبيحا وسيئا بل وشيطانيا حتىٰ، ولكن لم يتم الحكم بعقوبتهم حتىٰ جاءهم الرسول، وهذا ما يقول به معظم العلماء.

لقد قيل: «لن يكون الأمر مكروهًا إلا عندما يتعلق بالمحرمات»، هذا ما يقول به أولئك الذين لا يتحدثون عن الخير والشر إلا فيما يخص الأوامر والنواهي الإلهية. هذا ما يذهب إليه صفوان بن الجهم، الأشعري (ت ٣٢٤/ ٩٢٥)، وأتباعه من أهل السنة. أما بالنسبة لأتباع مالك بن أنس، وأتباع الشافعي وأحمد بن حنبل من مثل عدي بن أبي يعلىٰ (ت ٤٥٨/ ١٠٦٦)، وأبي وليد الباجي (ت ٤٧٤/ ١٠٨١)، وأبي المعالي الجويني (ت ٤٧٨/ ١٠٨٥) وغيرهم، كمعظم علماء السلف والخلف، فهم يعتقدون بقبح الجاهلية والإشراك بالله التي عمت الناس قبل بعثة النبي ﷺ، ولكنهم لا يعتقدون بوجوب العقوبة عليهم إلا من بعد ما جاءهم الرسول.

لذلك عند الحديث عن الشرك والظلم والكذب والأعمال الشائنة... إلخ؛ يقول الناس فيها بأحد أقوال ثلاثة:

[١] إن أصحاب العقول يعرفون الطبيعة القبيحة لمثل تلك الأعمال، لذلك يستحق مقترفوها العقاب في الآخرة حتىٰ ولو لم يأتهم رسول. هذا رأي المعتزلة وكثير من أصحاب أبي حنيفة، ويقال بأن أبا حنيفة نفسه قاله أيضًا. وهو كذلك ما يقول به أبو الخطاب الكلوذاني (ت ٥١٠/ ١١١٦) وغيره.

[٢] وقيل أيضا أنه لا يمكن القول بقبح أو حسن أو فساد هذه الأمور قبل بعثة الرسول.=

وفي الأزمنة والبلدان التي يخبو فيها نور النبوة، لن يعامل من يخطئ كمعاملته في الأزمنة والبلدان التي تتبع الهدي النبوي بشكل جلي ظاهر.

استذكرنا الحديث الذي رواه حذيفة، وفيه: «يأتي على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا زكاة ولا صومًا ولا حجًا إلا الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة، يقول: أدركنا آباءنا وهم يقولون لا إله إلا الله». وعندما سئل راوي الحديث حذيفة «ما تغني عنهم لا إله إلا الله؟»، فقال: «تنجيهم من النار».

كما استذكرنا كلام الرسول ﷺ وكلام المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (البقرة:٢٨٦). فهو تضرع وابتهال لله تعالىٰ، وقد أجابه الله تعالىٰ، كما هو مذكور في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة وابن عباس.

وفي صحيح مسلم عن العلاء بن عبد الرحمن(١) عن أبيه عن أبي هريرة أنه قال: «عندما نزل قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ

---

=فالقبيح يشمل كل ما قال الرسول: لا تفعلوه، في حين أنّ الشيء الحسن هو ما أمر به أو سمح بفعله. هذا رأي الأشاعرة وهو ما يوافقهم به ثلاث مدارس فقهية.

[٣] يتجه الرأي الثالث إلىٰ القول بأن ما هو سيء فهو قبيح وفاسد حتىٰ قبل مجيء الرسول، ولكن العقاب لا يستحق إلا بعد البعثة. هذا رأي جمهور السلف ومعظم المسلمين، وهو أيضا ما يثبته الكتاب والسنة، حيث نجد فيه توضيحا بأن أفعال الكافرين قبل البعثة هي أفعال سيئة وقبيحة وفاسدة ولكنهم لا يعاقبوا إلا بعد ما يأتيهم رسول (مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية، المجلد الحادي عشر، ٦٧٦-٦٧).

(١) العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب (ت في المدينة ١٣٢/ ٧٥٠)، من التابعين؛ انظر: الجرح لابن أبي حاتم الرازي، الباب الخامس (٣٠١)، رقم (١٢٤٨).

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:٢٨٤)، جاء الصحابة وجثوا على ركبهم وقالوا: أي رسول الله! كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها - يقصدون قوله سبحانه: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ (البقرة:٢٨٤)-، قال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ (البقرة:٢٨٥)! بل قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (البقرة:٢٨٥). قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (البقرة:٢٨٥). فلما قرأها القوم، ذلَّت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (البقرة:٢٨٥).

فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى [أي: نسخ ما سألوا الرسول عنه][1]، فأنزل الله ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (البقرة:٢٨٦) قال: نعم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ (البقرة:٢٨٦) قال: نعم، ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ (البقرة:٢٨٦) قال: نعم، ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة:٢٨٦) قال: نعم[2].

---

(١) سألوا عن الآية في سورة البقرة، الآية (٢٨٤): ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾، وحول هذا الإلغاء؛ انظر ما كتبه محمد بن العربي المعافري (ت ٥٤٣/١١٤٨) في: كتابه النسخ ص (٢٨-٣٢). الآية الجديدة هي الآية (٢٨٦) من سورة البقرة.

(٢) انظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، الباب الأول (٨٠-٨١)، مسند الإمام أحمد، الباب=

نقرأ أيضا في صحيح مسلم عن سعيد بن جبير[1] عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ (البقرة:٢٨٤) قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء، قال: فقال رسول الله ﷺ: «قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا». فألقىٰ الله الإيمان في قلوبهم، وأنزل آية ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ ﴾ (البقرة:٢٨٦)، قال: نعم، ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ ﴾ (البقرة:٢٨٦)، قال: نعم، ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٨٦)، قال: نعم، ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٢٨٦)، قال: نعم[2].

### C. المبرؤون من السهو[3].

إن المتمسك بالمنسوخ من الأوامر الإلهية أفضل ممن يدّعي بأن هذه الأوامر والنواهي منسوخة علىٰ الإطلاق. وفي وضع كهذا، فإن أولئك المدعين يبتعدون بأنفسهم عن الكتاب والشرع والجهر بالإيمان؛ لأنهم لا

---

=الثاني (٢٤٢).

(١) سعيد بن جبير بن هاشم (ت في العراق ٩٤/ ٧٤٣)، من التابعين. انظر: المنتظم لابن الجوزي، الباب الرابع، ص (٣١٨).

(٢) انظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، الباب الأول (٨١)، سنن الترمذي، كتاب التفسير، الباب الرابع (٩٠-٢٨٩)، رقم (٣٠٧٦).

(٣) النص C هو خلاصة فتوىٰ ابن تيمية في:
IBN TAYMIYYA. MF. xi. 402, I. 3-411. 1.9 (F).

يتمسكون أبدا بأي أمر أو نهي إلهي. إنّهم أسوأ حتىٰ من المشركين المتمسكين ببقايا الإيمان كمشركي العرب الذين كانوا لا يزالون يحتفظون ببقايا من دين إبراهيم عليه السلام. في الواقع، كان لدىٰ مشركي العرب بعضٌ من الحق متمسكين به علىٰ الرغم من كونهم مشركين بالله في ذات الوقت. بينما نجد علىٰ النقيض من ذلك من لا يتمسك بأي قدر من الحق؛ حيث إنهم يعتبرون أنهم سيذهبون سدىٰ، لذا فهم من وجهة نظرهم معفَوْن من الالتزام[1] بكل ذلك.

عندما يقول شخص بأنه أو طائفته معفَوْن من الالتزام بالواجبات والمحرمات، فهم يعنون أن ليس ثمة ما هو إلزامي أو ما هو محرم عليهم بعد ذلك[2]. إن أشخاصًا كهؤلاء لهم الأكثر كفرًا علىٰ وجه الأرض ويمكن اعتبارهم مثل فرعون[3] أو من هم علىٰ شاكلته، إلا أنهم وعلىٰ الرغم من ذلك؛ يتبعون بما لا يقبل الجدل شيئًا ما حتىٰ وإن كان من أساسيات عيشهم.

---

(١) انظر سورة القيامة، الآية (٣٦): ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

(٢) هناك إشارة ضمنية إلىٰ القيامة وإلغاء الشرع المعلن في (٥٥٩/ ١١٦٤) من قبل إسماعيلي آلموت؛ انظر: IBN TAYMIYYA, Dar, trans. MICHOT, Mamluk 1, 185.

(٣) إن فرعون والنمرود بالنسبة لابن تيمية هما أنموذج للطاغية الذي يطلب الطاعة الكاملة العمياء من الناس بادّعاء الألوهية (انظر: سورة القصص، الآية ٣٨) معتبرا أن لا شرع إلا شرعه. لذا فقد كان فرعون مثالا وقدوة لجنكيز خان والقائلين بوحدة الوجود؛ انظر:
IBN TAYMIYYA, Qurbus, trans. MICHOT, Rot Croisc, 130, 168-69, MF, Trans, Texts, XII, 26, Dar, trans. MICHOT, Mamluk 1, 184.
ليس كل الفراعنة مثل بعضهم؛ ينظر ابن تيمية إلىٰ فرعون زمن سيدنا يوسف بنظرة أكثر إيجابية من فرعون زمن سيدنا موسىٰ إلىٰ حد مدح سيدنا يوسف لخدمته ذلك الفرعون.

إنّ الجنس البشري من دون شك لا يستطيع العيش من دون مثل هذه الأساسيات من أي نوع كانت بما تتضمنه من أوامر ونواهٍ[1]. فهم بذلك يتملصون من طاعة وعبادة الرحمن إلىٰ طاعة وعبادة الشيطان. علىٰ سبيل المثال: قول فرعون لموسىٰ: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الشعراء:٢٣)، حيث كان لديه آلهة أخرىٰ يعبدها، لذلك نجد قول قومه له: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ (الأعراف:١٢٧) وعلىٰ الرغم من ذلك، فإن العديد من هؤلاء الناس لا يعلنون إلغاء الأوامر الدينية ولا يتنصلون من العبودية بشكل مطلق، وإنما يسقطون بعض ما أمروا به ويحلون بعض ما حرم عليهم[2]. ومن هؤلاء علىٰ سبيل المثال: رجل يدعي أن الصلوات الخمس سقطت عنه؛ وذلك لأنه بلغ منتهىٰ الدين. وفي بعض الأحيان قد يدعي سقوط الصلوات عنه بسبب المشاهدة والحضور[3]. مثل من يدّعي سقوط تكليفهم بصلاة الجماعة وإمكانية استغنائهم عنها بفضل توجههم الروحانيّ الذي يتمثلونه والحضور الذي يغمرهم. ومن بينهم أيضا من يدعي سقوط فريضة الحج عنه حتىٰ وإن

---

(١) عن مفهوم ابن تيمية حول ضرورة الأخلاق في حياة البشر؛ انظر:

IBN TAYMIYYA, MF, trans. MICHOT. Texts, XIV, 27.

(٢) فيما يخص الحريات الشرعية المتخذة من بعض أشكال الصوفية وحول انتقاد ابن تيمية لها؛ انظر:

MF, trans. MICHOT, Musique, 137-39, pages XX, Y. MICHOT, Haschich, 43-51.

(٣) الحضور هو التعبير التقني للطقوس الصوفية التي يمارسها يوميًا الصوفيون الذين يعيشون في خانقاه (رباط). انظر:

T. E. HOMERIN, Saving.

استطاع إليه سبيلًا؛ وذلك لأنهم يعتبرون أن الكعبة هي من تطوف حولهم[1] أو بسبب حالة شيطانية أخرىٰ[2]. ومن هؤلاء أيضا من يحلل الإفطار في رمضان بغير عذر شرعي بحجة أنه مسموح لهم الاستغناء عن الصيام.

وبشكل مماثل، فإن من ضمن هؤلاء الناس من يحلل شرب الخمر[3]، بحجة أنها محرمة فقط علىٰ من يصبح بشربها عدوانيًا مهاجمًا الآخرين؛ فهي إذا من وجهة نظرهم غير محرمة علىٰ النخبة المثقفة. كما يقولون بحرمتها علىٰ الناس العاديين الذين لا يملكون رصيدًا من الأعمال الفاضلة. فقد يحللونها لأصحاب الأرواح الطاهرة والأعمال الفضيلة ولكن ليس للناس العاديين.

---

(١) انظر: الكلمة المشهورة لأبي يزيد البسطامي (ت ٢٣٤/ ٨٥٧) أو (٢٦١/ ٨٧٤): لقد حضرت الحج لأول مرة فغمرتني الجموع، وفي المرة الثانية غمرتني الكعبة، وفي المرة الثالثة حصل نفس الأمر. في طريقي إلىٰ الحج آخر مرة، دُعيت وسط الصحراء فسئلت: إلىٰ أين أنت ذاهب؟ فقلت: إليه، قيل لي: «لقد تركته في بسطام»، وبذلك تم تنبيهي لفهمي الخاطئ (A. MEDDEB, Dits, 145, no. 336) «كنت أطوف حول البيت الحرام بعدما ذهبت إلىٰ ربي، فوجدت البيت يطوف حولي» (111, no. 239, see also 58, no. 70) «إن المؤمن الكيّس هو من تأتي مكة وتطوف حوله قبل أن تعود لمكانها، ويحصل هذا له من دون أن يدرك، كما لو أنه قد تم إبهامه» (138, no. 322, see also 172, no. 419).

(٢) حول الشيطانية؛ انظر:

IBN TAYMIYYA, MF, trans, MICHOT, Pages, XX, Haschich, Sang, Sidis, A. MORABIA, Prodigies.

(٣) حول تحريم الخمر في الإسلام؛ انظر:

IBN TAYMIYYA, MF, trans. MICHOT, Pages XIX, Haschich.

وحول الخمر في المجتمع المسلم في الفترة الكلاسيكية؛ انظر:

S. GUTHRIE, Life, 181-91

وقد استخدم البعض الشبهة أيضا في بدايات الإسلام لتبرير أفعالهم، ولكنّ الصحابة اتفقوا علىٰ تنفيذ حكم الإعدام بحق متبعي الشبهة الذين لم يتوبوا؛ فقد اعتاد قدامة بن عبد الله[1] علىٰ شرب الخمر مع بعض أصحابه، بسبب فهمهم لبعض الآيات: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ (المائدة:٩٣)، وعندما نُقل ذلك إلىٰ عمر بن الخطاب ﷺ، وافق مع علي بن أبي طالب وبقية الصحابة علىٰ التالي: «سيجلدون إن شربوها متأولين، ولكنهم سيُعدمون إن شربوها مستحلّين»[2]. قال عمر بن الخطاب لقدامة: «أخطأت استك الحفرة[3]، أما إنك لو كنت اتقيت لما شربت الخمر!»؛ وذلك لأن هذه الآية نزلت لسبب آخر وهو أنه عندما حرم الله الخمر بعد غزوة أحد[4]، قال بعض الصحابة: «ماذا بالنسبة للصحابة الذين ماتوا يشربون الخمر قبل تحريمها؟»، فعندها أنزل الله هذه الآية موضحًا من خلالها أن الإنسان معذور فيما لم ينزل به تحريم طالما أنه من المؤمنين المتّقين أصحاب الأعمال الصالحة.

---

(١) في الواقع قدامة بن مظعون بن حبيب (ت ٣٦/ ٦٥٦) وهو عامل عمر علىٰ بحريان. حول هذه الحادثة، اقرأ كتاب الأسد لابن الأثير، الباب الرابع، ص (١٩٨-٢٠٠)، مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية، الباب السابع، ص (٦١٠)، الباب العشرين، ص (٩٢).

(٢) في حالة شرب الكحول يكون الجلد عقوبة خرق القانون، والموت عقوبة من ينكر هذا القانون. انظر: Y. MICHOT, Haschich, 36-37, 120-21.

(٣) استك الحفرة، تعبير اصطلاحي كناية عن الخطأ الفادح.

(٤) إلىٰ شمال المدينة، موقع المعركة العظيمة بين المسلمين وكفار قريش (شوال ٣/ ٦٢٥-٤/ ٦٢٦). انظر: C. F. ROBINSON, EI2, art. 'UHUD'.

وهذا يشابه أمره تعالىٰ في تغيير اتجاه القبلة من بيت المقدس[1] إلىٰ الكعبة في مكة، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ (البقرة:١٤٣)، أي لن يضيع صلواتكم التي كانت تجاه بيت المقدس.

لقد أوضح الله سبحانه بأنّ من يعمل في حياته انطلاقا من طاعته ﷻ، فإنّه تعالىٰ يثيبه حتىٰ ولو تغير الحكم بعد حين؛ فلا إثم علىٰ من يحلّل شيئا لم يحرّمه الله تعالىٰ طالما أنه من المؤمنين المتقين حتىٰ ولو نزل التحريم لاحقا.

وفي مقابل ذلك، فإنّ شرب الخمر بعد تحريمها مكافئٌ للصلاة باتجاه بيت المقدس بعد تغيير القبلة، أو لاتخاذ السبت بدلا من الجمعة[2]، أو لتحليل الفحشاء وبقية الممارسات التي يحرمها الشرع.

لا يمكن لأحد أن يبقىٰ متمسكا من تلقاء نفسه بأمور ألغيت شرعًا، فهذا مشابه لمن يبقىٰ علىٰ دين قديم بعد نزول الدين الجديد[3]، ومن أجل ذلك

---

(١) تغيير القبلة الوارد في سورة البقرة الآية ١٤٢-١٤٥، التواريخ من رجب أو شعبان ٦٢٣.
انظر: A. J. WENSINCK, EI2, art, 'Kibla'.

(٢) حول اختيار يوم الجمعة كيوم عيد للمسلمين، بدلا من السبت لليهود والأحد للمسيحيين؛
انظر: Ibn TAYMIYYA, Iqtida', trans, MEMON, Struggle, 202.

(٣) كرفض ما ينزل من إلغاء الأحكام القاسية؛ والإلغاء المستمر والابتداع، التذبذب. هذان مثالان متطرفان يقوم بهما اليهود والنصارىٰ علىٰ التوالي، وبينهما يرىٰ ابن تيمية الإسلام حلّا وسطًا. فعندما يلغي الإسلامُ بختم النبوة الأديانَ السابقة، فهذا يعني التأسيس النهائي لحقوق الله علىٰ العباد علىٰ مر التاريخ البشري، وليس تشجيع الناس علىٰ التشريع الذاتي. انظر في:
Y. MICHOT, Roi croise', 140, 151-52, Texts XII, 28-30, Mamluk II, 191, Iqtida', trans. MEMON, Struggle, 209.

أجمع الصحابة ﷺ على إعدام من يحلل شرب الخمر بعد تحريمها.

إلى ذلك، فقد ندم من استمر بشرب الخمر من الصحابة واعترفوا بخطئهم وتخوفوا من عدم قبول توبتهم، لذلك نجد أن عمر بن الخطاب ﷺ كتب لقدامة ﷺ: ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ﴾ (غافر:١ - ٣)، وبعد: فإني لا أدري أيّ ذنبيك أعظم؛ استحلالك المحرم أولًا، أم يأسك من رحمة الله ثانيًا»[١].

لقد كانت هذه النقطة محل إجماع للصحابة، كما أجمع عليها أئمة الإسلام أيضا ولم يختلفوا فيها.

وبالتالي، من ينكر الفرائض المتواترة - كالصلوات الخمس وصيام رمضان وحج البيت العتيق -، أو من ينكر تحريم بعض الأمور المنهي عنها بشكل متكرر - مثل الفاحشة والزنا، الظلم، الخمر، الميسر[٢] -، أو من ينكر حِل بعض الأمور المنصوص عليها بشكل متكرر - كالخبز واللحم[٣]

---

(١) لا يحق لأحد أن يقنط، بل على العكس عليه أن يرجو رحمة الله. وبشكل مماثل، مثلما أنه لا يحق له القنوط، فإنّ عليه الخوف من عقاب الله تعالى. يقول ﷻ في سورة الإسراء الآية (٥٧): ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾.

(IBN TAYMIYYA, MF, xi, 390, trans. MICHOT, Texts III, 11).

(٢) حول الميسر وتحريمه في الإسلام؛ انظر: F. ROSENTHAL, Gambling.

(٣) يتوسط الإسلام بين الرأيين المتطرفين القائلين إما بأكل لحم البشر أو بالأكل النباتي فقط؛ فلقد أحلّ الإسلام أكل اللّحم ضمن مجموعة من الضوابط والنواهي؛ انظر:

M.H. BENKHEIRA, Interdits .

يُعتبر الشاعر أبو العلاء المعري من أشهر النباتيين في عصر الإسلام التقليديّ، ومن ثمّ=

والزواج[1] -؛ فهو كافر يستتاب؛ إن تاب فخير له وإلا فيقتل.

وأبعد من ذلك: من يخفي في نفسه إنكاره لهذه الأمور فهو زنديق منافق، وهذا النوع لا يستتاب على رأي الجمهور[2]. وفي المقابل، عندما يفتضح أمر هذا الإنكار ويثبت عليه، فإنه يقتل من غير أن يستتاب.

من هؤلاء القوم من يحلل بعض الفواحش المحرمة، كأن يحلل المرء لنفسه الاختلاط بالنساء الأجانب[3] أو الخلوة بهن بحجة البركة التي ستصيبهنّ بفضل ما سيفعله بهنّ حتىٰ لو كان ذلك محرمًا.

بشكل مماثل، منهم من يحلل التمتع بالشباب الأمرد من خلال النظر إليهم والتمتع بهم، بحجة أن ذلك يقوده لحالة روحية ترفعهم من حب المخلوق إلىٰ حب الخالق[4]، فهم بذلك يأمرون بالخطوات الأولىٰ التي تقود في النهاية إلىٰ الفاحشة. كما أنّهم قد يحللون الفاحشة الكبرىٰ بتحليل اللّواط

---

=فقد اتّهم بأنّه تمنىٰ أن يكون أكثر رحمةً من الله تعالىٰ؛ انظر:
G. J. VAN GELDER, Banquet, 88.

(١) علىٰ الرغم من أنّ ابن تيمية نفسه لم يتزوج، ولكنّه لم ينكر حلّ الجماع بحال من الأحوال، ربما كان يقصد العزوبية الكهنوتية للمسيحيين وبعض مقلدي الصوفية.

(٢) وهم هنا المالكية والحنبلية، إلا أنّ الشافعية والحنفية يستتيبون المنافقين؛ انظر:
A. R. AL-JAZIRI, Fiqh, v. 428-29.

(٣) حول هذا الموضوع؛ انظر: الفتوىٰ الخاصة بالمشعوذين الذين يختلون بالنساء الأجانب
(IBN TAYMIYYA, MF, trans. MICHOT, Pages XX, 23).
وأيضا الأدلة المجموعة في: Y. MICHOT, Haschich, 146-47.
وحول موقف ابن تيمية من النساء والحبّ؛ انظر: Y. MICHOT, Celibataire.

(٤) فيما يخص النظر والتحديق بالأمرد من قبل بعض الصوفيين التقليديين، بما يعتبرونه انعكاسًا لجمال وجه الله؛ انظر: Y. MICHOT, Haschich, 144-46, Celibataire, 171.

مع ملك اليمين[1].

كل أولئك القوم كفار وهذا مجمع عليه بين علماء الإسلام. فهم كمن يحلّل قتل المسلم من دون الأسباب الشرعية لذلك، أو من يستعبدون نساءهم أو يسرقون ممتلكاتهم، أو يرتكبون غيرها من الموبقات المعروفة معرفةً تعم بها البلوىٰ بأنها محرّمة شرعيًا.

وبكل الأحوال، فهناك من يعذر بالجهل، أي لجهله بهذه الأحكام الشرعية؛ ولذا لن يحاسبوا حتىٰ يبلّغوا بالحجة، وتصلهم الرسالة. يقول الله تعالىٰ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (النساء:١٦٥). ويقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (الإسراء:١٥). من أجل ذلك لن يحكم بالكفر علىٰ من دخل بالإسلام حديثًا أو علىٰ من لا يعرف أنّ عليه أن يصلي وأنّ شرب الخمر ممنوع؛ لأنّه - ببساطة - لم ينكر فرضية الصلاة ولا تحريم الخمر. وعلاوة علىٰ ذلك، لن يعاقب حتىٰ يتم وضع الحجة عليه بتبليغه بتلك الحجج.

ولقد فرّق العلماء في هذا الموضوع فتساءلوا عمن يدخل الإسلام في دار الحرب[2] وهو لا يعلم أنّ الصلاة فرض، ومن ثمّ تعلّمها: هل يجب أن يبرّر

---

(١) أي بملك اليمين من العبيد. وحول اللواطة في المجتمعات المسلمة التقليدية وتحريمها شرعيًا؛ انظر:

IBN AL-JAWZI, 198-209, S. O. MURRAY & W. ROSCOE (eds.), Homosexualities, J. W. WRIZghT & E. K. ROWSON (eds.), Homoeroticism.

حول فتوىٰ ابن تيمية حول هذا الموضوع؛ ومدروسة انظر في:

Y. MICHOT, Celibataire, 180.

(٢) بالنسبة لابن تيمي؛، فإنّ دار الحرب ودار السلم هي مسألة حادثة وليست الحالة=

إغفاله الصلاة في ذاك الوقت، علمًا أنه جاهل بها؟ اختلف العلماء في ذلك إلىٰ فريقين؛ فمن وجهة نظر أبي حنيفة: لا يجب علىٰ المرء أن يبرّئ نفسه من ذلك. بينما ذهب أصحاب الشافعي إلىٰ أنّ عليه أن يبرئ نفسه.

إذًا هناك خلاف بين العلماء حول ما يجب أن يفعله المرء الذي أغفل القيام ببعض الفرائض قبل أن تصله الحجة أو يبلّغ بها. كأن يترك أحد ما الصلاة عند عدم وجود الماء مظنّة عدم جواز الصلاة بالتيمم. أو أن يفطر شخص ما في يوم رمضان لانتظاره أن يميز بين الخيط الأبيض والأسود ظنّا منه أن هذا هو المقصود بالآية[1]، وهذا ما حدث مع بعض صحابة المصطفىٰ ﷺ[2]. أو كأن يلمس أحد فرجه[3] أو يأكل لحم الجمل[4] من دون أن يتوضأ بعد ذلك، ومن ثم

---

=الطبيعية، وإنّها تعبر عن إيمان أو كفر المواطنين في هذي البلاد أو تلك، وليس عن النظام السياسي في ذاك الوقت. انظر أيضا النصوص المترجمة في: Y. MICHOT, Muslims.

(١) الآية (١٨٧) من سورة البقرة: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ ﴾.

(٢) انظر: صحيح البخاري، الباب الثالث، رقم (٢٨). وانظر: صحيح مسلم، كتاب الصيام، الباب الثالث (١٢٨).

(٣) فقط أتباع المذهب الحنفي لا يعتقدون بوجوب إعادة الوضوء بعد لمس الفرج. انظر: كتاب الفقه لعبد الرحمن الجزيري، الباب الأول، ص (٨٤-٨٥). وهي مفصلة علىٰ سبيل المثال في كتاب العمدة لابن نقيب المصري (ت ٧٦٩/ ١٣٦٨)، والمترجم من قبل كللر ص (٧٢-٧٣).

(٤) الحنابلة فقط من يقولون بأن أكل لحم الجمل يستوجب الوضوء (مذهب ابن تيمية). انظر: كتاب الفقه لعبد الرحمن الجزيري، الباب الأول، ص (٨٧). وهذا القول مرفوض لدىٰ الشافعية علىٰ سبيل المثال؛ انظر: كتاب العمدة لابن نقيب المصري والمترجم من=

يظهر لهم الدليل، فهل عليهم أن يبرؤوا أنفسهم أم لا؟ سلك العلماء في هذا الموضوع مسلكين؛ مسلك الإمام أحمد ومسلك بقية الجمهور.

إن السؤال الأساسي حول هذا الموضوع هو: هل ينطبق الأمر الوارد في حديث معين من أحاديث الرسول ﷺ علىٰ المكلّف الذي لم يسمع بهذا الحديث؟ وهنا يوجد ثلاثة آراء تختلف بين مذهب الإمام أحمد وبقية الجمهور. فقد قيل «أنه ينطبق علىٰ المكلف بشكل مطلق»، وقيل «أنه لا ينطبق بشكل مطلق»، كما أنّ هناك من قال: «يجب التفريق بين الحديث الذي يلغي أمرًا سابقا وبين الحديث الذي يشرع أمرًا جديدًا، مثل حالة الناس الذي عاصروا تبديل القبلة».

وإن الرأي المستند إلىٰ الدلائل الشرعية يقول بأن الحديث لا ينطبق علىٰ شخص حتىٰ يسمع به، ففي الأمثلة المذكورة وما يشابهها، ليس علىٰ المرء تبرئة نفسه مما غفل عنه أو لم يعلمه سابقا. وإلىٰ جانب ذلك، هنالك إجماع بين العلماء علىٰ عدم تأثيم مثل شخص كهذا، وذلك لأن الله تعالىٰ قد برأ هذه الأمة من الخطأ والنسيان. وإذا كانت هذه الأمور لا تجعل الإنسان آثما، فكيف تجعله كافرًا؟!

ينشأ الكثير من الناس في أوقات وبلاد ضعف فيها الاهتمام بعلوم النبوة، حيث لا يوجد من يذكّرهم بالكتاب والحكمة[1] الذين أرسل الله بهما رسوله الكريم. وفي أوقات كتلك، يكاد يختفي العلم الشرعي ومن يذكر به أيضًا.

---

=قبل كللر ص (٧٢-٧٣).

(١) أي سنة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وهنا لا يمكن القول بتكفير الناس الذين يعيشون في مثل هذه الحالات. ومن أجل ذلك كان هنالك إجماع بين الأئمة علىٰ عدم الحكم بكفر الشخص الناشئ في منطقة نائية بعيدًا عن علماء الدين حيث أسلم مؤخرًا وبدأ بممارسة واحدة أو أكثر الأوامر الشرعية؛ فلا يحكم بكفره حتىٰ يبلّغ بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام.

من هنا يمكن فهم الحديث القائل: «يأتي علىٰ الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا زكاة ولا صوما ولا حجا إلا الشيخ الكبير والعجوز».

قد يقول قائل: «آباؤنا ينفعهم قول لا إله إلا الله»، ونذّكر بما قيل لحذيفة، «ما يغني عنهم قول لا إله إلا الله من دون صلاة ولا صوم أو زكاة؟»، قال: «تنجيهم من النار».

إنّ هذا الأساس مثبت في صحيحي البخاري ومسلم عن طريق أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «أمرَ رجلٌ لم يعمل حسنة أهلَه أن إذا مات ليحرقوه ثم ينثروا نصفه في البرّ ونصفه في البحر فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين! فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم، فأمر الله البر فجمع ما فيه، وأمر البحر فجمع ما فيه، ثم قال: لم فعلت هذا؟ قال: من خشيتك يا رب وأنت أعلم؛ فغفر الله له»[1].

وفي رواية أخرىٰ: «كان رجلٌ يُسْرِفُ علىٰ نفسِه، فلمَّا حضَرَه الموتُ قال لبنيه: إذ أنا مِتُّ فاحرِقوني، ثمَّ اطحَنوني، ثمَّ ذُرُّوني في الرِّيحِ، فواللهِ لئن قدَر

---

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب التوبة، الباب الثامن (٩٧)؛ صحيح البخاري، كتاب التوحيد، الباب التاسع (١٤٥).

عليَّ ربِّي ليُعَذِّبَنِّي عذابًا ما عُذِّبَهُ أحَدٌ!

فلمَّا مات فُعِلَ به ذلك، فأمَرَ اللهُ الأرضَ فقال: اجمَعي ما فيك منه، ففعَلَتْ، فإذا هو قائمٌ، فقال: ما حمَلَك علىٰ ما صنَعْتَ؟ قال: يا ربِّ خشيتُك؛ فغفَر له»[1].

وفي رواية أخرىٰ للحديث من طريق آخر نَجِدُ: «فقال الله لكل شيء أخذ منه قسما: «أدوا ما أخذتم منه!»»[2].

يروي البخاري هذا القصة من طريق حذيفة ومن طريق عقبة بن عمرو[3] عن حذيفة أيضًا. فينقل عن النبي ﷺ أنه قال: «كان رجل ممن قبلكم[4] يساوره الشك حول أعماله، فقال لعائلته: «عندما أموت خذوني وانثروني في البحر في يوم حار». ففعلوا كما قال لهم. فجمعه الله ثم قال له: «ما حملك علىٰ ما فعلت؟» فأجاب «لا شيء سوىٰ مخافتك يا رب»؛ فغفر الله له»[5].

ويمكن أن نقرأ في رواية أخرىٰ من طريق آخر:

«حضر الموتُ رجلًا، فيئس أن يعيش أطول، فأمر عائلته قائلًا: «عندما

---

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب التوبة، الباب الثامن (٩٧-٩٨)؛ صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، الباب الرابع (١٧٦).

(٢) انظر: صحيح مسلم، كتاب التوبة، الباب الثامن (٩٨).

(٣) عقبة بن عمرو، أبو مسعود (المتوفىٰ في الكوفة ٤٠/ ٦٦٠)، صحابي؛ انظر: ابن الأثير، الأسد، الباب الثالث (٤١٩).

(٤) يهودي من بني إسرائيل؛ انظر: ابن حجر، الفتح، الباب الرابع (٦١٥).

(٥) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، الباب الثامن (١٠١). هذا الحديث منقول عن حذيفة عن ربيع بن حراش (المتوفىٰ في الكوفة، ١٠٤/ ٧٢٢).

أموت، اجمعوا لي الكثير من الحطب ثم احرقوني. وعندما تأكل النار لحمي وتتفحم عظامي، خذوها واجعلوها رمادا، وانتظروا يومًا ثمّ انثروني عاليًا في البحر!»، فجمعه الله وقال له: «ما حملك على ذلك؟» فأجاب: «مخافتك يا رب»؛ فغفر الله له».

يشير عقبة بن عمروا إلى أنه سمع الرسول ﷺ يقول أن هذا الرجل كان نبّاش قبور[1].

لقد اعتقد ذاك الرجل أن الله لن يفعل له شيء إذا تفتت بهذا الشكل وأنّ الله لن يعيده بعد هذا التحلل. إنّ من ينكر قوة الله تعالى وينكر بعثَه للناس بعد الموت، حتى ما يتحلل من أجسادهم، يعتبر كافرًا. إلا أنّ الرجل هنا، وعلى الرغم من إيمانه بالله تعالى وأوامره وخوفه منه، كان جاهلًا ضالًا باعتقاده ومخطئا بتفكيره ذلك؛ ومع كل ذلك، فلقد غفر الله له!

إن هذا الحديث واضح جدا، فلقد تمنى الرجل حقًا لو أن الله لا يجمع رفاته بعد فعلته تلك؛ وإن أقل ما يعنيه ذلك هو أنّه شكّ ببعثه من جديد. والآن نقول: يعتبر كافرا كل من ينكر التبليغ بالحجة النبوية، وبالتالي يحكم عليه بالكفر بسبب الدليل الواضح بقلة إيمانه بالله تعالى.

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، الباب الرابع (٦٩-١٦٨). هذا الحديث منقول من ربيع بن حراش عن عقبة عن حذيفة؛ انظر أيضا: كتاب الأنبياء، الباب الرابع (١٧٦)؛ مسند ابن حنبل، الباب الخامس (٣٩٥). النباش هو من يسرق الأكفان من القبور؛ انظر: ابن حجر، كتاب الفتح، الباب الرابع (٦١٥)؛ القسطلاني (المتوفى في القاهرة، ٩٢٣/ ١٥١٧)، الإرشاد، الباب السابع (٤٠٩)، رقم (٣٤٥٦).

إن من يفسر قول الرجل (لو قدر الله عليّ) بمعنىٰ (قضىٰ) أو (ضّيق)، يبتعد عن المعنىٰ الحقيقي للجملة؛ فإن الرجل أمر بحرقه ونثره فقط لكيلا يُجمع ويُبعث مرة أخرىٰ. «عندما أموت، احرقوني واجعلوني رمادا، ثم اجعلوا الريح تنثرني في البحر. فوالله لو قدر الله علي ليعذبني عذابا لم يعذبه أحدا من العالمين!». إن حقيقة توضيحه بالجملة الثانية بالقسم (ف) التي تتبع الجملة الأولىٰ، تثبت أنّها السبب، وأنّه أقدم علىٰ هذا العمل حتىٰ لا يفعل الله له شيء بسبب فعلته تلك. حيث إنّه لو أدرك قدرة الله عليه قبل أن يأمر بهذا الفعل، بشكل مساو لإدراكه قدرة الله عليه إذا لم يفعلها، لما أقدم علىٰ ذلك.

وعلاوة علىٰ ذلك، إنّ التقدير والتضييق عليه بمثابة العذاب بالنسبة له، فمن الواضح أنّ الرجل أراد أن يجعل من تحلله وسيلةً ليتجنب قدرة الله عليه؛ لذلك قال: «والله لو قدر الله عليه ليعذبنّي عذابا لم يعذبه أحدًا من العالمين». إذًا الحالة هنا لم تكن أنّه سيعاقب؛ لأنّها لو كانت كذلك لقال: «والله لو سيجازيني الله...، أو، والله لو سيعاقبني الله؛ ليعاقبنّي بما لم يعاقب به أحدا...»؛ لأن ذلك سيكون وقتها معبرا أكثر بالنسبة له.

أخيرًا ومن ناحية لغوية: إنّ تفسير كلمة قدَر (أي القدرة علىٰ) بمعنىٰ ضيّق أي حدد، هو تفسير لا أساس له من الصحة.

ونجد أيضا كلمة قدِّر كما في ﴿ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ ﴾ (سبأ:١١)، وكلمة ﴿ قُدِرَ عَلَيْهِ ﴾ (الطلاق:٧)؛ فإن من يستخدم هاتين الكلمتين للدلالة علىٰ معنىٰ (قدر علىٰ) كما في الحديث السابق، فإنه يضع أدلة في سياق خاطئ. إن كلمة قدّر المقتبسة من قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ ﴾ (سبأ:١١) تعني اجعل لكل شيء

قدرًا، فلا تزد ولا تنقص. أمّا قوله تعالىٰ: ﴿ قُدِرَ عَلَيْهِ ﴾ (الطلاق:٧) فيدل علىٰ من كان عيشه بحد الكفاف من دون أي فائض؛ بمعنىٰ أنه لو نقص عن ذلك الحد؛ لما كفاه.

وإن فهم كلمة قدَر بمعنىٰ قدّر (قضىٰ) أي القضاء المسبق بالخير والشر هو غير صحيح؛ لأنّ الرجل لم يقل: «إن قضىٰ الله علي أن يعذبني...»، ولكنه قال: «إن قدَر علي...».

وأكثر من ذلك أيضًا: إنّ القضاء ينضوي علىٰ نوعين من الجزاء؛ وهما الثواب والعقاب. وعليه، لن يكون القول صحيحًا في حالة «لو قضىٰ الله عليّ...»، فهي تعني أن الله تعالىٰ أمضىٰ وقدّر له ما سينفعه وما سيضره.

وإلىٰ جانب ذلك: فلو أنّ الرجل عنىٰ التقدير والتضييق عليه، فما كان لينفعه، من وجهة نظره، ما فعله بنفسه.

هناك العديد من التفاسير الخاطئة والمحرّفة لهذا الحديث، وليس هذا المكان المناسب لذكرها جميعًا. وإن ما يذكر هنا هو: أنّه كان هناك رجل جاهل بصفات الله تعالىٰ - وخصوصا القدرة أي أنّه قدير -، وعليه فلربما هناك الكثير من المؤمنين الجاهلين بمثل هذه الأمور، وبالتالي لا يمكن عدّهم كفارا.

***

# الفصل الخامس:

## هل يتردد اللّه؟

## (Dieu, 2004)

أصدقاء أو أقارب يموتون في سن مبكرة، ضحايا الزلازل بالآلاف، المجاهدون يُقتلون في فلسطين والبقاع الأخرىٰ من العالم الإسلام دون أي عقاب للجاني... الموت حاضر في كل مكان ينتظرنا جميعًا فردًا فردًا، بابتسامة ساخرة من قابض الأرواح العظيم المؤتمن علىٰ الكلمة الأخيرة.

فهل يدع الله هذه المجزرة مستمرة حقًا؟ وأي حكمةٍ، بل أي رحمةٍ يمكن أن تكون في هذه المذبحة؟

الحق أننا لسنا وحدنا المضطربين، فلقد ورد في الحديث القدسي المشهور: أنَّ الله يتردد في نزع روح عبده المؤمن: «يكره الموت وأنا أكره مساءته». وهذا النص المروي (المسمىٰ حديث النوافل أو حديث الأولياء) أحد أكثر الأحاديث القدسية شهرة، وأكثرها تعليقًا،[1] سواء في مسألة

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، المجلد الثامن (١٠٥)؛ ومسند ابن حنبل، المجلد السادس (٢٥٦)؛ وراجع أيضًا:

W. A. GRAHAM. DIVINE. 173-174. no. 49, Dieu, 303-306.

الولاية[1] «مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»، أو في مسألة الحب الإلهي «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ»، أو في نهايته التي نالت أيضًا حظها من الجدال؛ لأن بعض الناس رأوا فيها تجسيمًا مرفوضًا، حيث قال الله بأنَّه في ذلك الموضع يتردد في سحب روح عبده المؤمن.

سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذا الموضوع في الفتوىٰ المذكورة في هذا الفصل[2]، وقد بدأ بتأكيد صحة هذا الحديث ووجوب الاحترام المطلق لكلام رسول الله ﷺ، ثم بدأ بتوضيح مفهوم التردد. إحدىٰ الأمور التي يمكن فهمها من التردد: وجود مشاعر متعارضة علىٰ أمر واحد، وهي الحب من وجه، والكره من وجه آخر، وهذه هي الحال عندما قضىٰ الله قبل بدء الخليقة بموت ومعاناة عباده الأتقياء الذين أصبحوا أحباءه.

هنالك أيضًا مواقف أخرىٰ قد يُرىٰ فيها لله مشاعر متعارضة، كمقته للذنب رغم أنَّه خلق الذنوب بإرادته، وفي هذا الموضوع يذكر ذلك الشيخ الدمشقي التقسيم (وهو أساس عقيدته) بين إرادة الله الكونية وإرادته الشرعية، وبتعميم أكبر، الفرق بين الأبعاد الوجودية للواقع وأبعاده الدينية[3]، لكن عند التمعن لا نجد مطابقة تامة بين كره الله لسحب روح عبده وكرهه

---

(١) للمزيد عن مفهوم الولي والولاية؛ راجع: M. CHODKIEWICZ. Sceau. 29-64

ولمراجعة مفهوم ابن تيمية عن الولي والولاية؛ راجع:

MF. trans. MICHOT. Musique. 61. n.2. Saints.

(2) IBN TAYMIYYA. MF, xviii, 129-135.

(٣) راجع:

IBN TAYMIYYA. MF. trans. MICHOT. Textes II-IV, J.N. BELLM Love. 66-67.

للفسق الذي خلقه بنفسه. ففي الحالة الأولىٰ كان الأمر لمصلحة عبده، وليبين له رحمته فيما بعد في مساءته عند إماتته. أما في الحالة الثانية لم يتوقف الله عن كره الذنوب، والذنوب لا تؤدي لخير، إلا إذا تاب المذنب بالطبع، فالتوبة من أحب الأعمال إلىٰ الله.

لذلك يعود هذا العالم للسؤال الأعم عن قضاء الله بحصول الشر. ووفقًا له فإنَّ الموضوع «بحر واسع» وقد اكتفىٰ هنا بذكر كمال وحكمة أفعال الله، مشيرًا إلىٰ نصوص أخرىٰ[1].

في حين يرىٰ الفلاسفة تردد الله بين شعورين متعارضين زيغًا، لم يهتم ابن تيمية بذلك؛ لأنَّ الطريقة المتبعة في القرآن والسنة بالحديث عن الله تجذب قلوب البشر أكثر، فهي أكثر إقناعًا وملاءمة لإرشادهم. الله خالق كل شيء، قضىٰ بوجود الشر فلا إله إلا هو، ومن وجه آخر، أرسل الرسل وأوحىٰ بالشرائع. فهو لا يفتأ يحب المعروف ويأمر به ويكره المنكر ويحرمه. وبدلًا من أن يؤكد ابن تيمية التناقض مثلما فعل فخر الدين الرازي (المتوفىٰ سنة ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م)[2]، يذكر الحكمة من ذلك بأسلوب ابن سينا[3]. وتَثبُت تلك الحكمة في عينيه عندما يتبع الذنب التوبة، فيفرح الله بها؛ أما بالنسبة لباقي الأمور فيجب أن تكون تلك الحكمة ضالة إيمان المؤمن.

---

(١) في هذا الصدد راجع: J.N. BELLM Love, 67-73. J.R. HOOVER, Theodicy

(٢) راجع علىٰ سبيل المثال: F. D. AL-RAZI. Matalib, viii. 118.

يشرح القرآن في آيات عدة أنَّ العبد هو عامل وأسباب وصانع ومُنشئ ومُنتج.

(٣) بالحديث عن العدالة الإلهية عند ابن سينا؛ راجع:

Y. MICHOT, Destinée, Mamluk I, 156 n. 24, J. R. HOOVER, Theodicy.

**«أنا لا أتردد...»!**

سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن الحديث القدسي، الذي يروىٰ فيه عن الله ﷻ: «وَمَا تَرَدَّدْت عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ»(١) ما معنىٰ تردد الله؟

فأجاب: هذا حديث شريف، قد رواه البخاري من حديث أبي هريرة، وهو أشرف حديث روي في صفة الأولياء، وقد ردَّ هذا الكلام طائفة، وقالوا: إنَّ الله لا يوصف بالتردد، وإنما يتردد من لا يعلم عواقب الأمور، والله أعلم بالعواقب، وربما قال بعضهم: إنَّ الله يعامل معاملة المتردد.

التحقيق: أنَّ كلام رسوله حق، وليس أحد أعلم بالله من رسوله، ولا أنصح للأمة منه، ولا أفصح ولا أحسن بيانًا منه، فإذا كان كذلك؛ كان المتحذلق والمنكر عليه من أضل الناس وأجهلهم وأسوئهم أدبًا، بل يجب تأديبه وتعزيره، ويجب أن يصان كلام رسول الله ﷺ عن الظنون الباطلة والاعتقادات الفاسدة(٢).

---

(١) خاتمة حديث «النوافل».

(٢) هذا الوفاء للنبوة من ابن تيمية بعيد جدًا عن رغبة بعض المتأخرين بتجديد الإسلام بالعودة للقرآن فقط، تاركين الأحاديث. كما أنَّه يتناقض تناقضًا صارخا أيضًا مع تكبر أهل الكلام القدماء أو الجدد، الذين يتصورون أنَّ تفسيراتهم المجازية والمعقدة «المعادية لحرفية النص» التي يسمونها «تجسيما»، النصوص الشرعية قد تكون طريقة فضلىٰ للتحدث عن الله للبشر وأيضًا طريقة أكثر احترامًا لله: «عذرًا إلهنا، نحن نؤمن بك وبرسلك، لكن في الحقيقة لدينا ما هو أفضل، كان يجب أن تقول كذا وكذا بدل أن تقول كذا أو أن تقوله بتلك الطريقة، وبما أنك لم تقله بهذه الطريقة فنحن سنقوله عنك...!»=

## ما هو التردد؟

إن كان تردده في الأمر لأجل كونه لا يعلم عاقبة الأمور؛ لا يكون ما وصف الله به نفسه[1] بمنْزلة ما يوصف به الواحد منا[2]، فإن الله ليس كمثله شيء؛ لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

ثم إنّ هذه [الفكرة] باطلة[3]. فإن الواحد منا يتردد تارة لعدم العلم بالعواقب، وتارة لما في الفعلين من المصالح والمفاسد، فيريد الفعل لما فيه من المصلحة، ويكرهه لما فيه من المفسدة، لا لجهل منه بالشيء الواحد الذي يحب من وجه ويكره من وجه؛ كما قيل:

الشَّيْبُ كُرْهٌ وكُرْهٌ أَنْ أفَارِقَهُ * فاعْجَبْ لِشَيْءٍ عَلَىٰ البغضاءِ محبوبُ

وهذا مثل إرادة المريض لدوائه الكريه، بل جميع ما يريده العبد من الأعمال الصالحة التي تكرهها النفس هو من هذا الباب[4]، وفي الصحيح:

---

=حفظَنا الله من مثل وجهات النظر التفسيرية هذه، التي يرىٰ فيها ابن تيمية تكبرًا وقلة أدب! راجع علىٰ سبيل المثال: ج. ف. حداد، Refutation، ومقدمة م. عفيفي العتيقي.

(١) المقصود هنا صفة التردد.

(٢) بالنسبة لابن تيمية؛ فمن الخطأ الادعاء بأنَّ صفات الله مشابهة لصفات العباد. إنما يتوجب فهمها بالطريقة التالية: «يتلقىٰ الخلق صفاتٍ هي بالنسبة لهم، كهذه الصفات بالنسبة لله».
(Dar, v. 81, see also Dar, trans. MICHOT, Mamluk II, 353-358, above, p. 7-8).

(٣) أي: رأي أنَّ المرء لا يتردد إلا عندما لا يعلم النتائج.

(٤) بالنسبة لابن تيمية؛ تتضمن الحياة الدينية كفاحًا داخليًا مستمرًا بين السعي للكمال و«النفس الأمارة بالسوء» التي تكره الكمال. وغالبًا وللضرورة تحدث مساومات (القبول ببعض متطلبات هذه الروح الدنية) لتحرير النفس منها. وهكذا: فأحيانًا من غير الممكن أن يحظىٰ المرء بحياة علم أو تقىٰ إلا إذا كانت الروح تجري في نوعٍ من الرهبانية، علىٰ=

«حُفت النار بالشهوات، وحُفت الجنة بالمكاره»[1]، وقال تعالىٰ: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢١٦)[2].

ومن هذا الباب يظهر معنىٰ التردد المذكور في هذا الحديث. فإنه قال: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ»[3]، فإن العبد الذي هذه حاله صار محبوبًا للحق محبًا له[4]، يتقرب إليه أولًا بالفرائض وهو يحبها. ثم اجتهد في النوافل التي يحبها الله ويحب فاعلها، فأتىٰ [العبد] بكل ما يقدر

---

=نقيض السنة الإسلامية؛ راجع: MF, trans. MICHOT, Célibataire, 186

أقر ابن تيمية أنَّ مسعىٰ المشروع الأسمىٰ غالبًا يستلزم بعض التنازلات للوضع الأدنىٰ من الروح، ككلفة أخلاقية أقل من كلفة هجر المشروع المذكور، مما سمح لابن تيمية شرح وفهم ليس فقط ضلال بعض الأمراء أو غضب بعض المجاهدين، إنما أيضًا علىٰ ما يبدو عدم زواجه؛ راجع: Y. MICHOT, Célibataire, 185-87

لكن عندما ادعىٰ الصوفيون تشجيع الموسيقىٰ والرقص والسكر مدعين فائدتها في عودة الناس للدين والمضي بهم إلىٰ النشوة، رفض العلماء مبدأهم في اختيار الشر الأقل؛ راجع: MF, trans. Haschich. See also below, p. 263-69.

(١) راجع: صحيح مسلم، كتاب الجنة، المجلد الثامن (١٤٢-١٤٣)؛ ومسند ابن حنبل، المجلد الثاني (٢٦٠).

(٢) في الحقيقة اقتبس ابن تيمية فقط بداية الآية وأشار للبقية بـ «... إلىٰ نهاية الآية».

(٣) منتصف حديث النوافل.

(٤) يؤكد القرآن والسنة النبوية بوضوح حب الله لعباده وحبهم له. لكن هناك عدد كبير من علماء مذهب الكلام العقل من الجهمية والمعتزلة وغيرهم ممن لم ير في هذا الحب إلا تجسيمًا، وشككوا فيه. لكن علىٰ النقيض بالنسبة لابن تيمية؛ فالحب صفة أساسية للعلاقة بين الله والبشر، وحب الله أساس الدين؛ راجع: J. N. BELL, Love.

عليه من محبوب الحق، فأحبه الحق لفعل محبوبه من الجانبين[1]، بقصد اتفاق الإرادة بحيث يحب ما يحبه محبوبه ويكره ما يكرهه محبوبه[2]، والرب يكره أن يسوء عبده ومحبوبه، فلزم من هذا أن يكره الموت ليزداد من محاب محبوبه. والله ﷻ قد قضىٰ بالموت، فكل ما قضىٰ به فهو يريده ولا بد منه. فالرب مريد لموته لما سبق به قضاؤه، وهو مع ذلك كاره لمساءة عبده، وهي المساءة التي تحصل له بالموت هذه الحالة. فصار الموت مرادًا للحق من وجه مكروهًا له من وجه، وهذا حقيقة هذا التردد وهو: أن يكون الشيء الواحد مرادًا من وجه مكروهًا من وجه، وإن كان لا بد من ترجح أحد الجانبين، كما ترجح إرادة الموت؛ لكن مع وجود كراهة مساءة عبده، وليس إرادته لموت المؤمن الذي يحبه ويكره مساءته، كإرادته لموت الكافر الذي يبغضه ويريد مساءته.

## صنفان من القدرة الإلهية.

ثم قال ابن تيمية فيما يتعلق بهذا الموضوع - بعد كلام سبق ذكره - أن ما يقع في الوجود من الكفر والفسوق والعصيان، فإنَّ الله تعالىٰ يبغض ذلك ويسخطه، ويكره وينهىٰ عنه، وهو سبحانه قد قدره وقضاه وشاءه بإرادته

---

(١) الجملة ليست واضحة تمامًا. ربما قصد ابن تيمية بالجانبين الفراض والنوافل، أو قصد بالجانبين الأعمال الصالحة التي يقوم بها العبد وتجنبه للأعمال السيئة.

(٢) بالنسبة لابن تيمية؛ فإنَّ الكمال الروحي لا يتضمن «الاتحاد» الوهمي مع الألوهية بفناء النفس، إنما باتفاق إرادة العبد مع إرادة الله، كما يظهر في الوحي، بممارسة خلقه؛ راجع:
MF, trans. MICHOT, Textes I, 6, and below, p. 127.

الكونية، وإن لم يرده بإرادة دينية، وهذا فصل الخطاب فيما تنازع فيه الناس: من أنه سبحانه هل يأمر بما لا يريده؟[1]

فالمشهور عند المتكلمة أهل الإثبات ومن وافقهم من الفقهاء أنه يأمر بما لا يريده[2].

وقالت القدرية[3] والمعتزلة[4] وغيرهم: إنه لا يأمر إلا بما يريد[5]، والتحقيق: أنَّ الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادة دينية شرعية، وإرادة كونية

---

(١) أو بعبارة أخرىٰ: هل خلق الله الكفر والفسوق، أو بعموم أكثر هل خلق الذنب والشر؟
F. D. AL-RAZI (Matalib, viii. 118).
يلخص لب المشكلة بدقة: «إذا قلنا بأنَّ السوء المتجمع في بعض أفعال العبيد لا ينتج إلا لأنَّ الله خلقه، فنحن ندل عليه تعالىٰ، بصفة القدرة؛ ولا ندل عليه من وجه الحكمة. أما إذا قلنا أنَّها ليست من الله تعالىٰ، فنحن ندل علىٰ عظمته فيما يتعلق بحكمته لكن لا نعلن ذلك فيما يتعلق بقوته».

(٢) أي أنَّ الله خلق أمورًا حرمها، مثل الكفر والذنب... إلخ.

(٣) هم المؤمنون بقدرة وقوة الإنسان للقيام بأعماله.

(٤) من أتباع المذهب العقلي، أسس مذهبهم الخليفة المأمون العباسي (المتوفىٰ سنة ٢١٨هـ/ ٨٣٣ م) عام ٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م؛ راجع: D. GIMARET, EI[2], art. 'Mu'tazila.
«للمعتزلة ٥ أسس. وهم يسمون أنفسهم: «معلني «التوحيد» و«العدل» الإلهي و«المنزلة بين منزلتين» و«تنفيذ الوعد» و«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»... المقصود بالعدل وفقًا لهم يتبع ما يقتضيه القدر الإلهي، أي خلق أعمال العباد، المشيئة الإلهية بالأمور الحاصلة وقدرته الطاغية علىٰ ما سواها. من بينهم من رفض المعرفة الإلهية المسبقة والكتاب».
IBN TAYMIYYA, MF, xiii. 386, trans. MICHOT, Textes N.S. VIII. 2-3.
راجع أيضًا: Dar'. trans. MICHOT, Vanités, 604.

(٥) حيث يقولون: إنَّ الله لم يخلق الكفر والشر... إلخ. إنما صدرت من الإنسان.

قدرية[1].

فالأول كقوله تعالىٰ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ (البقرة:١٨٥)، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ (المائدة:٦)، وقوله تعالىٰ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:٢٦ - ٢٧)[2]، فإن الإرادة هنا بمعنىٰ المحبة والرضىٰ وهي الإرادة الدينية. وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦).

وأما الإرادة الكونية القدرية فمثل قوله تعالىٰ: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام:١٢٥)، ومثل قول المسلمين: «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن». فجميع الكائنات داخلة في هذه الإرادة والمشيئة. لا يخرج عنها خير ولا شر، ولا عرف ولا نكر. وهذه الإرادة والمشيئة تتناول ما لا يتناوله الأمر الشرعي. وأما الإرادة الدينية فهي مطابقة للأمر الشرعي لا يختلفان.

### الواقع الديني والواقع الكوني.

وهذا التقسيم الوارد في اسم «الإرادة» يرد مثله في اسم كلمات أخرىٰ

---

(١) فيما يتعلق بإرادتي الله بحسب ابن تيمية؛ راجع: J. R. HOOVER, Theodicy, 125-129

(٢) في الحقيقة: اقتبس ابن تيمية هنا فقط البداية والنهاية من هاتين الآيتين.

مثل «الأمر» و«الكلمات» و«الحكم» و«القضاء» و«الكتاب» و«البعث» و«الإرسال» ونحوه. فإن هذا كله ينقسم إلىٰ: كوني قدري، وديني شرعي.

والكلمات الكونية هي التي لا يخرج عنها برٌّ ولا فاجر، وهي التي استعان بها النبي ﷺ بقوله: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر»[1]، قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (يس:٨٢).

وأما الدينية؛ فهي الكتب المنزلة التي قال فيها النبي ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[2] وقال تعالىٰ: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾ (التحريم:١٢)[3].

وكذلك «الأمر» الديني كقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ (النساء:٥٨)، أما الكوني فكما في الآية: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (يس:٨٢).

و«البعث» الديني كقوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ (الجمعة:٢)، والبعث الكوني كما في الآية: ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ ﴾ (الإسراء:٥).

و«الإرسال» الديني كقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾

---

(١) راجع: مسند ابن حنبل، المجلد الثالث (٤١٩)؛ راجع أيضًا:
Y. MICHOT, Textes II, 10.

(٢) راجع: صحيح البخاري، كتاب العلم، المجلد الأول (٣٧)؛ وصحيح مسلم كتاب الإمارة، المجلد السادس (٤٦)؛ ومنسد الإمام أحمد ابن حنبل، المجلد الرابع (٣٩٢).

(٣) يرىٰ ابن تيمية في هذه الآية تلميحًا لكلمات الله الوجودية؛ راجع:
MF, trans. MICHOT, Textes II, 10.

(التوبة:٣٣)، والكوني: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ (مريم:٨٣).

وهذا مبسوط في غير هذا الموضع[1]، فما يقع في الوجود من المنكرات هي مرادة لله إرادة كونية، داخلة في كلماته التي لا يجاوزهن «بَرٌّ ولا فاجر».

وهو سبحانه مع ذلك لم يردها إرادة دينية، ولا هي موافقة لكلماته الدينية. ولا يرضىٰ لعباده الكفر، ولا يأمر بالفحشاء، فصارت له مكروهة من وجه.

## حكمة القضاء الإلهي.

ولكن هذه ليست بمنزلة قبض المؤمن فإن ذلك يكرهه، والكراهة مساءة المؤمن، وهو يريده لما سبق في قضائه له بالموت فلا بد منه، وإرادته لعبده المؤمن خير له ورحمة به. فإنه قد ثبت في الصحيح: «إن الله تعالىٰ لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، إنْ أصَابتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكان خَيرًا لهُ وإنْ أصَابتهُ ضَرَّاءُ صَبرَ فكان خَيرًا لهُ»[2].

وأما المنكرات فإنه يبغضها ويكرهها، فليس لها عاقبة محمودة من هذه الجهة إلا أن يتوبوا منها فيرحموا بالتوبة، وإن كانت التوبة لا بد أن تكون مسبوقة بمعصية، ولهذا يجاب عن قضاء المعاصي[3] علىٰ المؤمن بجوابين،

---

(١) راجع علىٰ سبيل المثال: MF, trans. MICHOT. Textes II, 10، فهو أكمل.

(٢) راجع: صحيح مسلم، قسم الزهد، المجلد الثامن (٢٢٧)؛ ومسند الإمام أحمد بن حنبل، المجلد السادس (١٥).

(٣) حرفيًا: «القضاء [الإلهي] لـ...» فيما يتعلق بهذا الحديث الشريف بأنَّ الله لا يقضي بشيء=

أحدهما: أنَّ هذا الحديث لم يتناولها وإنما تناول المصائب. والثاني: أنَّه إذا تاب منها كان ما تعقبه التوبة [خيرا](1)، فإن التوبة حسنة، وهي من أحب الحسنات إلىٰ الله، والله يفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه أشد ما يمكن أن يكون من الفرح. وأما المعاصي التي لا يتاب منها فهي شر علىٰ صاحبها، والله سبحانه قدر كل شيء وقضاه؛ لما له في ذلك من الحكمة، كما قال: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (النمل:٨٨)، وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ (السجدة:٧)، فما من مخلوق إلا ولله فيه حكمة.

ولكن هذا بحر واسع قد بسطناه في مواضع(2)، والمقصود هنا: التنبيه علىٰ أن الشيء المعين يكون محبوبًا من وجه مكروهًا من وجه، وأن هذا حقيقة التردد، وكما أن هذا في الأفعال فهو في الأشخاص.

والله أعلم!



=للمؤمن إلا وفيه خير له، السؤال الذي يعترضنا هنا هو في الواقع يدور حول تقديره وقضاءه بذنوب المذنبين.

(١) بمعنىٰ آخر: «له أثر رجعي جيد». بالبحث في هذا، كيف لا نستذكر رأي ابن سينا بأنَّ الشر في الخلق «ليس صافيًا إنما العكس، فهو يحدث بحكمة ولفائدة محددة؛ ولذلك ومن وجهة نظر أخرىٰ فهو في حقيقته خير». النص مترجم من:
Y. MICHOT, Destinée, 63-64, n. 21.

(٢) حول مذهب ابن تيمية فيما يتعلق بالغرض الحكيم لله؛ راجع:
J.R. HOOVER, Theodicy.

# الفصل السادس:
# هل للبشر حقوقٌ على الله؟
# (الصفحات III، ٢٠٠٠)

من الجيد في عصر الحقوق الإنسانية هذا استذكار أنَّ أحد أقدم الأطروحات الروحانية الإسلامية التي كتبها أحد أئمة الصوفية الحارث المحاسبي (بصرى ١٦٥/ ٧٨١ - بغداد، ٢٤٣/ ٨٥٧) كان بعنوان: **الرعاية لحقوق الله**[١]. هنالك بالفعل حقوق لله على عباده يجب عليهم احترامها وإطاعتها، وخاصة عبادته وعدم الإشراك به شيئًا. وقد يتساءل المرء هل للإنسان على الله بعض الحقوق؟ اختلف علماء الدين الإسلامي الأصوليون في إجابة هذا السؤال. بالنسبة لابن تيمية وفي النص المترجم عن هذا الموضوع[٢]، كان جوابه هو «نعم» و«لا» بالوقت نفسه. حيث تتبع الإجابة في كلتا الحالتين ما يقصده المرء بالتحديد.

لا: ليس للناس على الله أي حق إذا نظر المرء لهذه الحقوق كما ينظر لحق الإنسان على نظيره الإنسان. إذًا فإنَّ حياة التقوى والمعرفة والفضيلة لا

---

(١) راجع: أ. هـ. محمد، محاسبي. A. H. MAHMUD, Muhasibi

(٢) هذا النص من كتاب: IBN TAYMIYYA, MF, i. 213, 1. 12-218, 1. 8

تلزم الله بأي شيء ولا تضمن بأي حال من الأحوال دخول الجنة فالدين ليس صفقة تجارية. لا نقوم في الحياة الواقعية بأي أمر صالح إلا لأنَّ الله تفضل علينا بالإيمان وبنعمة عمل ذلك العمل الصالح، وأضف إلىٰ ذلك فلا يدخل الجنة أحدٌ بعمله فقط، إلا أن يتغمده الله برحمته ومغفرته. وهنا تقبع إحدىٰ الاختلافات بين الخالق والمخلوقات. وهناك اختلافات أخرىٰ اغتنم ابن تيمية الفرصة للتحدث عن ستٍّ منها.

**نعم:** للبشر - أو للمؤمنين الأتقياء علىٰ وجه الدقة - رغم ذلك بعض الحقوق علىٰ الله، وهي: إنجاز وعوده والعون للنصر والتغمد بالرحمة والنجاة من العذاب وألا يظلمهم... لكن سبب هذا ليس إمكانية «انتزاع» هذه الحقوق من الله، إنما - وبسبب حكمته ورحمته وعدله -؛ فرضها علىٰ نفسه تفضلًا.

يعني الإسلامُ الإيمانَ بالأفضلية المطلقة لله، أي أنَّه مصدر كل خير نقوم به، وهو أيضًا مصدر كل «حق» لنا عليه. وعلاوة علىٰ ذلك فالإسلام نداءٌ متجدد للعمل باستمرار، هو بالنسبة للمسلمين وضع أنفسهم في حالة استفادة عمليًا من حقوقهم كعبيد لله حتىٰ آخر نفس، وذلك من خلال حياة تملؤها الفضيلة والإيمان.

### رحمة الله وعدله.

يقول البعض أنَّ الله وصف نفسه بالرحمة فألزم نفسه بحقها لعباده المؤمنين، كما حرم الظلم علىٰ نفسه تمامًا. أي أنَّ ذلك لم يفرضه عليه أي مخلوق ولا يمكن تمثيله بالقياس مع مخلوقاته. بل - وعلىٰ النقيض من

ذلك - فإنَّه نتيجة لرحمته وحكمته وعدله أن كتب علىٰ نفسه الرحمة وحرم الظلم علىٰ نفسه. وهكذا يقول في الحديث الصحيح القدسي: «يا عبادي! إني حرمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته محرمًا بينكم، فلا تظالموا»[1]، وقال أيضًا ﷻ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام:٥٤). وقال أيضًا: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم:٤٧).

وذكر في الصحيحين[2]: عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ[3] ﷺ قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ رَسُولِ اللّهِ ﷺ عَلَىٰ حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ. قَالَ: فَقَالَ: يَا مُعَاذُ! أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللّهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ وما حقُّ العبادِ عَلَىٰ الله؟ قَالَ قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللّهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوا اللّهِ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللّهِ ﷻ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا». فتبعًا لهذا الحديث: فإنَّ لعباد الله المستقيمين ورسله عليه ﷻ حقًّا فرضه علىٰ نفسه بإخبارنا به[4]. وطبقًا لهذا[5]، فلهم حق تحقيق ما أخبرنا به حتىٰ لو لم يكن هناك أي سببٍ يقتضيه حصول ذلك الحق.

---

(١) هذه بداية حديث رواه أبو ذر الغفاري؛ راجع: صحيح مسلم، كتاب البر، المجلد الثامن (١٧).

(٢) راجع: صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، المجلد الثامن (٦٠)؛ وصحيح مسلم، الإيمان، المجلد الأول (٤٣).

(٣) وهو معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي (توفي في دمشق سنة ٦٣٩م/١٨هـ)، من صحابة النبي ﷺ، ومن القراء المشهورين للقرآن؛ راجع: ابن الأثير، أسد الغابة، المجلد الرابع (٣٧٦-٧٨).

(٤) أي: لن يعذبهم الله إن عبدوه ولم يشركوا به شيئًا.

(٥) أي: طبقًا للآية (٥٤) في سورة الأنعام: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾.

**عبادة الله لا تستلزم عليه أية حقوق.**

لا يملك المخلوق حقًا علىٰ خالقه يمكنه مطالبته به، فكما ذُكر «أنَّ داود عليه السلام قال لله تعالىٰ: بحق آبائي عليك، إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: يا داود، وأي حق لآبائك علي؟»، وذلك صحيح إذا فهم المرء أن المخلوق ليس له حقوقٌ علىٰ خالقه، وذلك بالنظر للحق كنظير له بين المخلوقات، حقٌ يقتضي الضرورة علىٰ بعضهم، تمامًا كما يظن بعض الجهال من العباد أنَّهم يملكون حقوقًا علىٰ الله تعالىٰ بالتزامهم بعبادته!! وهذا لأنَّ الأرواح في زمن الجاهلية[1] يتهيأ لها أنَّ الإنسان بعبادته ومعرفته يستحق بعض الحقوق من الله كالتي يستحقها من المخلوقات. قس هذا علىٰ نمط من يخدمون ملوكهم وأسيادهم جاذبين لأنفسهم ما ينفعهم ودافعين عنها ما يؤذيهم. يقف بعضهم ليدعي أنَّه عوض وأعاد تعويض خدماته، ويقول للآخرين بعد أن تساء معاملتهم من أسيادهم أو عندما يرونهم يبتعدون عنهم: «لماذا لم تعملوا هكذا؟» هم يتصورون أنَّ ما قاموا به إحسانٌ منهم. وإن لم يقولوها باللسان فهي مستقرة بخلدهم.

وتصورُ ذلك عن الله ينتج عن جهل الإنسان وظلمه، ولذلك شرح لنا الرسول ﷺ أنَّ الخير الذي يقوم به الإنسان يعود له وأنَّ الله غني عن خلقه. وهو مطابق لقوله تعالىٰ: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ ﴾ (الإسراء:٧)، وقال أيضًا: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ

---

(١) الفترة التي سبقت الإسلام.

بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت:٤٦). وقال أيضًا: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ ﴾ (الزمر:٧). وقال: ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ (النمل:٤٠). وقال تعالىٰ في قصة موسىٰ عليه السلام: ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ (إبراهيم:٧ – ٨)، وقال: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ ﴾ (آل عمران:١٧٦)، وقال: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران:٩٧).

ولقد أوضح أيضًا جل جلاله أنَّ عمل الإنسان الخيرَ هبة من الله. حيث قال: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (الحجرات:١٧)، وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحجرات: ٧ – ٨).

وجاء في الحديث القدسي الشريف[1] عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني

---

(١) ذكرت تتمة الحديث القدسي الذي رواه أبو ذر الغفاري أعلاه في هذا الفصل. راجع أيضًا: مسند الإمام ابن تيمية، المجلد الخامس، ص (١٥٤) (النسخة الإنجليزية).

أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر لكم ذنوبكم جميعا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منهم مسألته ما نقص ذلك عندي إلا كما ينقص المِخيط إذا دخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله ﷻ. ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه» رواه مسلم[1].

## ستة اختلافات بين الخالق والمخلوقات.

هناك بين الخالق والمخلوق بعض الاختلافات لا يعمىٰ عنها كل ذي بصيرة.

فمثلًا هناك حقيقة أنَّ الله تعالىٰ غني بنفسه عن غيره، ومن المستحيل أن يكون بحاجة إلىٰ غيره تحت أي ظرف. وعلىٰ النقيض من ذلك فالملوك وأرباب العبيد لهم حاجة بغيرهم، وهم بحاجتهم بالضرورة.

(١) هنا تشبيه لعظم ما يحويه البحر من ماء مقارنة مع ما يمكن أن يعلق بالإبرة.

وهناك حقيقة أنَّ الله ﷻ بالرغم من حبه للأعمال الصالحة إلا أنَّه يرضىٰ بل ويفرح بندم عبده علىٰ معصية اقترفها عائدًا إليه راجيًا مغفرته وهو - خالق كل شيء - يجعل ذلك يسيرًا. وهذا الأمر الذي يحبه ويرضىٰ عنه لا يحدث إلا بقدرته وإرادته. هذا واضح طبقًا لمذهب أهل السنة والجماعة من المؤمنين، الذين يعترفون بأنَّ الله هو من يلقي نعمة الإيمان علىٰ عباده، ويختلف هذا كثيرًا عند أنصار القدرية[1]. وعلىٰ النقيض من ذلك فما يحبه المخلوق لا يحدث معه إلا من خلال عمل شخص آخر.

وهناك حقيقة أخرىٰ أنَّ الله تعالىٰ أمر عباده بما هو خير لهم وحرَّم عليهم ما يفسدهم، فكما قال قتادة[2]: «إن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليهم، ولا ينهاهم عما نهاهم عنه بخلًا عليهم، بل أمرهم بما ينفعهم ونهاهم عما يضر بهم». وهذا يختلف عن المخلوق المنقاد للآخرين وهو بحاجتهم ويحرم عليهم ما يحرم بخلًا منه. وهو مؤكدٌ في مذهب السلف وأتباع السنة الذين يؤكدون حكمة الله ورحمته ومن يقول أنَّه لم يأمر عباده إلا بالخير وما فيه نفع لهم وأنَّه لم يحرم عليهم إلا الشر وما فيه ضرهم. لكن

---

(١) القدرة هنا تعني سيطرة الإنسان علىٰ أفعاله، أي حرية الإرادة؛ راجع:
J. VAN Ess, E12, art .
«القدرية». مقارنة مع:
IBN TAYMIYYA, Wasita, trans. MICHOT, Intermédiaires, 10.
«في الحقيقة فطبقًا لأهل السنة؛ فإنَّ الله هو من يعطي نعمة عمل الخير، في حين وطبقًا للقدريين؛ فإنَّه يمنح القوة للقيام بشيء ما أو يسلبها».

(٢) المفسر والتقليدي للبصري (٦٠/ ٦٨٠ - ١١٧/ ٧٣٥)؛ راجع: Ch. PELLAT, EI$^2$, art قتادة.

يختلف الأمر عند أنصار الجبر الإلهي (الجبرية)(١) الذين يقولون أنَّ الله يستطيع أمر عباده بما فيه ضرهم ويحرم عليهم ما فيه نفعهم.

وبالمثل فإنَّ الله تعالىٰ هو من أنعم علينا بنعمة الرسل والرسالات، وهو من وهبنا القدرة علىٰ الفعل بالمشاعر وبباقي الأمور التي تنتجها المعرفة والفعل الفضيل وأنَّه هو من أرشد عباده، لا قادر إلا هو. فلهذا السبب يقول أصحاب الجنة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ ﴾ (الأعراف:٤٣) فالمخلوقات عاجزة عن أي شيء من ذلك.

وهناك حقيقة أنَّ النعم التي ينعم الله بها علىٰ عباده أعظم من أن تحصىٰ. ومهما عبد الإنسان الله فلن يوفيه نعمه التي أنعم بها عليه، فالعبادة لا تكفي تقدير تلك النعم. فكيف إذا كانت عبادته هي إحدىٰ نعمه علينا؟

وأخيرًا؛ هناك حقيقة أنَّ العباد بحاجة دائمة لعفوه ومغفرته. في الحقيقة لا يدخل أحد الجنة بعمله، كما لا يوجد أحد بلا ذنوب فلا يحتاج مغفرة الله؛ ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ (فاطر:٤٥).

لا تتناقض كلمات النبي محمد ﷺ: «لن يدْخل أحد مِنكُم الْجنَّة بِعَمَلِهِ» مع كلامه تعالىٰ: ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة:١٧)؛ فما نفي في

---

(١) مجبر أو جبري هي أسماء أعطيت لهم من خصومهم، وطبقًا لهم فهم «ينكرون قدرة الإنسان علىٰ التصرف بمنطقه، وينسبون التصرفات لله فقط»؛ الأشاعرة بالذات؛ راجع:
A. F. AL-SHAHRASTANI, Milal, trans. GIMARET-MONNOT, Religions, i. 290-303, W. MONTGOMERY WATT, EI[2], art.
«الجبرية».

الحديث نفي في الواقع بحساب التكافؤ في العمل والأجر، كما يقول المرء مثلًا: «أبيع هذه بكذا». وما يذكر في مثل هذه النصوص القرآنية هو على النقيض تأكيد لتبيان السبب، وليس التكافؤ.

وهكذا فالعمل لا يكافئ الجائزة، بالرغم من كونه سببًا لكسبها. ولذلك من يظن أنَّه أنجز ما عليه وأنّه ليس بحاجة لمغفرة الله تعالىٰ ورحمته فهو في ضلال. وهذا ثبت في الصحيح[1] عن النبي ﷺ أنَّه قال: «لن يدخل أحد الجنة بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضلٍ». وروي: «بمغفرته». وبالمثل في الحديث المروي في السنن[2] وطبقًا لما قاله أُبي رضي الله عنه: «لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالمٍ لهم ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم»[3].

### حق العباد على الله هو ما فرضه الله على نفسه.

من يقول أنَّ للمخلوق حقًا علىٰ الله فما يقوله فيه شيء من الصواب إذا فهم المرء بذلك حقيقة ما أخبرنا الله به[4]. الله هو الصادق، ولا يخلف الميعاد؛

---

(١) راجع: صحيح مسلم، كتاب القيامة، المجلد الثامن (٤٠-١٣٩)؛ مسند الإمام ابن تيمية، المجلد الثاني (٢٥٦).

(٢) راجع: سنن أبو داوود، باب السنن، المجلد الرابع (٢٢٥)، رقم الحديث (٤٦٩٩)؛ وسنن ابن ماجه، المقدمة، المجلد الأول (٣٠)، رقم الحديث (٧٧)؛ ومسند ابن حنبل، المجلد الخامس (٨٣-١٨٢).

(٣) لم يذكر ابن تيمية نهاية الحديث، لكنه كتب ببساطة: «... حتىٰ نهاية الحديث».

(٤) أي: حقوق الرحمة وغياب الظلم التي فرضها الله علىٰ نفسه لعباده المؤمنين؛ راجع:=

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ (آل عمران:٩)، وقال أيضًا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ (الرعد:٣١)، ﴿ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ (الزمر:٢٠). وأنَّه هو من فرضها علىٰ نفسه استنادًا إلىٰ حكمته وكرمه ورحمته.

والإنسان المتلمس فضل الله يستفيد من هذه الحقوق[١] عندما يستجيب لأوامر الله تعالىٰ؛ استنادًا إلىٰ الحق المذكور ويطلب من الله تعالىٰ أن يؤتيه ما وعده. أو يذكر طلبه له استنادًا إلىٰ الأسباب، مثل الأعمال الصالحة التي جعلها الله مسببات ملائمة. كما أنَّ البعض لا يستفيد من هذا الحق[٢]، عندما يطلب من الله استنادًا لحق غيره، أي كما لو أنَّه يطلب طلبه من الله استنادًا لمكانة شخص آخر. حسنًا هذا طلب مرفوع استنادًا لمادة غريبة عن ملتمس الطلب بحد ذاته، فهو لم يطلب طلبه من الله استنادًا إلىٰ سبب يجعل استجابة دعائه ملائمة. وأهم ما يُسأل الله تعالىٰ به هو السؤال استنادًا إلىٰ أسمائه وصفاته والتي تستلزم الأعمال التي ينجزها تفضلًا علىٰ عباده ليرشدهم ويدلهم ويساعدهم علىٰ النصر.

***

---

=بداية هذا الفصل.

(١) لكونه عبدًا مؤمنًا.

(٢) لأنَّه ليس مؤمنًا.

## الفصل السابع:

# الحب وصحة القلب
# (الصفحات ٨ و٩، ٢٠٠٠)

حب الله، والحب المدنس، والشهوانية... لطالما تمحور الجدال في الإسلام حول كلمتي «العشق والمحبة»، واتسم بعدم الدقة والالتباس. علىٰ كل حال، سواء كان المقصود هو حب الله، أو الحب بين أبناء وبنات آدم، فهناك سبل يجب اتباعها، وتوازن طبيعي (فطرة) يجب الحفاظ عليه، وهناك بعض المحرمات التي ينبغي عدم اقترافها في أي ظرف، تحت طائلة مرض الروح أو الوقوع في الخطيئة أو حتىٰ الوقوع في الشرك، وهي الخطيئة الوحيدة التي لا يغفرها الله تعالىٰ.

في عصرنا هذا المملوء بمَعارض الجنس، والتباهي بالشذوذ، والمضايقات الجنسية في العمل، ومشتهي الأطفال المتوحشين؛ فإنه يتوجب علىٰ المسلمين بكل بساطة أن يقولوا: لا، ومرة أخرىٰ: لا، حتىٰ ولو لم يكن ذلك مرضيًا للبعض، ودون الخوف من ملامة أولئك الذين يحبون اللوم. ليست جميع العلاقات مسموحة بشكل حر، ولا جميع أنواع الحب مشروعة، ولا كل التصرفات مقبولة. لا يوجد أخلاقيات جنسية - علىٰ سبيل المثال - لا

تبدأ بتدريب العينين أو اليدين، وهناك حالات يكون فيها التعفف فريضة، ويكافئ الله عليها علىٰ نحو وَافٍ.

علىٰ كل حال، فإنه لا يوجد تحريم لمجرد التحريم. وإنما هي مسألة صحة - صحة الروح، والتي تتبعها صحة الجسد - في عالم تتزاوج فيه المعاناة مع الأهواء الشهوانية. وقد وجهنا الله تعالىٰ إلىٰ محبته، وهي المبرمِج الوحيد للقلب، الذي يقيِّم أي حب وفقها، ويعاش بالانسجام معها. إن القرآن يمثل المنبه المثالي علىٰ قواعد الحكم السليم هذه، ومن ثم فيه شفاء للأرواح المدعوة إلىٰ «مأدبة الله».

يبدو أن ابن تيمية - الذي لم يتزوج أبدًا[١] - أكثر ميلًا إلىٰ التحدث حول أخطار واضطرابات الحب عوضًا عن الحديث عن الزيجات الناجحة أو العيش بهدوء جنسي. ومع ذلك، فإنه من الجدير بالذكر ومما لا يخلو من الأهمية في عصرنا أنه قام «بوضع النقاط علىٰ الحروف» في النصين التاليين[٢]، وأنه قام بذلك بولاء خالص للتوحيد.

**أ. الحب (العشق): مرض للروح.**

إن الجشع والحسد هي أمراض يتبعها - حكمًا - أن تبغض الروح ما قد

---

(١) نظر يحيىٰ ميكوت، كتابه عن ابن تيمية «الأعزب...».

(٢) إن النص (أ) هو ملخص من خاتمة فصل: أمراض القلوب وشفاؤها، من مجموع فتاوىٰ ابن تيمية، الجزء العاشر ص (١٢٩). الجزء الأول ص (١٣-١٣٦)، و ص (١٤). النص (ب) هو ملخص من مجموع الفتاوىٰ الجزء التاسع (١٤-٣١٣).

يكون مفيدًا لها، بل وأن تحب ما هو مضر لها. ولذلك؛ فإن الحسد يرتبط مع الغضب والكره. والحال كذلك في مرض الشغف (الشهوة) والحب (العشق)[1] والذي يتألف من حب[2] الروح لأشياء مضرة بها، ومع هذا المرض ترتبط تلك الحقيقة: أن الروح تنفر مما هو مفيد لها. إن الحب (العشق) هو أحد أمراض الروح والذي - عندما يشتد - فإنه يؤثر علىٰ الجسم ويصبح مرضًا جسديًا[3]، أي أنه إما أن يكون أحد الأمراض الذهنية مثل السوداوية (الاكتئاب)[4] - وهذا هو السبب الذي دفع إلىٰ القول بأنه

---

(١) في تطوير نظريات الحب، لا سيما في شعور العشق عند العرب المسلمين من الجاحظ (٢٥٥/ ٨٦٩) وحتىٰ محيي الدين الصلاتي الدمشقي (القرن ١١/ ١٧). انظر: L.A. GIFFEN، النظرية. لسوء الحظ، فإن ابن تيمية ليس بين المؤلفين العشرين المقدمين. أحد المراجع الهامة الأخرىٰ والذي يهتم بالواقع الاجتماعي أكثر من المواضيع المذهبية هو المجتمع، من تحرير عفاف لطفي السيد مرسوت. فيما يتعلق بالمواضيع الخاصة بابن تيمية وبمؤلفي الحنبلية بشكل عام؛ انظر: J.N. Bell، الحب: الفصل (٣): «الرد علىٰ الأشعرية؛ ابن تيمية»؛ والفصل (٤): «الإرادة الإلهية والحب في لاهوت ابن تيمية»؛ الفصل (٥): «ابن تيمية والحب بين الله والإنسان» (٤٦ - ٩١)؛ يوجد ترجمة إنجليزية مبسطة لأمراض القلوب وشفائها، أبو رميساء، الأمراض.

(٢) عندما تذكر الكلمات «حب»، «محب، يحب»، «محبوب»... إلخ بدون أن تكون متبوعة بمصطلح توضيحي؛ فإنها تكون مأخوذة من الجذر «حب» (محبة، حب، محب، أحب... إلخ).

(٣) انظر: الجاحظ، القيان، الترجمة. بلاط، العبيد (١٣٨): «العشق [...] هو أحد الشرور التي تؤثر في الروح وتسري في الجسد بعدوىٰ القرب.

(٤) في الاكتئاب؛ انظر: F. SAXYL E. PANOFSKY, R. KLIBANSKY، =

مـرض يـسببه الإيحـاء (الوسوسـة)، وهـو مماثـل للاكتئـاب[1] - أو أنـه أحـد أمراض الجسم، مثل الوهن، والهزال،... إلخ.

[إن الحب (العشق)] المقصود هنا هو أحد أمراض القلب. وهو في الحقيقة تعلق الروح الشديد بحب ما هو مضر لها، تمامًا كما هو حال شخص مصاب بمرض جسمي يشتهي ما هو مضر له، حيث إنه إذا لم يتناوله فإنه يعاني، وإذا تناوله فإن المرض يتنامىٰ ويقوىٰ. كذلك هو الأمر بالنسبة للمحب (العاشق): فإن كونه قريبًا من محبوبه (المعشوق) يضره، سواء بالنظر إليه، أو لمسه، أو سماعه، وحتىٰ من المؤذي له: التفكير فيه وتخيله أثناء الرغبة فيه. فإذا ما منع عنه موضع شغفه، فإنه يعاني ويتعذب؛ وإذا ما منح له فإن مرضه يشتد ويزيد من معاناته.

وفي الحديث: «إن الله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه؛ كما تحمون مريضكم من الطعام والشراب تخافونه عليه»[2].

---

=والشيطان. بحسب هؤلاء المؤلفين (انظر: ص ١٥٥ - ٥٦)، فإن إمكانية مهاجمة الاكتئاب للدماغ لا يبدو بأنها قد ميزت قبل ابن رشد.

(١) انظر: ابن الجوزي (٦٥٤/ ١٢٥٦)، كتاب ذم الهوىٰ (٢٩٠)؛ ابن قيم الجوزية (٧٥١/ ١٣٥٠)، روضة المحبين (١٥٢)؛ ابن سينا، القانون، الجزء الثاني (٨٩٨). اعتبر العشق أحد أنواع الاكتئاب من قبل المترجم والطبيب التونسي من مدرسة ساليرنو الطبية، كونستانتين الإفريقي، (١٠٨٧، مونتيه كاسينو)، وكذلك الإيراني علي بن العباس المجوسي (الفترة ما بين ٣٧٢/ ٩٨٢ و٣٨٦/ ٩٩٥) والذي الهمة؛ انظر:
R. KLIBANSKY, E. PANOFSKY, F. SAXYL.
والشيطان (١٤٩).

(٢) انظر: لمسند ابن حنبل، v.427.

في محادثته مع موسىٰ عليه السلام - المنقولة عن وهب[1] - والتي ذكرها الإمام أحمد في كتاب الزهد[2]؛ يقول تعالىٰ: «إني لأبعد أحبابي عن بهجة هـذا العـالم وعن راحته كما يبعد الراعي اليقظ جماله عـن المراعـي التي سـوف يهلكـون فيها، وإنني لأبعـدهم عـن الراحـة[3] وعـن حيـاة هـذا العـالم كمـا يبعـد الراعـي اليقظ جماله عن واحات الوهم. وإنّ ذلك ليس لأني لا أهتم بهم، ولكن لكي يحوزوا علىٰ كامل نصيبهم من كرمـي، ودون نقـص[4] لا يـشوبها هـذا العـالم، ولا تبطلها الأهواء».

إنّ شفاء مثل هذا المريض لا يمكن إدراكـه إلّا بـزوال المـرض أو بـزوال هذا الحب الملام من قلبه.

**العشق والمحبة.**

يربط الناس العشق بأمرين؛ حيث يقال بأنَّه يتعلق بالإرادة[5]، وأنّـه يمكـن

---

(١) وهب بن منبه الذماري، أبو عبد الله، والمتوفىٰ عام (٧٢٨/١١٥) أو (٧٣٢/١١٤). تابعي يمني اشتهر بحياته الزاهدة ومعرفته بالأديان ما قبل الإسلام. انظر:
R.G. Khoury. El2. art. Wahb b. Munabbih.

(٢) انظر: في كتاب الزهد لابن حنبل ص (١٣٦) (sigle Z).

(3) Sukum F: salwa Z distraction.

(4) Mawfuran Z: muwaffaran (?) F.

(٥) بمعنًىٰ آخر يتضمن العشق المُنىٰ والسعي، الرغبة والطلب لشيء أو لشخص. ولكن يطرح هذا سؤالًا عن فعالية السمة الطوعية لهذا العشق بالإرادة: هل هو مرض، فيجب علاجه بدل الحكم عليه؟ أم أنَّه مسألة اختيار فيندرج عندها تحت بند الأخلاق؟ بالنسبة لابن تيمية فرغم أنَّ هذا العشق هو في الحقيقة مرض، وأنَّ الإرادة لا تشغل دائمًا جزءًا في تكوينه (أي بما يعنيه مصطلح «ضربة الحب») فللإرادة حتمًا دور أساسي في زيادته=

تمييزه بوضوح. ويقال أيضًا بأنَّه يتعلق بالتصور، وبأنَّه خيالات ضالة، وذلك؛ لأنَّه يصور معشوقه لنفسه تمامًا كما يتصور نفسه[1]. ويقال أنَّه - ولذلك السبب - لا يوصف الله بواسطة [لفظ] «العشق»، ولا حتىٰ بحقيقة أنَّه «يعشق». هو في الحقيقة مجرّدٌ من ذلك، ولا يمكن لشخص أن يمجّد شخصًا قد يتخيل فيه خيالات معيبة.

قال بعضهم: قد يوصف الله بواسطة لفظ «العشق». والمقصود في الحقيقة المحبة الكاملة، والله يحِبُّ، ويحَبُّ[2]. وروي في أثر عن عبد الواحد بن زيد[3]، أنَّ الله قال: «لا يزال عبدي يتقرب إلي: يعشقني وأعشقه»[4]. وهذا مشابه لأقوال بعض الصوفية[5].

---

=أو الشفاء منه؛ راجع: J. BELL. Love. 125-26.

(١) انظر تعريف العشق الذي اقترحه ابن الجوزي في: كتابه ذم الهوىٰ، ص (٢٩٣): «وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الْعِشْقَ: شِدَّةُ مَيْلِ النَّفْسِ إِلَىٰ صُورَةٍ تُلائِمُ طَبْعهَا، فَإِذَا قَوِيَ فِكْرُهَا فِيهَا تَصَوَّرَتْ حُصُولَهَا وَتَمَنَّتْ ذَلِكَ فَيَتَجَدَّدُ مِنْ شِدَّةِ الْفِكْرِ مَرَضٌ».

(٢) انظر: سورة المائدة، الآية (٥٤).

(٣) الصوفي البصري، فقيه وواعظ. أستاذ أبي سليمان الداراني (المتوفىٰ ١٧٧/ ٧٩٣)؛ راجع: L. MASSIGNON. Essai. 195-96.

(٤) لم ترد هذه الرواية في أيٍ من الصحاح التسعة. رويت عن الحسن البصري؛ راجع: L. MASSIGNON. Essai. 195-96 .

(٥) إحدىٰ أفضل الشروحات الكلاسيكية لمعضلة شرعية التكلم بعشق الله فنَّدها الشيخ الصوفي الإيراني Iranian Sufi master روزبهان بقلي شيرازي (٥٢٢/١١٢٨ - ٦٠٦/١٢٠٩) في كتابه ياسمين العشاق: «لكن أخبرني: هل من الجائز استخدام كلمة «عشق» لله ﷻ؟ هل يجوز لشخص الادعاء بعشق الله؟ أليست كلمة «عشق» -في استخدام العاشقين لها-=

لكن أغلبية الفقهاء لا يتلفظون بهذا التعبير [العشق]؛ توقيرًا لله. فالعشق في حقيقته محبة مفرطة، تجاوزت حدودها الصحيحة[1]؛ أما حب الله ﷻ فليس له نهاية؛ فهو لا ينتهي عند حد لا يمكن تجاوزه. وقال هؤلاء الفقهاء أنَّ العشق مذموم، ولا يمكن مدحه؛ لا فيما يتعلق بحب الخالق، ولا حتىٰ بحب المخلوق. هو في الحقيقة فرط حبٍّ يتجاوز حدود الثناء. بالإضافة لذلك؛

---

=تعبيرًا يُصنف في تصنيف مشترك بسيط؟ هل من الجائز استخدام جمل معينة مثل «العشق لله، عشق من الله، عشق بالله، عشَّقني به الله»؟ قلت للسائل أنَّ شيوخنا يختلفون في رأيهم حول هذا الموضوع. فبعضهم رفض هذا الاستخدام في حين أجازه آخرون. لكن من أنكره يتمنىٰ حقيقةً إخفاء هذا السر عن الناس في هذه الدنيا غيرة من الخلق. أما من أجازه فيمكن للمرء رؤية صراحة عشقه واغتباطه. العاشقون والمحبوبون ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٥٤). وممن عدَّ هذا المصطلح جائزًا: عبد الواحد بن زيد، إضافة لأناس من دمشق، مثل: أبو يزيد البسطامي، وأبو القاسم الجنيد، وأبو الحسين النوري، وذي النون المصري، ويوسف بن الحسين الرازي، وأبو بكر الواسطي، والحصري، والحسين بن المنصور [الحلاج]، والشبلي».

(ROZBEHAN, «Abhar, 9-10, §21-22, trans. CORBIN - MO'IN, Jasmin, retouched by me, 121-22, §21-22).

انظر أيضًا: H. CORBIN, Islam, iii, 74-75, J. N. BELL, Love, 165-66

علىٰ نفس النمط دعم ابن سينا هذا المصطلح، حيث استشهد به وعلق علىٰ رواية عن الحسن البصري في رسالة في العشق؛ انظر: J. N. BELL, Treatise, 78

(١) مفهوم العشق هذا في الأصول الأفلاطونية الأرسطوية

(Phaedrus, 237-38, Laws, V111, 837, Ethics, VIII, 6, 1158 a).

انظر: J. N. BELL, Love, 4, 162 تداول هذا التعريف كثير من فقهاء المسلمين التقليديين.

من الجاحظ حتىٰ الغزالي وابن القيم J. N. BELL, Love, 35, 162, 166 الغزالي، إحياء، الكتاب ٣٣، III، ٩٧؛ ابن القيم الجوزية. روضة، ٣٤).

يستخدم مصطلح العشق عادةً فقط لوصف حب رجل لامرأة أو لطفل. ولا يستخدم لوصف حب قريبٍ أو حب أشياءَ أو حب وطنٍ أو مكانةٍ، ولا حتىٰ لحب الأنبياء والصالحين[1]. وكثيرًا ما يرتبط بفعل محرم، سواءً من خلال امرأة أجنبية أو طفل؛ فهو يرتبط بفكرة محرمة[2]، فيه لمسة محرمة وأفعال محرمة أخرىٰ، وإن قُصد به عشق رجل لزوجته أو جاريته[3] عشقًا يدفع

---

(١) انظر: كتاب القيان للجاحظ ومما جاء فيه: «لأنه قد يقال: إن المرء يحبُّ الله وإن الله جَلَّ جَلَالُهُ يحبّ المؤمن وإن الرجل يحبُّ ولده والولد يحبّ والده ويحبُّ صديقه وبلده وقومه، ويحبُّ علىٰ أي جهة يريد ولا يسمّي ذلك عشقًا».

(٢) معضلة التدريب والسيطرة علىٰ النظرة في الأخلاقيات الإسلامية تتجاوز السؤال الشهير للتحديق في الوجوه عند الصوفية
(shdhid-bazi. see above. p. 75. and below. p. 114-15).
يرتبط ذلك بأحد جوانبه بسؤال التفريق بين الجنسين وتحريم اللواط؛ وفي جانب آخر يرتبط بتحريم سُكر الحواس والعقل، وكل شكل من أشكال الوثنية. رغم أن أخلاقيات النظرة في الإسلام تستند إلىٰ القرآن ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٣٠ - ٣١) وإلىٰ السنة النبوية؛ إلا أنّها كانت محل جدال شديد في الإسلام التقليدي؛ انظر علىٰ سبيل المثال:
(AL-JAHIZ. Qiyan. trans. PELLAT, Esclaves, 121- 47, AL-GHAZALI. Ihya', Bk. 33. iii. 98-99. 102-04. IBN AL-JAWZI. Dhamm. 82- 146, [EN QAYYIM AL-JAWZIYYA. Rawda. chs. 6-9, 104-51, see also L. A. GIFFEN. Theory. 117-32. J. N. BELL. Love. 127-39).

(٣) كما في اليهودية القديمة، اتخاذ الإماء من النساء اللواتي سُبِينَ في الحرب أو شُرِينَ من=

بصاحبه لتجاوز حدود العدل، فيقوم لأجلهم بشيء محرمٍ، أو يترك لأجلهم واجبًا، وهذا في الحقيقة يحدث كثيرًا. وهكذا يصبح ظالمًا لابن له من زوجة سابقة بسبب عشقه الجديد، وتحقيقًا لمتطلبات السيئة الأخيرة بالقيام ببعض الأمور التي قد تؤذيه، واضعًا دينه وحياته بمرتبة أدنىٰ من ذلك العشق. فمثلًا: يخصص لها ميراثًا ليس لها حق به، أو قد يعطيه لأحد أقربائها تملكًا أو يوكله به، فيقوم بأمر يتجاوز به الحدود التي رسمها الله له. أو مجددًا قد يبالغ في نفقته عليها، أو حتىٰ يحاول الوصول لها بصفقات محرمة فيها مضرة له، ضاربًا بدينه وحياته عرض الحائط[1].

---

=السوق، فقد كان في الإسلام الكلاسيكي مشروعًا كما الزواج من امرأة حرة، وكان له تعليمات معينة؛ راجع: شهادة AL-JAHIZ, Qiyan, trans. PELLAT, Esclaves وبأكثر عمومية S. D. GOITEIN, Mores, 47 J. C. BURGEL, Love, 101-05,

(١) يفيض الأدب العربي الإسلامي بمثل هذه الزيادات. فمن بين أقدمها وأكثرها سحرًا ما ذكره الجاحظ: «والحسب والنَّسب الذي بلغ به القيان الأثمان الرغيبة إنما هو الهوىٰ... فأكثر من بالغ في ثمن جاريةٍ فبالعشق، ولعله كان ينوي في أمرها الرِّيبة ويجد هذا أسهل سبيلًا إلىٰ شفاء غليله ثم تعذَّر ذلك عليه فصار إلىٰ الحلال وإن لم ينوه ويعرف فضله فباع المتاع وحلَّ العقد وأثقل ظهره بالعُيَّنة حتىٰ ابتاع الجارية... فمن يبلغ شيئًا من الثمن ما بلغت حبشيّة جارية عوْنٍ مئة ألف دينار وعشرين ألف دينار».
(AL-JAHIZ, Qiyan, trans. PELLAT, Esclaves, 137-38, 145).
راجع أيضًا: القصة الدرامية لبيع أم حفصة التي أخبر بها ابن عبد ربه (المتوفىٰ ٣٢٨/ ٩٤٠) في كتابه: B. LEWIS, Islam, ii. 205-06
«سئل الشيخ الإمام العالم العلامة شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية -قدس الله روحه- عمن أصابه سهم من سهام إبليس المسمومة؟ فأجاب: من أصابه جرح مسموم فعليه بما يخرج السم ويبرئ الجرح بالترياق والمرهم وذلك بأمور: =

ذلك فيما يتعلق بعشق الرجل لمن يسمح له بمعاشرتها؛ فمن باب أولىٰ أن يتفكر إذًا: كيف سيكون عشقه لامرأة أجنبية عنه أو لرجال بعينهم من بين كل مخلوقات هذا العالم؟[1] ستحدث عندها - علىٰ سبيل الضلال

---

= أن يتزوج أو يتسرىٰ. قال النبي محمد ﷺ: «إِذَا أَبْصَرَ أَحَدُكُمُ امْرَأَةً فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ، فَإِنَّ ذَٰلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ». وهذا مما ينقص الشهوة ويضعف العشق.

ثانيًا: وليكثر من الدعاء بقوله: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك، يا مصرف القلوب صرف قلبي إلىٰ طاعتك وطاعة رسولك» فإنه متىٰ أدمن الدعاء والتضرع لله صرف قلبه عن ذلك، كما قال ﷻ في سورة يوسف، الآية (٢٤): ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾.

ثالثًا: أن يبعد عن مسكن هذا الشخص والاجتماع بمن يجتمع به، بحيث لا يسمع له خبرا ولا يقع له علىٰ عين ولا أثر، فإن البعد جفاء، ومتىٰ قل الذكر ضعف الأثر في القلب. فليفعل هذه الأمور وليطالع بما تجدد له من الأحوال. والله أعلم!».

(IBN TAYMIYYA, MF, xxxii. 5-6).

أ: انظر الحديث: «نظر الرجل إلىٰ محاسن المرأة سهم من سهام إبليس المسموم»

(AL-NUWAYRI, Niha'ya, ii. 131).

ب: انظر: صحيح مسلم، النكاح (iv. ١٣٠)؛ وسنن أبي داوود، النكاح (ii. ٢٤٦)، رقم (٢١٥١).

ج: انظر من بينهم: مسند ابن حنبل (iv. ٢٥١).

(١) عن اللواط في الإسلام الكلاسيكي وتحريم الدين له؛ انظر المراجع أعلاه: ص (٧٥)، الرقم (٢).

وسئل عن «الفاعل والمفعول به» بعد إدراكهما: ما يجب عليهما؟ وما يطهرهما؟ وما ينويان عند الطهارة؟ فأجاب: أما الفاعل والمفعول به فيجب قتلهما رجما بالحجارة سواء كانا محصنين أو غير محصنين؛ لما في السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»؛ ولأن أصحاب النبي ﷺ اتفقوا علىٰ=

والانحراف - أمور لا يحصيها إلا الله! وذلك سيسبب أمراضًا تفسد دين هذه الضحية وسمعته، مما قد يفسد بعدها عقله وجسده. يقول الله تعالىٰ لنساء النبي ﷺ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (الأحزاب:٣٢).

**التعفف والطمع**

عندما يقع مرضُ الشهوة والرغبة الموجهة مباشرة لصورة معينة في قلب إنسان ما، ثم يظفر بغايته؛ يزيد طمعه بها[1]، والطمع يزيد الرغبة والإصرار علىٰ الوصول إلىٰ غاية هواه، لكن مرضه يقوىٰ بذلك؛ ويحدث العكس عندما ييأس الإنسان من الوصول لغايته. حيث يوقف اليأس في الحقيقة رغبة الطمع، وبهذا يضعف شيئًا فشيئًا كما يضعف الحب في قلبه. في الواقع: لا يرغب الإنسان بالبحث عما ييأس منه. لأنَّه عندها لن يكون هنالك من فعل تمُدُّه الإرادة، إنما مناجاةٌ (حديث النفس) فقط؛ إلا إن أضيفت كلمة أو نظرة أو نحوهما بين المحبين، ونتيجة لذلك؛ يقع المرء في الإثم. وعلىٰ النقيض

=قتلهما. وعليهما الاغتسال من الجنابة وترتفع الجنابة من الاغتسال؛ لكن لا يطهران من نجاسة الذنب إلا بالتوبة وهذا معنىٰ ما روي: «أنهما لو اغتسلا بالماء ينويان رفع الجنابة واستباحة الصلاة...». (IBN TAYMIYYA, MF, xxxiv. 181-82)

انظر: سنن ابن داوود، الحدود (iv. ١٥٨)، رقم (٤٤٦٢)؛ سنن الترمذي، الحدود (iii. ٨)، رقم (١٤٨١)؛ مسند ابن حنبل (i. ٣٠٠).

(١) المزيد: المريد، ترجمة ف. ad sensum؛ يبدو النص ناقصًا.

من ذلك عندما يصاب شخص ما بالعشق، ويبقىٰ عفيفًا وصبورًا؛ يحصد جائزة خوفه ومراقبته لله. وجاء في الحديث أنَّ «مَن عشق فعفَّ فمات فهو شَهيد»[1]. هذا الحديث مشهور، كما ورد عن أبي يحيىٰ القتات عن مُجاهد

---

(١) لم يرد هذا الحديث في أيٍّ من الصحاح التسعة. ظهر للمرة الأولىٰ في كتاب الزهراء لابن داوود الأصفهاني (توفي ٢٩٧ هـ/ ٩١٠ م) وتواتر بتسلسلات مختلفة من المرسلات، الأسماء الثلاثة التي استشهد بها ابن تيمية هم كُتَّاب غالبًا ما كان يستشهد به؛ راجع: كتاب الغزالي إحياء علوم الدين، الكتاب (٣٣)، (iii. ١٠١)؛ وابن الجوزي، ذمم (٣٢٦-٣٢٩)؛ وابن القيم الجوزية، الروضة (١٩٨-٢٠١)؛ و

L. MASSIGNON, Passion, i. 409؛ وH. CORBIN, Islam, iii. 20-146؛ وL. A. GIFFEN, Theory, 99-115.

مخطط سلاسل المرسلات (١٤٩)؛ و

J. C. BURGEL, Love, 91-96 ؛J. N. BELL, Love, 133-44 ؛Treatise, 85-89.

ويتمتع هذا الحديث بانتشار واسع فقد عمل كمحفز للنوع الأدبي الملون بالعاطفة السقيمة للحب العذري (راجع: مجنون وجميل وابن داوود وابن حزم وآخرون). وبجانب ذلك فقد قام بدور في تنمية الروح الأفلاطونية في التأملات الصوفية لوجوه النساء – ابن سينا، روزبهان Ruzbehan، ابن الفارض (المتوفىٰ في القاهرة ٦٣٢ هـ/ ١٢٣٥ م)، ابن العربي – أو أكثر تواترًا عن الآحاد – السلمي، ابن سينا، ابن الأثير المقدسي، أحمد الغزالي، عين القضاة الحمداني، ابن الفارض، أوحد الدين الكرماني (المتوفىٰ سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م)، فخر الدين العراقي (المتوفىٰ في دمشق ٦٨٨/ ١٢٨٩)، عبد الرحمن بن دباغ (المتوفى ٦٩٦/ ١٢٩٦) – يفترض أن تكون تجسيدًا أو انعكاسات للجمال الإلهي. ورغم ذلك انتُقد هذا الحديث كثيرًا، وذلك بسبب احتوائه علىٰ مشاكل متعلقة بسنده. وخصوصًا في الضبط الأساسي لابن تيمية وابن قيم الجوزية في الروضة.

ومما يثير الاهتمام الموقف الذي تبناه ابن تيمية هنا لحديث شهداء العشق. فمن ناحية رفض وضعه بمكانة الأحاديث الصحيحة نظرًا للشك في إسناده. إلا أنَّه ومن ناحية أخرىٰ يكلف نفسه تشريع مادته دينيًا بتطويرها، وذلك اعتمادًا علىٰ القاعدة الوحيدة بأنَّ «بعض=

عن ابن عباس عن النبي. لكنَّه موضوع نزاع؛ فلا يمكن استخدامه كحجة شرعية.

لكن ومن الأدلة التي أيدها التشريع نعلم الآتي: عندما يبقىٰ شخص ما عفيفًا في أمور محرمة من النظر والتحدث والفعل[1]، ويكبح نفسه، ولا يتحدث عن هذه الأمور بطريقة محرمة، ولا ينطق بكلمة محرمة، سواءً بشكل

---

=أدلته يدعمها التشريع»، تحليل للحب العفيف يؤدي لصنع الشخص «المحسن»، الشخص المصاب بالحب لكنه يجاهد نفسه ألا يحمله علىٰ الخروج عن الصراط المستقيم؛ نعلم القيمة التي جعلها شيخ الإسلام لـ«الإحسان» في المسيرة الروحية. وأحيانًا يقترح ابن القيم أيضًا نظرة مشابهة بغرض «إنقاذ» هذه الفكرة، وذلك فيما يتعلق بالآيات القرآنية من سورة النازعات، الآيتان (٤٠-٤١)؛ راجع:

J. N. BELL, Love, 136.

يجب أنَّ نذكر هنا أنَّ الفقيه يقرأ هذا الحديث بمنظور عذري. لاتهامه بالتأمل الروحي للأوجه الجميلة، راجع رده الطويل علىٰ الأسئلة: عندما يلمس شخص يد شاب غير ملتحٍ، هل ذلك يبطل الوضوء كما يبطل [لمس] النساء الوضوء؟ ما يمنع من التحديق في وجه شاب جميل غير ملتحٍ؟ بعض من خالف الشريعة قالوا أنَّ التحديق في وجه شاب ليس عليه لحية هو فعل عبادة. ما هذا؟ عندما يقول شخص لهم أنَّ مثل هذا التحديق محرم يقولون: «بالنسبة لي عندما أحدق في مثل ذلك [الوجه] أقول: سبحان من صوره؟! ولا أضيف [علىٰ ذلك]» (IBN TAYMIYYA. MaF. i. 48-56. quest. 29).

راجع أيضًا: J. WAFER, Vision ؛Y. MICHOT, Musique, 75-76

(١) راجع: الجملة التي ذكرها أبو سهل عن ابن الجوزي، ذمم، ١١٦؛ «سيكون هناك في هذه الأمة قوم يقال لهم: اللوطيّون في ثلاثة أصناف: صنف ينظرون، وصنف يصافحون، وصنف يعملون ذلك العمل». كما اقتبس ذلك الغزالي في كتابه إحياء، الكتاب (٣٣)، (iii. ٩٩).

شكوىٰ لمخلوق من مخلوقات الله، أو مخالفة للآداب العامة أو أي نوع من السعي للمعشوق، أي عندما يكون صبورًا في طاعة الله دون عصيانه ويتحمل بصبر ما في قلبه من ألم العشق كما يتحمل أي مبتلىً ألمه؛ فإنَّ هذا الإنسان يعدُّ ممن يخاف الله ومن الصابرين. وبالتالي: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٩٠).

يسري الأمر أيضًا علىٰ مرض الغيرة وباقي أمراض النفس[1]، فعندما تسعىٰ النفس لشيء يكرهه الله فيمنعها صاحبها من ذلك خوفًا من الله، فإنه يندرج تحت قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾ (النازعات: ٤٠ - ٤١).

عندما تحب النفس شيئًا ما تسعىٰ للحصول عليه بكل طريقة ممكنة، وهكذا تحمل صاحبها علىٰ القيام بأمور متعددة تشكل خطوات تؤدي لذلك الشيء. ومن يحب حُبًّا ملامًا أو يكره كرهًا ملامًا ويشرع بفعل بناءً عليه فهو مذنب. ومثال ذلك: شخصٌ يكره شخصًا بسبب غيرته منه، فيؤذي أشخاصًا لهم صلة به، سواءً برفض ما لهم من حقٍ أو بأن يكون عدائيًا معهم. وشخصٌ يحب شخصًا، فيقوم بأمر محرم لأجله بسبب رغبته به. أو حتىٰ أن يقوم بأمر يأمره الله به، فيقوم به لرغبة في نفسه وليس لله.

هذه أمراض كثيرة قد توجد في نفس الإنسان. قد يكره الإنسان أمرًا، وبناءً علىٰ ذلك يكره أمورًا أخرىٰ كثيرة، نتيجة الحقيقة البسيطة للوهم

---

(١) فيما يتعلق بأمراض النفس؛ راجع أيضًا: الأطروحة الصغيرة الممتازة لأبي عبد الرحمن السلمي (المتوفىٰ ٤١٢/ ١٠٢١)، الأمراض.

والخيال. وقد يحب أمرًا وبناءً على ذلك يحب أمورًا كثيرة أخرى، وذلك نتيجة الوهم والخيال أيضًا. فذلك كما قال الشاعر:

أحبُّ لحُبِّها السودانَ حتى * أحبُّ لحبِّها سودَ الكلابِ

كان الشاعر قد أحب امرأة سوداء، ونتيجة لذلك؛ أحب كل ما هو أسود حتى سواد الكلاب! فكل هذا مرضٌ في القلب، يظهر بسبب قدرته على التصور وبسبب إرادته. نحن نسأل الله ﷻ أن يحفظ قلوبنا من كل شر، ونلجأ إليه من سوء الأخلاق والنزوات والشرور.

**مصير القلب: حب الله.**

خُلقت القلوب لحب الله فقط؛ هذه هي الفطرة التي فطر الله عباده عليها كما أخبر النبي ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟»[1]، ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ (الروم:٣٠)، وقد روى كل من البخاري ومسلم هذا الحديث[2].

---

(١) راجع: صحيح البخاري، كتاب الجنة، المجلد الثاني (٩٥)؛ وراجع: صحيح مسلم، كتاب القدر، المجلد الثامن (٥٢).

(٢) راجع: صحيح البخاري، كتاب الجنائز (ii. ٩٥)؛ وصحيح مسلم، كتاب القدر (viii. ٥٢).
سُئل [ابن تيمية] عن قصد [النبي] ﷺ بقوله: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة»؛ هل قصد فطرة الخلق أم فطرة الإسلام؟ [...] وقد أجاب: الحمد الله، بالنسبة لقول=

فطر الله ﷻ عباده علىٰ محبته وعبادته وحده. فعندما تترك الفطرة دون إفسادها يعرف القلب اللهَ ويحبه ويعبده وحده. لكن تفسد الفطرة بالمرض،

---

=النبي ﷺ: «ما من مولود إلا يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»؛ فالمقصود هو فطرة الله، طبقًا لما فطر الإنسان عليه، أي فطرة الإسلام. وهي الفطرة التي فطر الناس عليها يوم قال [لهم]: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ قالوا: ﴿ بَلَىٰ ﴾ (الأعراف:١٧٢). هي حقيقة تحررك من المعتقدات الفاسدة، وتقبلك للمعتقدات الصحيحة.

إنَّ حقيقة الإسلام هي الاستسلام الذاتي بالعودة لله، لا لسواه. هذا هو معنىٰ «لا إله إلا الله». قدَّم رسول الله ﷺ صورة عن ذلك بقوله: «كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟،» لقد شرح حقيقة: كيف يكون القلب خاليًا من العيوب، إنَّه أشبه بالجسم السليم، وذلك العيب شيء أُحدث عليه عرضيًّا (ابن تيمية، مجموع الفتاوىٰ، المجلد الرابع ص ٢٤٥).

الفطرة بالقياس إلىٰ الحقيقة أشبه بنور العيون قياسًا للشمس. فإن لم يكن هناك حجاب يحجب المرء عن الشمس فمن له عيون سيرىٰ الشمس. المعتقدات الفاسدة الآتية من اليهودية والنصرانية أو من التحول للمجوسية أشبه بحجاب يوضع أمام البصر مانعًا رؤية الشمس. ومثال آخر: فمَن أحاسيسه سليمة يحب الحلوىٰ، إلا إن حصل بعض الفساد لطبيعته حرفتها لدرجة جعلته يشعر بالطعم الحلو مرًّا.

انطلاقًا من حقيقة ولادة الطفل علىٰ الفطرة، ليس من الضروري بالتأكيد: إتباع ذلك بالقول أنَّ الناس ومنذ ولادتهم مؤمنون بالفعل بالإسلام: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ (النحل: ٧٨). لكن الفطرة السليمة للقلب تسارع وترغب للوعي الإسلامي للحقيقة. وإن تُرك القلب دون أي تبديل فلن يكون إلا مسلمًا. هذه القوة للمعرفة والفعل -والتي هي بذاتها تطلب الإسلام طالما لا شيء يمنع [ذلك]- هي فطرة الله طبقًا لما فطر الله الناس عليه» (ابن تيمية، مجموع الفتاوىٰ، المجلد الرابع ص ٢٤٧).

راجع: IBN TAYMIYYA, Fitra, trans. GOBILLOT, Epitre

كما يفعل الآباء بأطفالهم بتهويدهم أو تنصيرهم أو تمجسيهم. كل هذا تبديل لفطرته التي فطره الله عليها، حتىٰ وإن كانت قضاءً من الله وقدرًا، وبالطريقة نفسها تتبدل الطبيعة السليمة للجسم بالبتر. ربما في النهاية تعود القلوب لفطرتها عندما يرسل لها الله ﷻ شخصًا مهيئًا نفسه ليعيدها لفطرتها.

وقد أرسل الله ﷻ الرسل عليهم الصلاة والسلام لإقرار الفطرة وإكمالها، وليس لتغييرها وتحويلها. عندما يكون القلب محبًا لله وحده ومخلصًا له الدين؛ فلن يصاب بحب من سواه، أو بالأحرىٰ لن يصاب بالعشق. وإن أصيب بالعشق فذلك يكون بسبب نقص في حبه لله وحده. ولذلك لم يصب يوسف(1) عليه السلام بمثل هذا الحب فقد كان مغرمًا بالله مخلصًا له الدين. وقد قال الله تعالىٰ عنه: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ (يوسف:٢٤). أما بالنسبة لزوجة العزيز فقد كانت مشركة، هي وقومها، ولذلك أصيبت بالعشق.

لا يصاب أحد بالعشق إلا بسبب نقص في إدراكه للتوحيد الإلهي ونقص في إيمانه، وإضافة إلىٰ ذلك؛ ففي القلب العائد لله والخائف منه تجد أمرين

---

(١) كان يوسف بجماله الملائكي غاية غرام زليخة زوجة العزيز (بوتيفار). لكنه رفض تحرشها. وأصبح بذلك في الفقه الروحي الإسلامي «رمز المحبوب من الدرجة الأولىٰ» (A. Schimmel) والمثل الأعلىٰ لكلٍّ من الجمال والعفة؛ راجع: الغزالي، إحياء، الكتاب (٣٣)، (iii. ١٠١) J. N. BELL, Love, 31-32, 164؛ A. SCHIMMEL, Yasuf في النص الحالي يفضل ابن تيمية من جهته رؤية يوسف عليه السلام كمحب، لكن كمحب لله وحده. ثم أصبح يوسف رمز الحب الوحداني الصحيح، بخلاف العشق الشهواني الوثني عند زليخة، والتي ألهت محبوبها وجعلته أشبه بشريك لله أو ساوته به.

يبعدانه عن العشق؛ أحدهما هو عودته إلىٰ الله ومحبته له، والتي تكون أكثر قبولًا وحُسنًا من أي شيء آخر، فمع محبة الله لا توجد محبة لمخلوق يتنافس معه في ذلك. والأمر الثاني هو خوف القلب من الله. الخوف الذي هو نقيض للعشق، في الحقيقة يبعده عن مثل هذا الحب. ومن يحب شيئًا عشقًا - أو بطريقة أخرىٰ غير العشق - يبتعد عن حب هذا الشيء عندما يحب شيئًا أحبَّ إليه من سابقه، وذلك بتنافس هذين الشيئين في الحب. وإضافة لذلك؛ فهو يبتعد عن حبه للشيء المحبوب خوفًا من إصابته بأذىٰ أشد عليه من تركه ذلك الحب. عندما يكون الله محبوبًا من عبده أكثر من أي شيء آخر ويبعث فيه خوفًا أكبر من أي شيء آخر، لا يأتيه بالعشق ولا أي صلة منافسة، إلا في حالة الإهمال أو حالة الضعف في هذا الحب وهذا الخوف من الله، وذلك من خلال ترك بعض الواجبات واقتراف بعض المحرمات. في الحقيقة يزيد الإيمان بالطاعة، وينقص بالمعصية. ففي كل مرة يقوم فيها العبد بعمل طاعة نتيجة حبه لله وخوفه منه، ويترك معصية نتيجة حبه لله وخوفه منه، يندفع قلبه للتوقف عن حب ما سواه وعن الخوف مما سواه.

ونفس الأمر يسري علىٰ أمراض الجسم: تُحفظ صحة الجسم بمثيلها، ويرد المرض بضده. صحة القلب من خلال الإيمان تحفظ بمثيله، أي بما ينقل الإيمان إلىٰ القلب؛ العلم النافع والعمل المستقيم. وهذه الأمور هي في الحقيقة غذاء له، تمامًا كما جاء في حديث ابن مسعود موقوفًا: «لَيْسَ مِنْ مُؤَدِّبٍ إِلَّا وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَىٰ أَدَبُهُ وَإِنَّ أَدَبَ اللهِ الْقُرْآنُ»[1]، والأَدَب هو ما

---

(١) راجع: سنن الدارمي، فضائل القرآن (ii. ٤٣٣). =

يقدمه المضيف: فالقرآن هو ضيافة الله لعباده.

### ب. قلق القلب وسكينته.

القلب بذاته لا يقبل إلا الحقيقة. فعندما لا يوضع شيء فيه لا يتلقىٰ إلا ما خُلق لأجله. ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (الأحزاب:٦٢).

ورغم ذلك؛ لا يترك القلب نفسه شاغرًا. فهو لا يتوقف عن التقلب في أودية الأفكار وأراضي الآمال. ولا يجد نفسه في حالة الفراغ والخواء التي يمكن أن تختبرها العينان والأذنان. فهو دائمًا موجود في مكان ما، ليس حرًا، ولا معلقًا، موضوع دون أن يستقر في مكانٍ. هذا مذهل! جلَّ جلال الله القدير

---

=«فحفظ الصحة بالمثل وإزالة المرض بالضد في مرض الجسم الطبيعي ومرض القلب النفساني الديني الشرعي... فأخبر الله تعالىٰ أنه فطر عباده علىٰ إقامة الوجه حنيفا وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فهذه من الحركة الفطرية الطبيعية المستقيمة المعتدلة للقلب، وتركها ظلم عظيم اتبع أهله أهواءهم بغير علم، ولا بد لهذه الفطرة والخلقة -وهي صحة الخلقة- من قوت وغذاء يمدها بنظير ما فيها مما فطرت عليه علما وعملا، ولهذا كان تمام الدين بالفطرة المكملة بالشريعة المنزلة وهي مأدبة الله، كما قال النبي ﷺ في حديث ابن مسعود: «إن كل آدب يحب أن تؤتىٰ مأدبته وإن مأدبة الله هي القرآن»، ومثله كماء أنزله الله من السماء كما جرىٰ تمثيله بذلك في الكتاب والسنة. والمحرفون للفطرة المغيرون للقلب عن استقامته هم ممرضون القلوب مسقمون لها، وقد أنزل الله كتابه شفاء لما في الصدور. وما يصيب المؤمن في الدنيا من المصائب هي بمنزلة ما تصيب الجسم من الألم يصح بها الجسم وتزول أخلاطه الفاسدة» (ابن تيمية، مجموع الفتاوىٰ، المجلد العاشر ص١٤٦-١٤٧).

الحكيم! هذه الحالة مكشوفة فقط للإنسان في رجعته للحقيقة، سوّاء كـان في حالة إنابة إلىٰ الله أو عندما ينقلب للآخرة. ثم يرىٰ سوء حالته السابقة، وكيف كان قلبه ضالًا في علاقته مع الحقيقة، ذلك عندما اعتاد إنفاق حياته في كل ما هو سوء.

ولكن إذا ترك القلب في الحالة التي هُيّء لها، دون ذاكرة ولا شاغل للفكر، فسيتلقىٰ المعرفة التي لا يعيبها جهل، ويرىٰ الحقيقة، حقيقة لا شك فيها، ويؤمن عندها بإلهه ويعود إليه. في الحقيقة «ما من مولود إلا يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟»[1]. ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠).

ما يحجب القلب عن الحقيقة هو فقط - وفي معظم الحالات - انشغاله عن الله تعالىٰ بشيء آخر: محاكمات الدنيا، ومتطلبات الكائن الحي، وعواطف الروح. في هذه الحالة يكون القلب أشبه بعين تقلب نظرها في سطح الأرض، فعندها لن تتمكن تلك العين من رؤية هلال القمر. أو في الحقيقة هي موجهة نحو الأرض وذلك يبعدها عن متابعة الحقيقة، والقلب عندها أشبه بعين فيها شائبة، فلا يمكنها رؤية الأشياء.

إضافة لذلك؛ قد تحصل في القلب نزوةٌ ما قبل أن يعلم الحقيقة، فتبعده

---

(١) راجع: صحيح البخاري، كتاب الجنة، المجلد الثاني (٩٥)؛ وراجع: صحيح مسلم، كتاب القدر، المجلد الثامن (٥٢).

عن النظر إليها، ولا تعود واضحةً له، وكما يقال: حبك الشيء يعمي ويصم[1]، فيبقىٰ بذلك في ظلام الأفكار. ولطالما كانت هذه نهاية الاستكبار الذي يمنع السعي نحو الحقيقة. ﴿ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ (النحل:٢٢)، قد تحصل بعض النزوات أيضًا للقلب بعد معرفته للحقيقة؛ وعندها يرفض الحقيقة ويبتعد عنها، كما قال الله ﷻ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ (الأعراف:١٤٦).

***

(١) لتعريف دقيق عن العشق؛ انظر ما ذكره ابن الجوزية في: الذم (٢٨٩)، وأرسطو: «العشق عمىٰ الحس عن إدراك عيوب المحبوب».

## الفصل الثامن:

# حقيقة محبة الله ومحبة الناس

# (Textes XV & XVI, 1996 - 1998)

لقد أرسىٰ مذهب ابن تيمية قواعده في محبة الله جيدًا[1]. ومع هذا تجد بعض الإجحاف بحق شيخ الإسلام السوري هذا رغم الإصرار الشديد. فمثلًا يعتقد البعض بحكم هنري لاوست Henri Laoust (وأعاده لويس غارديت Louis Gardet) أنَّه خاطئ جدًا، حيث يقول أنَّ ابن تيمية يرىٰ حب العبد «لن يأخذ الله به في ذاته وصفاته» إنما فقط في الشريعة والمشيئة الإلهية[2].

فما جمع في القسم الثالث[3] من كتاب التحفة العراقية **The Iraqi Present** المهتم بأعمال القلوب أو من كتاب العبودية **Servanthood** أو من كتاب أمراض القلوب وشفائها **The Diseases of the Hearts and**

---

(1) See J. N. BELL, Love, 46 - 91: Ch. 3: 'The Reaction to Ash'arism: Ibn Taymiyya':Ch. 4: 'Divine Will and Love in the Theology of Ibn Taymiyya'; Ch. 5: 'Ibn Taymiyya on Love between God and Man'.

(2) G. - C. ANAWATI & L. GARDET, Mystique, 161 - 62, citing H. LAOUST, Essai, 471.

(٣) النص الأساسي موجود في MF, x. 61, 1. 14-76, 1. 2.

**Their Cure** وباقي كتابات ابن تيمية؛ سيمكن القارئ حتمًا من قياس عمق فهمه للحب في علم اللاهوت. وسواء كان حب الله للإنسان أو حب الإنسان لله؛ فإنَّ هذه المحبة هي واقع وليست مجرد استعارة، وذلك خلاف ما يدعيه بعض فقهاء علم الكلام ومفكرون آخرون بأنَّ: إنكار هذا الحب هو إنكار لربوبية وألوهية الله. تتبع ابن تيمية مذاهب رفض الحب في الإسلام، ونقض أخطاءهم، وشرح بأنَّ حب الله هو أساس جميع الأعمال الصالحة، وأكد علىٰ أهمية هذا الحب في التوقعات الأخروية للمؤمنين، كما طوّر توحيد حب الله بما فيه حب النبي وصحابته... إلخ. وكما الحنيفية؛ فإنَّ حب الله متأصل في فطرة الإنسان، لكنه يحتاج للتفعيل. والآن هناك بالوقت نفسه خصوصية وإجلال في الحب الإسلامي لله، فهو لا يمكن تحت خطر تغيير الإسلام أن يختلط مع مفاهيم اليهودية أو المسيحية كما هو معمول به في بعض تناقض قوانين الصوفية.

والحب الإسلامي هذا ليس هو العشق الذي يتكلم عنه الفلاسفة. إنَّما هو الجهاد في سبيل الله، لا الاقتصار علىٰ الطاعة والعبادة الشعائرية فقط. وفي قمة ذلك تكون الخُلّة مع الله والتي امتاز إبراهيم ومحمد عليهما السلام بالوصول لقمتها.

هل الإسلام هو دين حب؟ في الحقيقة هو كذلك أكثر من أي دين آخر. لكن - ولهذا السبب - فهو يتبع طريقًا واحدًا في الكتاب والسنة. من الجيّد سماع ابن تيمية يذكر هذه الحقائق. وسيقدر المرء حتمًا هذه الصلة الوثيقة من قراءته لسلوك وأقوال بعض الصوفية.

**حب الله والأمل بالجنة والخوف من النار.**

الحب هو أساس الخوف والأمل، وجميع الأعمال الدينية وغيرها تدل علىٰ الحب بالضرورة وتنسب إليه. فمن يأمل ويتلهف لا يتلهف إلا لشيء يحبه، لا لشيء يكرهه. ومن يخاف أمرًا يهرب مما يخاف منه ليكون بالحالة التي يحبها. قال تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ (الإسراء:٥٧)[1]. وقال أيضًا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (البقرة:٢١٨).

«رحمته» هي تعبير يتحد فيه كل ما هو خير، أما «عذابه» فهو تعبير يتحد فيه كل ما هو «شر». ومسكن الرحمة الخالصة هو الجنة، أما مسكن العذاب الخالص فهو النار. أما بالنسبة لهذه الدنيا فهي مسكن مزيج منهما.

**أكبر سعادة على الإطلاق: رؤية وجه الله تعالى.**

وإن كان الأمل يرتبط بدخول الجنة فقط، فالجنة هي تعبير يتحد فيه كل الهناء، إلا أنَّ السعادة العظمىٰ تكمن في رؤية وجه الله. وهكذا؛ ففي صحيح مسلم ذُكر عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ[2] عن صهيب[3] عن النبي - عليه

---

(١) لم يذكر ابن تيمية نهاية الآية، إنما كتب فقط: «الآية».

(٢) أبو عيسىٰ عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ الأنصاري الأوسي. أحد كبار التابعين، توفي سنة ٨٣هـ/ ٧٠٢م.

(٣) أبو يحيىٰ صهيب بن سنان الرومي. صحابي توفي في المدينة سنة ٣٨ هـ/ ٦٥٨ م؛ راجع:=

الصلاة والسلام - أنَّه قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﷻ»[1]، هذه هي الزيادة[2].

وفي صدد ذلك؛ يختفي الاضطراب الذي يمكن حصره في كلمات شخص قال: «لم أعبدك طمعًا في الجنة ولا خوفًا من النار. عبدتك فقط لرؤيتك!»[3] من يقول هذا ومن يتبعه أيضًا يطمئن إلىٰ رأي أنَّه فيما يتعلق بالجنة فلا شيء فيها إلا الأكل والشرب واللباس والتواصل والاستمتاع وما شابه ذلك، حيث يستمتع المرء بالأشياء المخلوقة. ويتوافق معه علىٰ حد سواء في هذا الصدد من ينكر رؤية الله أو من يقر بها. حيث يتفق هؤلاء فيما

=ابن الأثير، أسد الصحابة، المجلد الثالث (٣٠ - ٣٣).

(١) راجع: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، المجلد الأول (١١٢)؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، المجلد الرابع (٣٣٢). (يوجد اختلاف بسيط بين الروايتين).

(٢) المقصود هنا الزيادة الموعود بها أهل الجنة؛ راجع: رواية الحديث المذكورة في صحيح مسلم.

(٣) انظر: قول رابعة العدوية (المتوفاة في بصرىٰ سنة ١٨٥هـ/ ٨٠١م)؛ «لم أعبده خوفًا من النار ولا طمعًا بالجنة، فلست تلك الأمة السيئة التي تعمل عندما تخاف أو عندما تكافأ. إنما عبدته حبًا ورغبة به» (M. OUDAIMAH & G. PFISTER, Rabi'a, 9). راجع: أيضًا قول أبو يزيد البسطامي (المتوفىٰ سنة ٢٦١ هـ/ ٨٧٤م أو ٢٣٤ هـ/ ٨٥٧ م)؛ «رأيت الرجال هنا في الدنيا يسعدون بالشرب والأكل والنكاح. ومثل ذلك في الآخرة. لذلك تركت شهوتي تضرعًا لله في الدنيا، آملًا إياه في الآخرة» (A. MEDDEB. Dits, 173 - 74. no. 423).

بينهم بالقول أنَّه في الجنة وفي الآخرة ليس هناك إلا الاستمتاع بالأشياء المتواجدة. ولهذا فعند تفحص قوله تعالىٰ: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ (آل عمران:١٥٢). قال أحد الشيوخ - وقد أخطأ في فهم الآية -: «وأين ذكر هؤلاء الذين يريدون الله؟» فعن هذا الأمر قال الله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ (التوبة:١١١)، وقال أحدهم: «إذا كانت النفس والأموال ثمنًا لدخول الجنة، فماذا عن رؤية الله؟»؛ كل هذا لتشبثهم بالظن بأنَّ رؤية وجه الله في الآخرة ليس ضمن النعيم.

الحقيقة هي أنَّ الجنة مسكنٌ مجموع فيها كل الرغبات الحلال وأنَّ السعادة الكبرىٰ التي يجدها المرء هنالك هي رؤية وجه الله. هذا جزء من النعيم الذي ينتظر عباد الله في الجنة كما تخبرنا النصوص. ونفس الأمر لأهل النار، ففيما يتعلق بالله فهم سيحجبون عنه عند دخولهم النار.

مع أنَّه[1] من يتمسك بهذه الأقوال فهو في الواقع يعلم ما يقول، وما يدور في خلده هو فقط الجملة «حتىٰ لو لم تخلق النار، أو حتىٰ لو لم تخلق الجنة، فإنَّه لزامٌ علينا عبادتك، ونحن ملزمون بالقرب منك ورؤيتك»؛ المعنىٰ هنا من لفظ «الجنة» هو المكان الذي يتحصل فيه المخلوق علىٰ السعادة الأبدية.

**المعيشة لا تستمر دون حب وإرادة.**

لكن وبذلك؛ فإنَّ قيام أي فردٍ علىٰ قيد الحياة أساسًا بفعل ما يفعل دون

---

(١) يبدو النص مُفْسَدًا.

حب أو إرادة أمر مستحيل؛ بالرغم من أنَّ بعض المخطئين من المؤمنين تصور ذلك فعلًا وظنَّ أنَّ مثالية العبد تكمن أساسًا بفقده الإرادة تمامًا.

ذلك لأنَّ المنتشي يتكلم وهو في حالة من الفناء[1] أما المخمد المنشغل تمامًا بمحبوبه ما يزال يملك بعض الإرادة وبعض الحب إلا أنَّه لا يدركها، الحب شيء والإرادة شيءٌ آخر، والإدراك شيءٌ مختلف عنهما أيضًا. وبالحديث عن ذلك؛ فإنَّ هؤلاء المؤمنين لم يعد لديهم وعيٌ بهذا الحب وهذه الإرادة، هم يظنون أنَّها اختفت. وهذا خطأ. في الواقع نحن لا نتخيل مطلقًا أنَّ العبد يمكن بأي حال أن يتحفز إلا بالحب والكره والإرادة. ولهذا قال النبي ﷺ في حديثه عن الأسماء: «وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَّامٌ»[2]. كل رجل هو في الواقع يتابع مسعاه (عمله) ولديه همّةٌ فيه وهي أساس الإرادة.

### حب الله هو الأساس!

بالرغم من كل ما سبق؛ ففي بعض الأحيان يجد المرء في قلبه حبًا لله؛ يدفعه لطاعته، ولتعظيم جلاله، والشعور بالخجل منه يمنعه من عصيانه،

---

(١) فناء نفسه في الغمرة الصوفية لنشوة حب محبوبه، راجع: Y. MICHOT, Textes 1, 6 - 9, 29. بالنسبة لابن تيمية؛ فإنَّ مثالية الحياة الصوفية لا تعني غياب إرادة الإنسان، فهذا أمر مستحيل؛ فكما حاول ابن تيمية أن يشرح بأنَّ النشوة يأتي غالبًا معها غياب لوعي الإرادة، لكنَّها «موافقة الإرادتين» إرادة الله وإرادة الصوفية، حيث - ومن خلال الإرادة الصوفية -؛ تتحقق الطاعة الفعالة للشريعة الإلهية.

(٢) مسند ابن حنبل، المجلد الرابع (٣٤٥)؛ مسند أبو داوود، كتاب الأدب، المجلد الرابع، (٢٨٧ - ٢٨٨)، رقم الحديث (٤٩٥٠).

فكما قال عمر رضي الله عنه: «نعم العبد صهيب[1]، لو لم يخف الله لم يعصه!» هو كما لو أنه يقول: هو لن يعصيه حتىٰ لو لم يكن يخافه، فكيف وهو يخافه! فتعظيم الله جل جلاله وتوقيره منَعَاه من عصيانه.

وارتباط الأمل والخوف - المستقرّين في الآمل والخائف - بالتفكر في المعاناة من عذاب الحجب عن الله بالقياس إليه وعذاب الحجب عن إيجاد سعادة تجلّي الله إليه، هذا الارتباط معروفٌ أنَّه نتيجة حبه لله. في الواقع يستلزم حب الله بالضرورة حبَّ تجلّيه والخوف من الحجب عنه.

وعندما يجد هناءً بخوفه من التعرض لعذابٍ من شيء مخلوق (مثل جهنم) ويجد هناءً في الأمل بالنجاة منه؛ يكون حينها لا يتحرىٰ هذا الهناء إلا من خلال عبادة الله، ما يقتضي بالضرورة حبه. ثم عندما يجد حلاوة حب الله يجدها أحلىٰ من أي حب غيره. ولهذا فإنَّ أهل الجنة أكثر انشغالًا بذلك من أي شيء آخر، فكما ذُكر في الحديث: «إن أهل الجنة يُلهمون التسبيح كما يُلهمون النفس»[2]. وهذا يُظهر تمامًا أنَّ السعادة التي يجدها الذاكرون والمحبون لله تصل إلىٰ قمتها. فالخوف من العذاب باستخدام أشياء معينة في الدار الآخرة والأمل بدخول الجنة يوصلان للغاية الأساس، ألا وهي حب الله.

---

(١) صهيب بن سنان، راجع: ما كتب عنه أعلاه.

(٢) انظر علىٰ وجه الخصوص: صحيح مسلم، كتاب الجنة، المجلد الثامن (١٤٧)؛ ومسند ابن حنبل، المجلد الثالث (٣٤٩).

**يحبهم ويحبونه.**

**حب الله والرسل والصحابة.**

لقد أشار القرآن والسنة إلىٰ حب عباد الله لله، فجاء في القرآن مثلا: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (البقرة:١٦٥)، وقال تعالىٰ أيضًا: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ (المائدة:٥٤)، وقال في آية أخرىٰ: ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ ﴾ (التوبة:٢٤)، وعن النبي ﷺ ذكر أيضًا: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ؛ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ، أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[1].

إضافة إلىٰ ذلك؛ فإنَّ حب رسول الله ﷺ ضروري لصحة محبة الله، فكما قال تعالىٰ: ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ ﴾ (التوبة:٢٤)، وأيضًا جاء عن النبي ﷺ في الصحيحين أنَّه قال: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»[2]، وفي صحيح البخاري جاء عن عمر بن الخطاب أنَّه قال: «وَاللهِ، لأَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلا نَفْسِي»، فَقَالَ النَّبِيُّ، ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ»، قَالَ عُمَرُ: «فَأَنْتَ الآنَ وَاللهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الآنَ يَا عُمَرُ»[3].

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، المجلد الأول (١٢)؛ وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، المجلد الأول (٤٨).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، المجلد الأول (١٢)؛ وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، المجلد الأول (٤٩). (هناك اختلاف بسيط بين الروايتين).

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، المجلد الثالث (١٢٩).

والأمر سواء في محبة أصحابه وقرابته. وخصوصًا أنَّه ذكر في الصحيح أنَّ رسول الله قال: «آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار»[1]. وقال أيضًا: «لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر»[2]، وقال علي ﷺ: إنه لعَهْد النبي الأميّ إلي: أنه لا يُحبني إلا مؤمنٌ ولا يُبغضني إلا مُنافق[3].

وفي السنن ورد أنَّه ﷺ قال للعباس[4]: والذي نفسي بيده لن يدخلوا الجنة حتىٰ يحبوكم لله ولقربكم مني[5]. يقصد بكلمة «يحبوكم»: بني هاشم، وليس فقط العباس[6]. وروي أيضًا أن ابن عباس عاد للنبي وطبقًا لما قال: «أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَحِبُّونِي لِحُبِّ اللهِ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي لِحُبِّي»[7].

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، المجلد الخامس (٣٢)؛ وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، المجلد الأول (٦٠).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، المجلد الأول (٦٠)؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، المجلد الثاني (٤١٩).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، المجلد الأول (٦١)؛ مسند الإمام أحمد بن حنبل، المجلد الثاني (٨٤).

(٤) أبو الفضل العباس بن عبد المطلب بن هاشم. عم النبي ومن صحابته، توفي في المدينة سنة ٣٢ هـ/ ٦٥٢م؛ راجع: ابن الأثير، أسد الغابة، المجلد الثالث (١٠٩-١١٢).

(٥) راجع: مقدمة سنن ابن ماجه، المجلد الأول (٥٠)، الرقم (١٤٠)، ومسند ابن حنبل، المجلد الأول (٢٠٧ - ٢٠٨). رواية ابن ماجه كانت علىٰ التالي: «والله لا يدخل الإيمان قلب رجل حتىٰ يحبهم لله ولقربهم مني».

(٦) عشيرة الجد الأكبر للنبي.

(٧) راجع: سنن الترمذي، المناقب، المجلد الخامس (٣٢٩)، رقم الحديث (٣٨٧٨).

**حب الله لعباده.**

فيما يتعلق بحب الله ﷻ لعباده، فقد قال تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ (النساء:١٢٥)، وقال أيضًا: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ (المائدة:٥٤)، كما قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة:١٩٥)، وقال في آية أخرىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الحجرات:٩). وجاء في سورة التوبة قوله تعالىٰ: ﴿ فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة:٤)، كما ذكر الله في سورة التوبة أيضًا: ﴿ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة:٧)، وقال تعالىٰ أيضًا في موضع آخر: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (الصف:٤). وقال في آية أخرىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران:٧٦).

أما بالنسبة للأعمال التي يحبها الله؛ فهي الفرائض والنوافل الظاهرة والباطنة، وهي كثيرة ومعروفة. ونفس الأمر يسري بحبه لمن يقوم بهذه الأعمال، أي: المؤمنين والأولياء والصالحين.

**من جعد بن درهم إلى المعتزلة:**

**رفض حقيقة حب الله.**

هذا الحب حقيقة. يتحدث الكتاب والسنة عنه، وموقف سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والحديث وكل شيوخ الدين الذين تبعوهم وأئمة الصوفية، هو أنَّه يمكن حب الله ﷻ لذاته حبًا حقيقيًا. وأكثر من ذلك أنَّ هذا هو الحب المثالي - في الحقيقة -؛ فالأمر كما قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ

حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (البقرة:١٦٥).

أنكر الجهمي حقيقة الحب من الطرفين[١]، مدعيًا أنَّه لا يوجد حب إلا بسبب علاقة بين الحبيب والمحبوب، وأنَّه بين الأبدي والمُحدث لا يوجد علاقة تستوجب الحب.

أول ما دخلت هذه البدعة في المذهب الإسلامي كان في بداية القرن الثاني الهجري (التاسع الميلادي) حيث ضحىٰ الخليل بن عبد الله القسري[٢] أمير العراق والشرق، بجعدٍ بن درهم[٣] في واسط. وفي يوم التضحية دعا الناس وقال لهم: «يا أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضحٍّ بالجعد بن درهم؛ لأنَّه زعم أنَّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا ولم يكلم موسىٰ تكليمًا». ثم نزل من علىٰ المنبر وضحىٰ بجعد بن درهم.

وقد ورث الجهم بن صفوان هذا المذهب منه. وقد أعلن عنه وجادل دفاعًا عنه، وما يقوله الجهمية ينسب إليه. ثم قتله سلم بن الأحوز[٤] أمير خراسان بسبب ذلك.

---

(١) هذا هو حب الله لعباده وحبهم له.

(٢) الحاكم الأموي للعراق بين عامي (١٠٥/ ٧٢٣) و(١٠٦/ ٧٢٤) وطرد عام (١٢٠/ ٧٣٨). قام بقمع عدة حملات زنديقيّة، لكنه نفسه أحيانًا كان يتهم بالزندقة. عُذّب حتىٰ الموت عام (١٢٦/ ٧٤٣)؛ راجع: G. R. HAWTING, EI[2], art. 'Khalid b. abd Allah al - Kasri'.

(٣) كان إعدام الزنديق جعد بن درهم عام (١٢٤/ ٧٤٢) أو (١٢٥/ ٧٤٣)، راجع:
G. VAJDA. EI[2]. art. 'Ibn Dirham'

(٤) سلم (أو سليم) بن الأحوز، أحد الملازمين في الشرطة حينها، تحت إمرة ناصر بن سيار الخليفة الأموي لخراسان (المتوفىٰ سنة ١٣١/ ٧٤٨)؛ راجع:
D. GIMARET & G. MONNOT, Religions I, 292, n.3

ثم وصل هذا المذهب إلىٰ المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد[1] وشاع قولهم أثناء خلافة المأمون[2]، لدرجة أنَّه أخضع أئمة الإسلام للاستجواب ودعاهم ليقفوا صفًا واحدًا في هذا.

أساس أقوالهم مأخوذة من المشركين ومن الصابئة ومن البراهمة[3] الفلاسفة ومن واضعي البدع بين أهل الكتاب ممن يتمسك بفكرة أنَّ الله أساسًا ليس لديه أية صفة ثبوتية. هؤلاء هم أعداء إبراهيم الخليل ﷺ. هم يعبدون الكواكب وبنوا المعابد للتيارات الفكرية ومن أجل النجوم[4]... إلخ،

---

(١) عمرو بن عبيد بن باب (ولد في مدينة بلخ سنة ٨٠ هـ/ ٦٩٩م - توفي في بصرىٰ ١٤٤/ ٧٦١) زاهد قام بدور في تنمية حركة المعتزلة؛ راجع:

W. MONTGOMERY WATT, $EI^2$, art. 'Amr b. 'Ubayd b. Bab.'

(٢) أبو العباس المأمون عبد الله بن هارون الرشيد (١٧٠/ ٧٨٦ - ٢١٨/ ٨٣٣)، الخليفة العباسي السابع، والذي جعل من المعتزلة مذهبًا رسميًا عام ٢١٢ هـ/ ٨٢٧م، وقبل وفاته بأربعة أشهر أرغم العلماء والفقهاء بالتحري مرة أخرىٰ في هذا المذهب؛ راجع:

M. REKAYA, $EI^2$, art. 'al - Mamun'; Y. MICHOT, Historiography.

(٣) البراهمة هم طبقة رجال الدين في الهندوسية. وقد أصبح هذا المصطلح عند كُتَّاب المسلمين ملازمًا لكل من يرفض أي شكل من النبوءات؛ راجع:

AL - SHAHRASTANI, Milal, trans. MONNOT & JOLIVET, Religions II, 527 - 37و؛ IBN TAYMIYYA, Qubrus, trans. MICHOT, Roi croisé, 144.

أما الصابئة فطبقًا للشهرستاني:

AL - SHAHRASTANI, Milal, trans. MONNOT & JOLIVET, Religions II, 97

فهم يشتركون مع البراهمة بتحررهم الذاتي من التوسّط البشري (فمثلًا الرسل بشر وسطاء). وقد اقترح الارتباط بين هاتين المجموعتين ابن تيمية لعدم وجود شيء استثنائي.

(٤) التيارات الفكرية الملائكية العشرة، والتي كان يتخذ منها الفلاسفة (من أمثال ابن سينا) قناة للفيض الخلاق، ومن خلال رغبة العشق التي تتخللهم صنعوا صلتهم بمحركي=

وفيما يتعلق بالواقع؛ فقد أنكروا أنَّ إبراهيم خليل الله وأنَّ موسىٰ كلمه الله تكليمًا.

### الخُلّة مع الله، مثالية الحب!

الخلة(١) هي مثالية الحب الذي يمتصه المحب، فكما قيل:

---

=القبة السماوية. وبها يقومون بعبادة الفلكيات وعبادة هذه التيارات الفكرية راجع علىٰ سبيل المثال: المناسك التي يؤديها الصابئة
al - Shahrastant (Milal, trans. MONNOT & JOLIVET, Religions II, 134
وذلك بهدف التجسيد الأرضي للنجوم وللأرواح.

(١) الخلة هي كمال الحب الذي يتبع بالضرورة - فيما يتعلق بالعبد - مثالية عبوديته لله، أما فيما يتعلق بالله ﷻ فهي تتبع مثالية ربوبيته لعباده الذين يحبهم ويحبونه. مصطلح «العبودية» يشمل مثالية الذل ومثالية الحب. «القلب المتيم بالحب». ويقال هذا عندما يكون القلب متعبدًا لمحبوبه. فالمتيم هو المتعبد. الله تيم عباده بالحب. وهذا في مثاليته كان لإبراهيم ومحمد عليهما السلام، وهو سبب عدم اتخاذ النبي محمد لأي خليل من سكان الأرض. الخلة في الواقع لا يمكنها ربط عدة أشياء برباط الحب، فهي خصوصية. قال بعض الناس*: «محمد حبيب الله، وإبراهيم خليل الله». وتمسكوا برأي أنَّ الحب فوق الخلة. وهذا قول ضعيف. فمحمد أيضًا خليلٌ لله كما يظهر تمامًا في الأحاديث القدسية .(IBN TAYMIYYA, MF, x. 203 - 04)

* يقال أنَّه ابن عربي؛ راجع: J. N. BELL,Love, 161.

الخلة هي وحدانية الحب (أي حب روحٍ واحدة). الخليل هو الشخص المتوجه حُبُّه مباشرة لمحبوبه توجهًا فريدًا. وهو تصنيف لا يقبل إشراك عدة أشياء فيه. ولهذا ففي العالم لا يوجد سوىٰ خليلين لله، إبراهيم ومحمد عليهما السلام؛ الخلة تصنيف لا يقبل إشراك عدة أشياء فيه ولقد ذكر الله ﷻ إبراهيم علىٰ أنَّه خليله لدرجة أن أخضعه لامتحان قتل=

قـد تخلّلْـتَ مـسلك الـروح مِنّـي * وبـــذا سُـــمِّي الخليـــل خلـــيلا[1]

**خليلا الله: إبراهيم ومحمد عليهما السلام!**

هذا أيضًا مثبت بما ثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري[2] عن النبي ﷺ أنه قال: «ولو كنت متخذا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإنَّ صاحبكم خليل الله»[3]. قصد بـ «صاحبكم» نفسه[4]. وفي رواية أخرى: «ألا إني أبرأ إلى كل خل من خلته، ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، وإن صاحبكم خليل الله»[5]. وفي رواية أخرى: «إن الله اتخذني خليلًا كما اتخذ

---

=ابنه إسماعيل؛ لأنَّه يشغل جزءًا من قلبه. ولقد شاء ﷻ بأنَّ يتكرس هذا الجزء أيضًا له لا لأحد سواه. ولذلك أخضعه لامتحان قتل ابنه وكانت مشيئته ﷻ أن يقتل إبراهيم ابنه من قلبه لا أن يقتله حقيقةً» (IBN QAYYIM AL - JAWZIYYA. Rawda. 47 - 48).

وفيما يتعلق بالخلة تبعًا لابن القيم؛ راجع: J. N. BELL. Love. 159 - 62.

(١) وكذلك استشهد ابن القيم بهذا دون تحديد كاتبه. وعلق عليه بالتالي: «الخلة سميت بذلك؛ لأنَّها تتخلل كل جزء من العقل» (IBN QAYYIM AL - JAWZIYYA. Rawda, 48).

(٢) أبو سعيد الخدري، صحابي (توفي في المدينة ٧٤ هـ/ ٦٩٣ م).

(٣) راجع: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، المجلد السابع (١٠٩)، وهناك رواية مختلفة قليلًا في صحيح البخاري (صحيح البخاري، مناقب المهجرين، المجلد الخامس. ٤).

(٤) وهذا تفسير وكيع بن الجراح (المتوفى سنة ١٩٦/ ٨١٢)، طبقًا لسنن ابن ماجه، المقدمة، المجلد الأول (٣٦)، رقم (٩٣).

(٥) راجع: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، المجلد السابع (١٠٩)، وهناك اختلاف بسيط بين الروايات. ومسند ابن حنبل، المجلد (١، ٣٧٧)؛ وسنن ابن ماجه، المقدمة، المجلد الأول (٥٠)، رقم (١٤١).

إبراهيم خليلًا»[1]. فقد أوضح النبي ﷺ تمامًا أنّه من غير المناسب اتخاذ خليل من الخلائق مع الله، ولو كان ذلك ممكنًا؛ فإنَّ من يستحق ذلك هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

لكنّه أيضًا ﷺ ذكر أنّه يحب عددًا من الناس. فممّا جاء في ذلك: قوله: «يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ»[2]. ونفس الأمر يسري أيضًا علىٰ ما قاله للأنصار[3]. وقال ﷺ: «إن كان من أحب الناس إليَّ (يعني زيدًا)، وإن هذا (يعني أسامة) لمن أحب الناس إلي بعده»[4]... إلخ. وسأله ذات مرة عمرو بن العاص قال له: يا رسول الله، أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة[5]. قال: من

---

(١) راجع: صحيح مسلم، كتاب المساجد، المجلد الثاني (٦٨)، وسنن ابن ماجه، المقدمة، المجلد الأول (٥٠)، رقم (١٤١). «فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنَّ إبراهيم هو أفضل الخلق. هو في الواقع الأكثر سموًا من بين الأنبياء بعد النبي محمد ﷺ، وهو خليل الله ﷻ» (IBN TAYMIYYA. MF. x. 202).

(٢) معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي؛ راجع: سنن النسائي، الصحوة، المجلد الثالث (٥٣)؛ وسنن أبي داوود، الصلاة، المجلد الثاني (٨٦)، رقم (١٥٢٢).

(٣) راجع: صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، المجلد الخامس (٣٢)؛ وراجع أيضًا: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، المجلد السابع (١٧٤): حيث قال النبي ﷺ للأنصار: «اللَّهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ».

(٤) راجع: صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، المجلد الخامس (٥)؛ وراجع: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، المجلد السابع (١٣١): «إن كان من أحب الناس إليَّ (يعني زيدًا)، وإن هذا (يعني أسامة) لمن أحب الناس إلي بعده».

(٥) راجع: صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، المجلد الخامس (٢٣)؛ وراجع: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، المجلد السابع (١٠٩).

الرجال؟ قال: أبوها. وفي حديث آخر: أنَّه ﷺ قال لابنته فاطمة: «أي بنية، ألست تحبين ما أحب؟ فقالت: بلىٰ. قال: فأحبي هذه»[1] - أي: عائشة -، وروي عنه ﷺ أنه قال للحسن: «اللّهم إني أحبه فأحبه وأحبب من يحبه»[2]، وهذه أمثلة متعددة لذلك.

### توحيد الحب.

إذًا ذكر الرسول أنَّه يحب أشخاصًا عدة، وعلاوة علىٰ ذلك؛ فقد قال: «ألا إني أبرأ إلىٰ كل خلٍّ من خلته، ولو كنت متخذا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، وإن صاحبكم خليل الله»[3].

فبالتالي لقد علم أنَّ الخلة أكثر خصوصية من الحب البسيط بما أنَّها تنشأ عن كمال الحب وفيض المحب لدرجة أنَّ المحبوب يُحَبُّ لذاته لا لأي شيء آخر. في الواقع عندما يُحَبُّ المحبوب لشيء غير ذاته؛ فإنَّ هذا الحب يقبع في المرتبة الثانية نسبيًا لذلك الشيء. ولكن ونظرًا لكمال الخلة فهي لا تقبل الإشراك والمنافسة؛ لأنَّها تغمر المحب. فبهذه الخلة المثالية توجد مثالية إدراك التوحيد الإلهي ومثالية الحب.

---

(١) راجع: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، المجلد السابع (١٣٦).

(٢) راجع: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، المجلد السابع (١٢٩).

(٣) راجع: صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، المجلد السابع (١٠٩)، وهناك اختلاف بسيط بين الروايات. ومسند ابن حنبل، المجلد (١، ٣٧٧)؛ وسنن ابن ماجه، المقدمة، المجلد الأول (٥٠)، رقم (١٤١).

تُبعِد الخلّة المنافسةَ، ولا يمكن أن تكون في مرتبة متأخرة عن غيرها، فبتلك الطريقة يكون المحبوب محبوبًا لجوهره، بحبٍّ لا ينافسه فيه أحد. مثل هذا الحب لا يناسب إلا الله. ولذلك لا يسمح بأن يشرك به أحد فيما يتعلق بما يستحقه من الحب. هو محبوب لذاته وكل محبوب سواه - إن كان محبوبًا بالفعل - سيكون محبوبًا دون أثر لغياب حب الله معه. بينما كل محبوب دونه يكون حبه عقيمًا. فالدنيا ملعونة وملعون ما فيها، باستثناء ما كان لله ﷻ.

تكون الخلة هكذا، من المعروف بالضرورة أنَّ من ينكر أنَّ الله محبوب لذاته فهو ينكر إمكانية اتخاذه خليلًا. وبالمثل من ينكر حبه لأحد عباده؛ فهو ينكر أنَّه يمكن لله اتخاذ خليل، وبهذه الطريقة يحب الله عبده، وعبده يحبه بطريقة هي الأمثل وتناسب عباده.

والأمر مماثلٌ تمامًا في التأكيد بأنَّ الله كلم موسىٰ تكليما[1]. بعض الناس أنكر ذلك؛ لأنهم ينكرون أنَّه ولا أيٌّ من صفاته ولا أفعاله تستمر فيه. وبالطريقة نفسها أنكروا امتلاكه لصفة «الحياة» و«القدرة» و«العلم» وأنه «يجلس»[2] وأنَّه «يأتي»[3]، وقد أنكروا تكليمه لأي شخص تكليمًا. وحقيقة أقوالهم هي: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ (البقرة:١١٨).

---

(١) راجع سورة النساء، الآية (١٦٤): ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾.

(٢) راجع: سورة طه، الآية (٥)، حيث قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، راجع أيضًا: Y. MICHOT, Textes X, 28, n. 9.

(٣) انظر: سورة الفجر، الآية (٢٢)، حيث قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾.

**حب الله لا يمكن اختزاله بحب طاعته.**

أن ينتصر الإسلام ويُقرأ القرآن أمر لا يتحمله لمن يتظاهر بالإسلام ويرفضه [ببساطة]. لذلك بدأ [أمثال هؤلاء] بالزندقة بأسماء الله وحرفوا الكلم عن مواضعه ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ (المائدة:١٣)[1]. ففسروا حب العباد [لله] بكونه ببساطة حبًّا لطاعته أو للاقتراب منه[2]. هذا جهل كما أنَّه تفسيرٌ خطيرٌ أيضًا.

**لا يحب المرء طاعة الله وعبادته إلا لأنَّه يحب الله.**

في الواقع، إنَّ الحب الكامن في المرء المتقرب لمن يتقرب منه يتبعُه حبٌّ له ويشتق منه أيضًا. فمن غير الممكن لمن لا يحب شيئًا أن يحب التقرب منه. فالقرب في الحقيقة هو الوصول للوسيلة، وحب الوصول للوسيلة يتبعه حب المقصود. ومن المستحيل أن يكون مجرد «الوصول» للوسيلة هو الشيء المحبوب فعلًا؛ لأنَّ الوصول حقيقةً هو - فقط - الشيء المطلوب للوصول لذلك.

ونفس الأمر يسري بالنسبة للعبادة والطاعة عندما يقال عن المُطاع والمعبود أنَّ شخصًا يحب طاعته ويحب عبادته: فحب العابد يتبعه حب ما يقوم به لذلك المعبود. فمن لا يُحب محبوبه لن يحب طاعته ولا عبادته. ومن لا يعمل ما يعمل لشخص ما إلا طمعًا بجائزة منه أو دفعًا لعقاب يلزمه

---

(١) تتمة الآية: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا﴾ (المائدة:١٣).

(٢) وهذا موقف أبو المعالي الجويني وآخرين؛ وJ. BELL, Love,59.

به أو حفظًا لنفسه منه فذلك لا يحبه.

فلن يتخيل عندها المرء (المراد الحصول منه علىٰ شيء أو دفع عقابه) أنَّ هنالك من يحبه، ولا يمكنه تفسير تلك الطاعة بأنَّها حبٌّ لطاعته أو لخدمته. حب المقصود [بهذه الطريقة][1]، سواءً تبعه بالضرورة حب الوصول للنتيجة (سواءً كانت جائزة أو دفع أذىٰ) أو حب شيء آخر غير حب الوصول للنتيجة، يعتمد [في هذه الحالة] للتعبير عنه علىٰ شرطين هما: حب الجائزة من جهة، وغياب حب العمل [المتعهد به] من جهة أخرىٰ.

وفيما يتعلق بحب الله فهو لا يماثل حبًا بسيطًا لجائزة ما. ألم ترَ ذلك، ألم ترَ للذي يعِد رجلًا بوعود حسنة، فذلك لن يمكنه القول بأنَّ الرجل المتعهد بالقيام بما عليه يحبه لهذه الحقيقة البسيطة. علاوة علىٰ ذلك؛ فإنَّ ذلك الرجل قد يعد أيضًا شخصًا لا يحبه أبدًا، أو حتىٰ شخصًا يكرهه. ونفس الأمر لمن يحفظ نفسه من تعذيب شخصٍ ما يستطيع تعذيبه، فلن يقول الخائف أنَّه يحب من يخاف منه. بل وقد يكرهه. وهكذا يعلم المرء بأنَّ الوصف القائل بأنَّ الله يجزي عباده المؤمنين (أي الذين يحبونه) من المستحيل بأن يكون معناه حبًا بسيطًا لفعلٍ ما؛ شكرًا لحصولهم علىٰ بعض الأشياء المخلوقة، دون أن يحبوا ربهم[2].

---

(١) أملًا بمكافأة أو خوفًا من عقاب.

(٢) فيما يتعلق برفض ابن تيمية لاختزال حب العبد لله لحب الجائزة أو تجنب العقاب في الآخرة؛ راجع: J. BELL, Love, 82 - 83، واستشهد بهذا المقطع الجميل من المنهج: «لا تنتج حلاوة الإيمان في القلب من الجائزة التي لم تُستلم بعد. وعلىٰ النقيض من ذلك؛=

وفضلًا عن ذلك يشمل مصطلح العبادةِ الحُبَّ والذلَّ، كما ذُكر أدناه[1].
فلذلك يكون الحب في قلوب البشر على مستويات عدة.

=فإنَّ من يعمل فقط لأجل أجرة لا يجد شيئًا في عمله إلا التعب والإرهاق والمشقة. فإنَّ لم يكن لحب الله ورسوله أي معنًى آخر غير حب استلام الجائزة في الدار الآخرة؛ فلن يكون المرء قادرًا في الدنيا على تذوق حلاوة الإيمان في قلبه».

(١) انظر للمثال: IBN TAYMIYYA, MF, x. 19 - 20: «العبادة هي منتهى ما خلق الله عباده لأجله؛ لكونها تتعلق بربوبية الله وحبه ونيل رضاه، تمامًا كما قال ﷻ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦). ولتذكير البشرية بذلك؛ أرسل الرسل وأنزل الكتب. [«والعبادة»] مصطلح يجتمع فيه كمال حب الله ونواتجه، إضافةً لكمال الذل أمام الله ونواتجه. في الحقيقة فإنَّ الحب الخالي من الذل والذل الخالي من الحب لا يعدان عبادة. فالعبادة هي فقط ما يجمع كمالهما معًا. ولذلك؛ فإنَّ العبادة لا تناسب إلا الله. رغم أنّ فائدتها للعبد، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران:٩٧)، هي بالنسبة له تتعلق بالحب لديه والقناعة بأنَّه عنده. ولذلك يفرح الله بإنابة عبده إليه فرحا أشد مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ بِأَرْضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلَكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَنَزَلَ عَنْهَا فَنَامَ وَرَاحِلَتُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَذَهَبَ فِي طَلَبِهَا فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ وَالْعَطَشُ، فَقَالَ: وَاللهِ لأَرْجِعَنَّ فَلأَمُوتَنَّ حَيْثُ كَانَ رَحْلِي فَرَجَعَ فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ، فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ؛ راجع: IBN TAYMIYYA, MF, x. 153: «من يخضع نفسه لإنسان بالرغم من كرهه له لا يكون عابدًا له. وإذا أحب شيئًا لكن لم يخضع نفسه له فأيضًا ذلك ليس بعابد له، حيث يمكن للمرء أن يحب طفلًا أو صديقًا. ولذلك؛ فكلا الأمرين لا يكفيان لعبادة الله ﷻ. لكن من اللّازم: أن يحب العباد الله أكثر من أي شيء آخر، وأن يكون هو أهم مما سواه. ومازال هناك الأفضل، فليس هنالك من يستحق كمال الحب والتذلل له سوى الله. وكل ما يُحب إلّا الله فاسدٌ حبُّه؛ وكل ما حكم بفضله لغير ربوبية الله؛ فإنَّ الحكم بأهميته باطل».

إحدىٰ المستويات هي «التعلق». وهي تعلق القلب بالمحبوب.

ثم هنالك «الصبابة». وهي صبابة القلب تجاه [المحبوب].

ثم بعدها يكون «الغرام». وهنا يتبع الحب [ويقاضي القلب](١).

ثم «العشق».

وآخر الدرجات هي «التتيم»(٢). وهي ترتبط بتعبد المحبوب. والمتيم (المستعبِد) هو المعبود. وتيم الله: عبد الله، يبقىٰ المُحب دائمًا يذكر محبوبه ويتذلل ويخضع له.

وعلاوة علىٰ ذلك؛ فإنَّ مصطلح «الإنابة إليه» يعتمد وبنفس النمط علىٰ الحب. ونفس الأمر أيضًا ينطبق علىٰ المصطلحات المشابهة كما هو مذكورٌ أدناه.

## لا استعارة في النصوص التشريعية فيما يخص حب الله.

علاوة علىٰ ما سبق؛ إذا كان ما قاله هؤلاء الناس(٣) صحيحًا، [أي أنَّه

---

(١) كما «يرتبط» و«يتبع» و«يرغم» الدَّيْن المدين. راجع:
IBN QAYYIM AL - JAWZIYYA. Rawda, 49 - 50 .

(٢) علم الأنماط هذا متوالد بشكل مماثل في IBN TAYMIYYA. MF, x. 153. ولمقارنته مع علوم الأنماط لباقي الكتاب؛ راجع: J. BELL. Love. 157 - 60. وهناك قوائم أخرىٰ عند شهاب الدين النويري (المتوفىٰ سنة ٧٣٣/ ١٣٣٣)، النهاية، المجلد (٢، ١٢٨ - ١٣٠). لم يكرر ابن القيم الجوزي علم الأنماط لدىٰ ابن تيمية كما هو، إنما أغناه بمستويات أخرىٰ، فكان بذلك يصون رتبته (J. BELL. Love. 157). عندما يمر من الحب التجديفي للحب الباطني، فهو يكمل ويتوج هذه القائمة بالخلة (J. BELL. Love, 158).

(٣) منكرو الحب الإلهي.

كله] مجرد استعارة، وورد هناك علىٰ سبيل حذف الحرفية والمعنىٰ ضمنيٌّ، [فيجب القول بأنَّ] الاستعارة لا تستخدم إلا في سياق يجعلها واضحةً. يعرف الآن أنَّه لم يرد في كتاب الله وسنة رسوله ما يمنع كون الله محبوبًا، وليس هناك ما يثبت أنَّ المحبوب ليس إلا الأفعال، ولا حتىٰ فيما يتعلق بالعَرَض المستمر ولا بالعَرَض المنقطع، ولا حتىٰ فيما يتعلق بطريقة التفكير وكل تلك البدع التي ظهرت. ومن بين علامات الاستعارة أيضًا وجود إمكانية تأكيد إنكارها. فيجب إذًا وجود إمكانية لإثبات أنَّ الله لا يحِب ولا يُحَب، بالطريقة ذاتها التي أكد بها إمامهم الجعد بن درهم أنَّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلم موسىٰ تكليمًا. وهذا كما نعلم محرمٌ بإجماع المسلمين. فنحن نعلم لذلك بأنَّ الإجماع يقول أنَّ هذا الحب ليست استعارة، إنما هو حقيقةٌ.

وفضلًا عن ذلك يفرق الله بين حبه وحب العمل لأجله؛ كما جاء في الآية: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ (التوبة:٢٤)، تمامًا كما فرق بين حبه وحب رسوله بقوله تعالىٰ: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ (التوبة:٢٤)، فلو كان معنىٰ كلمة «أحب» هنا حبَّ العمل فقط لكان هذا تكرارًا، أو قد يندرج تحت انضمام الخاص للعام. لكن ومع ذلك يمثل الأمران تعارضًا مع المعنىٰ الواضح للغة، وهو أمر غير مسموح به إلا من خلال توضيحٍ يُسهل المعنىٰ. وبالطريقة نفسها: من المرفوض إعطاء «حب الله» تفسيرًا علىٰ أنَّه حقيقة بسيطة كحب رسوله، كما أنَّه من غير المسموح به إعطاء نفس التفسير علىٰ أنَّ حبه حقيقة بسيطة كحب العمل لوجهه تعالىٰ؛ وإن كان حبه يدل بالضرورة علىٰ حب رسوله وحب العمل لوجهه الكريم.

وعلاوة علىٰ ذلك؛ فالتعبير من خلال الكلمات عن «حب شيء»؛ ليس أفضل من الحقيقة البسيطة للحب وهي الطاعة، فلا حقيقة لحب مخلوق لذاته، وهي مسألة غير معروفة في اللغة، ولا في الواقع، ولا حتىٰ مجازيًا. وتحريف المعنىٰ بهذا النحو لهو تزييف. ولقد أسسنا قواعد ذلك في أماكن متعددة من كتاب Great Rules[1]، ولا يمكن قصد وحب شيء لذاته إلا الله، تمامًا كما أنَّه لا يمكن لغير الله وجوده بذاته[2]، بالأحرىٰ لا إله إلا الله ولا رب

---

(١) كثير من كتابات ابن تيمية تسمىٰ قاعدة أو القواعد. لكن ولا أيٌّ منها يحمل العنوان المشار إليه هنا؛ راجع: IBN QAYYIM AL - JAWZIYYA, Asma.

(٢) تلمح هذه الجملة بوضوح لعلم اللاهوت عند من يعتقد بوجوب الوجود، كما قدمها ابن سينا، والتي عرفها ابن تيمية واستخدمها استخدامًا متكررًا. فقط الله موجودٌ بذاته، وكل ما عداه وجوده حادث. لذا دون الله هنالك فقط ذوات ممكنة الوجود، لا توجد إلا بتلقي حدث الوجود من الله. فبما أنَّ الله موجود بذاته فهو واجب الوجود، وهو الوحيد هكذا. ونتيجة لوجوب الوجود فالله خير محض وهو الأجدر بالحب ويُحب لذاته، وهو الوحيد هكذا أيضًا.

«والوجود الذي لا يقارنه عدم، لا عدم جوهر ولا عدم حال للجوهر، بل هو دائم بالفعل، فهو خير محض، والممكن بذاته ليس خيرا محضا لأن ذاته تحتمل العدم، وما احتمل العدم بوجه ما فليس من جميع جهاته بريئا من الشر والنقص، فإذن ليس الخير المحض إلا الواجب الوجود بذاته». (ابن سينا، الإلهيات، المقالة الثامنة، الفصل السادس، ٣٥٦).

«وأنه سلام - أي خير محض -، معشوق لذاته». «حيث إنَّ الوجود أكثر قداسة من أن يخضع، فهو النهاية المطلقة للخير، وهو أيضًا النهاية المطلقة للمعشوق، والنهاية المطلقة لنوعية العاشق تكون أيضًا هي النهاية المطلقة لنوعيته في المعشوقيّة، أي وجوده ﷻ» (AVICENNA, 'Ishq, 377). ولرؤية تأثير رسالة ابن سينا في العشق؛ راجع:

J. N. BELL, Treatise.

سـواه يـستحق العبـادة، وهـو فقـط مـن لـه الحـق في أن يكـون محبوبًـا لذاتـه بالتبجيل والحب المثالي.

### حب الله مُرتكز في فطرة الناس.

كل مولود يولد علىٰ الفطرة. فالله تعالىٰ فطر القلوب هكذا، فليس هنالك ما يكسب الأشياء المرغوبة والمحبوبة صفاءها بأعين محبيها (والذي يتوقف في النهاية) إلا الله. ففي كل ما يحبه المرء من طعام ولباس وظهور ومسموعات وملمس بعض الأشياء، سيجد تلقائيًا في النهاية أنَّ قلبه يبحث عن شيء آخر، بأنَّه يحب شيئًا مختلفًا، شيئًا يعبده، يكرس نفسه له، ليجد من خلاله النقاء، وهو قد رأىٰ مسبقًا أشياء أخرىٰ بدت هكذا، أنواعًا مختلفة من الأشياء. ولذلك قال تعالىٰ: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ (الرعد:٢٨)، كما ذكر الله ﷻ في الحديث القدسي[1] عن عياض بن حمار[2] عن النبي ﷺ أنَّه قال: قال تعالىٰ - في حديث قدسي -: «وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا»[3]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة: «ما من مولود إلا يولد علىٰ الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو

---

(١) راجع: صحيح مسلم، كتاب الجنة، المجلد الثامن (١٥٩)؛ ومسند ابن حنبل، الرابع (١٦٢).

(٢) عياض بن حمار المجاشعي، راجع: ابن الأثير، أسد الصحابة، المجلد الرابع (١٦٢).

(٣) لقد فرق ابن تيمية بين: «أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ» مثل اليهود، وبين: «وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي» مثل النصارىٰ. وفي هذا الموضوع؛ راجع:
IBN TAYMIYYA, Qubrus, trans. MICHOT, Roi Croisé, 141 - 42.

يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟»[1]، ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ (الروم:٣٠).

## إنكار حب الله هو إنكار لربوبيته وألوهيته.

علاوة علىٰ ما سبق؛ فإنَّ جميع نوعيات الكمال التي فُطر القلب علىٰ حبها كان الله هو من أعطاها كمالها[2]، وكل ما يمكن حُبه سواه أتىٰ منه ﷻ[3]. فهو من يستحق الحب بالفعل وبالشكل الأمثل. وإنكار حب العبد لربه هو في الواقع إنكار استحقاق الله للعبادة، وإنكار حبه لعباده يدل بالضرورة علىٰ إنكار مشيئته، وذلك يدل بالضرورة علىٰ إنكار أنَّه الله الخالق. وهكذا فإنكار حبه[4] يدل بالضرورة علىٰ إنكار أنَّه رب العالمين وأنَّه إله العالمين. وهو ما يقوله أنصار التعرّي والجحود[5].

---

(١) راجع: صحيح البخاري، كتاب الجنة، المجلد الثاني (٩٥)؛ وراجع: صحيح مسلم، كتاب القدر، المجلد الثامن (٥٢).

(٢) مقارنة مع رسالة العشق لابن سينا ص (٣٩١): «أصبح واضحًا، بأنَّ العلّة الأولىٰ هي مصدر كلّ الخيرات، ولا مسبّب لهذه العلّة؛ وعليه، فهذه العلّة (الله) هي الخير المطلق»؛ استنادًا لمحض ذاته المقدّسة.

(٣) ومقارنة مع رسالة العشق لابن سينا، ص (٣٩٠): «وهو علتها، ليس هنالك خير لها فيها أو منها إلا كان هو مصدرها».

(٤) هذا هو حب الله لعباده وحبهم له.

(٥) أي تعرية الدين عن الذات الإلهية وعن صفاتها، وجحود معاني تلك الصفات، وهؤلاء هم الجهمية.

الوصايا العظمى.

لهذا هنالك ميثاق عند الأمتين اللتين ظهرتا قبلنا(١)، حيث يرون ذلك سُنَّة وحكمة من موسىٰ ﷺ: «أعظم الوصايا هي أن تحب الله من كل قلبك وعقلك وقصدك»(٢) هذه هي حقيقة الحنيفية التي أتىٰ بها إبراهيم والتي هي أساس الطريق في التوراة والإنجيل والقرآن.

إنكار ذلك مأخوذ من المشركين ومن الصابئة ومن أعداء إبراهيم الخليل، وهؤلاء الفلاسفة وعلماء الكلام وعلماء الفقه وأصحاب البدع المتفقون معهم علىٰ هذا الموضوع سُحِب منهم ميثاقهم. أصبح هذا واضحًا في حالة الإسماعيلية القرامطة(٣) الباطنية(٤). ولذلك فإنَّ إبراهيم الخليل إمام الحنيفية عليه الصلاة والسلام قال: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الشعراء:٧٥ - ٧٧). وقال أيضًا: ﴿ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴾ (الأنعام:٧٦). وقال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء:٨٨ - ٨٩)، أي: خالٍ من الشرك.

---

(١) أي اليهودية والنصرانية.

(٢) سفر التثنية، (٦: ٥): فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ. وفي العهد الجديد، متىٰ (٢٢: ٣٧ - ٣٨): «فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: تُحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ. هذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الأُولَىٰ وَالْعُظْمَىٰ». راجع أيضًا: مرقس، (١٢: ٣٠)؛ ولوقا، (١٠: ٢٧).

(٣) إحدىٰ طوائف الإسماعيلية؛ راجع: 'W. MADELUNG, E12, art. 'Karmati.

(٤) بالنسبة لابن تيمية؛ فإنَّ كل هؤلاء الشيعة والصوفية والفلاسفة رفضوا المعنىٰ الظاهر للآية علىٰ حساب المعنىٰ الباطن؛ راجع: M. G. S. HODGSON, EI[2], art. 'Batiniyya'.

### الجهمية ينكرون العلاقة بين المخلوق والخالق.

يقول الجهمية أنَّه بين المحدث والدائم لا توجد علاقة تستلزم حب العبد لله[1] وتمنحه متعة النظر لوجهه الكريم، وهذا قول سطحي. إن كانوا يقصدون بـ «العلاقة» أنَّه بينهما لا يوجد توالد؛ فذلك صحيح. وإن قصدوا بأنَّه لا توجد علاقة مثل ما يوجد بين الزوج وزوجه، أو بين الآكل والمأكول، ومثلها من الأشياء؛ فإنَّ ذلك صحيح أيضًا. لكن إن كانوا يقصدون أنَّه بين الخالق والمخلوق لا توجد علاقة يمكن أن تستلزم حب أحدهما للآخر وعبادته، وأنَّ الآخر يُعبَد ويُحَب؛ فإنَّ ذلك هو الجزء الأساسي من السؤال المطروح، وتقديم ذلك كحجة هو مصادرة علىٰ المطلوب. في هذه النقطة فإنَّ الاستحالة لوحدها كافية. وقد يزيدهم شخص بقوله: ليس ثمة علاقة تستلزم حبًا مثاليًا باستثناء العلاقة بين المخلوق والخالق الذي لا إله غيره، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ﴾ (الزخرف:٨٤)، ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الروم:٢٧). وحقيقة قول هؤلاء الجهمية هي: رفضٌ للعبودية لله.

### بعض الصوفية ينكر أنَّ الله يحب.

فيما يخص موضوعنا فلا بد أن نذكر أنَّ هنالك عدة فرقٍ من الصوفية تتفق مع علماء الكلام في اللاهوت في إنكار صفة الحب عند الله[2]. هم يقرون

---

(١) أشرنا إليه سابقا. J. BELL. Love. 76 - 77.

(٢) راجع علىٰ سبيل المثال: قول أبي يزيد البسطامي: «ليس ثمة ما يفاجئ في أني أنا العبد الفقير يجب أن أحبك! لكن العجيب أن تحبني أنت الملك القدير».
Dits, trans. MEDDEB, 113, no. 247.

بأنَّه يمكن أن يكون محبوبًا لكن من المستحيل أن يُحِب. وأساس هذا الإنكار لحب العباد لله كان فقط أقوال المعتزلة وأمثالهم من الجهمية. كما أنَّهم أنكروا حب الله لعبده أشد إنكار. والمنكرون لحب الله لعبده علىٰ قسمين: قسم اعتبر أنَّ الله يحب الأفعال. فجعلوا بذلك حب الله مخلوقًا[1].

---

(١) راجع علىٰ سبيل المثال:
AL - GHAZALI. Ihya', Bk. 36. ed. MOUSSALI. Amour. 74 - 75 :
«وما ورد من الألفاظ في حبه لعباده فهو مؤول ويرجع معناه إلىٰ كشف الحجاب عن قلبه حتىٰ يراه بقلبه وإلىٰ تمكينه إياه من القرب منه وإلىٰ إرادته ذلك به في الأزل، فحبه لمن أحبه أزلي مهما أضيف إلىٰ الإرادة الأزلية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب، وإذا أضيف إلىٰ فعله الذىٰ يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقتضىٰ له، كما قال تعالىٰ: «لا يزال عبدىٰ يتقرب إلىٰ بالنوافل حتىٰ أحبه»، فيكون تقربه بالنوافل سببًا لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله في درجة القرب من ربه، فكل ذلك فعل الله تعالىٰ ولطفه به فهو معنىٰ حبه».
«أن الملك قد يقرب عبده من نفسه ويأذن له في كل وقت في حضور بساطه؛ لميل الملك إليه، إما لينصره بقوته أو ليستريح بمشاهدته او ليستشيره في رأيه أو ليهيئ أسباب طعامه وشرابه، فيقال: إن الملك يحبه ويكون معناه ميله إليه؛ لما فيه من المعنىٰ الموافق الملائم له، وقد يقرب عبدا ولا يمنعه من الدخول عليه لا للانتفاع به ولا للاستنجاد به ولكن لكون العبد في نفسه موصوفًا من الأخلاق المرضية والخصال الحميدة بما يليق به أن يكون قريبًا من حضرة الملك وافر الحظ من قربه مع أن الملك لا غرض له فيه أصلا، فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه؛ يقال: قد أحبه، وإذا اكتسب من الخصال الحميدة ما اقتضىٰ رفع الحجاب؛ يقال: قد توصل وحبب نفسه إلىٰ الملك، فحب الله للعبد إنما يكون بالمعنىٰ الثاني لا بالمعنىٰ الأول وإنما يصح تمثيله بالمعنىٰ الثاني بشرط ألَّا يسبق إلىٰ فهمك دخول تغير عليه عند تجدد القرب، فإن الحبيب هو القريب من الله تعالىٰ». =

القسم الآخر جعلوا حب الله هي رغبته القوية بهذه الأفعال[1]. تكلمنا عن ذلك عند الصوفية مطولًا في كتاب **القواعد** المتعلق بصفات الله وقدره[2] وهذا ليس محل نقاشها. من المعروف أنَّ الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة يثبت أنَّ الله يحب ويفرح بطاعة أوامره (الفرائض والنوافل) وإن لم تكن موجودة، وأنَّه يستطيع إيجاد القضايا (الأفعال والأشياء الراسخة) التي يكرهها ويمقتها، مثل العناد والشك. يقول الله ﷻ: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ (البقرة:٢٠٥). ويقول أيضًا: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ (الزمر:٧).

**أساس الأعمال الصالحة: حب الله.**

المقصود هنا هو فقط الإشارة إلىٰ حب العباد لله، وأصبح جليًا أنَّ هذا هو أساس الأعمال الصالحة.

---

= بالنسبة لابن تيمية؛ فلو رفض الغزالي الإنكار «الجهمي» لحب الله لعباده فلن يكون ذلك فقط من خلال الصوفية، إنما نتيجة تأثير الفلاسفة. وبالرغم من تأكيد الغزالي حب الله لعباده إلا أنَّه في الإحياء أعطىٰ هذا التفسير عن أيهما أعجب، وهو - بالنسبة لابن تيمية - ما يبقي فيه حقيقة المفهوم.

(١) ذكر في R. ANALDEZ. Réflexion, 134 - 35: «حكم معظم فقهاء الشريعة في الإسلام (دون الصوفيين) بأنَّ حب الله للإنسان يتضمن منحه جائزة طاعته، وبالتبادل أن حب الإنسان لله يتضمن طاعته [...] ولكن هذا لا يشبه البتة الحب الإلهي في الوحي المسيحي». نص ابن تيمية المقدم هنا كافٍ لإثبات مقدار الإجحاف المسيحي في مثل هذا الحكم (في علم الإسلاميات الفرنسي علىٰ وجه الخصوص) لمجرد تخمين، كم التمييز الحاصل بين فقهاء الشريعة والصوفية يماثل كم الاختلاف بين طبيعتي هذين المذهبين.

(٢) لم يوجد هذا العنوان في قائمة أسماء أعمال ابن تيمية التي قدمها ابن قيم الجوزية.

ليس ثمة من دليل عند سلف الأمة (الصحابة ومن تلاهم بإحسان) يناقض هذا الموضوع، بل كانوا يعززون هذا الحب بطرقٍ وَصَفَ الله أنَّها تعززه، ومنها: الأنواع المختلفة للعبادات المشروعة، مثل العرفان الإيماني والاستماع إلىٰ الفرقان[1]. وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ (الشورىٰ:٥٢) حتىٰ نهاية السورة[2].

وبالتالي، وفي كل فترة: يظهر من بين المجموعات المختلفة لعلماء الكلام (المعتزلة وغيرهم) بعض من ينكر هذا الحب.

## الملاحق[3]:

### أ. بين علماء الدين والصوفية.

تمسكت مجموعات متنوعة من العلماء والفقهاء بالمذهب القائل بأنَّ الله نفسه لا يمكن أن يُحَب وبأنَّ حبه هو فقط حبٌّ لطاعته وعبادته. وقالوا أيضًا بأنَّه لا يحب عباده ولا المؤمنين. وأنَّ حبه ما هو إلا مشيئته برحمتهم وبغية حُكمهم. ومن بين أتباع علم الكلام بعضٌ ممن التزم الدفاع عن السنة

---

(١) أي: القرآن، وكلمة «الفرقان» هي إحدىٰ أسماء القرآن، راجع:
Y. MICHOT. Musique. Textes V.

(٢) التتمة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ (الشورىٰ: ٥٢ – ٥٣).

(٣) الملحق أ هو خلاصة IBM TAYMIYYA. MF. x. 697 - 98. أما الملحق ب فهو خلاصة MF. xvi. 343 - 46. والملحق ج خلاصة IBM TAYMIYYA. Nubuwwat. 45 - 46.

حمَل مثل هذه الحجج. في الواقع: فإنَّ بعض المجموعات وحتىٰ بعض أصحاب مالك بن أنس ومن أصحاب الشافعي وأصحاب أحمد بن حنبل قد وقعوا في مثل هذا، أمثال: القاضي أبي بكر[1]، والقاضي أبي يعلىٰ[2]، وأبي المعالي الجويني[3]، وغيرهم كثير.

وفي الواقع: فإنَّ هذا فرعٌ من الجهمية والمعتزلة. فالشخص الأول في الإسلام الذي أنكر الحب كان جعد بن درهم معلم جهم بن صفوان.

لكن ما ثبت في الكتاب والسنة وأجمع عليه سلف الأمة عن أئمتهم وشيوخهم التابعين هو أنَّ الله يُحِب ويُحَب. ولهذا؛ فإنَّ المتمسكين بعلم الدين ممن انخرط في الصوفية صدقوهم بهذا الموضوع. ومنهم أبو القاسم القشيري[4] وأبو حامد الغزالي وغيرهم. دعم أبو حامد الغزالي ذلك في كتابه إحياء علوم الدين وفي مواضع أخرىٰ[5]. وبالطريقة نفسها أشار أبو القاسم

---

(١) أحمد بن محمد بن هارون الخلال، ويعرف باسم: «أبو بكر» (المتوفىٰ سنة ٣١١/ ٩٢٣)، مؤلف أول مجموعة كبيرة للفقه الحنبلي؛ راجع: H. LAOUST. EI2. art. 'al - Khallal».

(٢) محمد بن الحسين بن الفرا، والمعروف باسم «القاضي أبو يعلىٰ» (٣٨٠/ ٩٩٠ - ٤٥٨/ ١٠٦٦)، عالم دين من المذهب الحنبلي من بغداد؛ راجع:
H. LAOUST. 51'. art. 'Ibn al - Farra.

(٣) أبو المعالي أبو الملك الجويني، إمام الحرمين (بوشتانيكان، قرب نيسابور، ٤١٩/ ١٠٢٨ - ٤٧٨/ ١٠٨٥)، فقيه شافعي وعالم دين أشعري، وهو معلم الغزالي؛ راجع:
C. BROCKELMANN & L. GARDET, EI$^2$. art. 'al - Djuwayni.'

(٤) أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة القشيري (إستو - نيسابور 376/986. 465/1072) شافعي أشعري صوفي، مؤلف إحدىٰ الأطروحات الكلاسيكية الأساسية للصوفية (الرسالة)؛ راجع: 'H. HALM. EI$^2$. art. 'al - Qushayri.

(٥) كتاب الحب هو الكتاب السادس والثلاثين من الكتب الأربعين في الإحياء؛ راجع:
the translation of A. MOUSSALI, Amour.

لذلك في رسالته طبقًا لطريقة الصوفية كما هو الحال في كتاب أبي طالب المكي[1] بعنوان **قوت القلوب**. ورغم ذلك فقد تتبع أبو حامد الغزالي الصوفية ليتقفّىٰ حقيقة هذا الأمر؛ اعتمادًا علىٰ ما وجده في كتب الفلاسفة الذين أسّسُوا لوجود شيء من هذا القبيل حين قالوا أنَّ الله يَعشق ويُعشق[2].

هؤلاء الجهمية ومنهم المعتزلة ومن وافقهم أنكروا حقيقة الحب، ما تبعه بالضرورة إنكارهم للسرور برؤية وجه الله الكريم يوم القيامة. وطبقًا لهم؛ فإنَّه لذلك؛ لا يوجد في الواقع هناءٌ إلا بالأكل والشرب وما أشبههما من المتع. ولكن قولهم هذا هو تكبرٌ وجحود بالكتاب والسنة واتفاق السلف وشيوخ الأمة.

### ب. في صميم قلوب المنكرين.

يتربع حب الله ورسوله في صميم قلب كل مؤمن. ومن غير الممكن للمؤمن نفي هذا الحب من قلبه عندما يكون مؤمنًا حقًا، وعلامات هذا

---

(١) أبو طالب محمد بن علي الحارثي المكي (توفي في بغداد سنة ٣٨٦/ ٩٩٦)، صوفي ومؤلف إحدىٰ أهم الأطروحات الكلاسيكية في الصوفية: قوت القلوب؛ راجع:
L. MASSIGNON, EI$^2$, art. 'Abu Talib.'

(٢) وجوب وجود الله وأنّه يَعشق ويُعشق موضوعٌ متكرر في علم الدين عند الفلاسفة، وخصوصًا عند ابن سينا.

«وجوب الوجود يقع عند الدرجة النهائية للكمال والجمال والعظمة. هو يذكي ذاته بكونه بهذه الدرجة وهذا الجمال وهذه الروعة؛ وهذا – وبتفكر تام – هو ضم الذكاء والوضوح لدرجة أن يصبحا واحدًا في الواقع. فذاته بجوهرها هي أكثر من يحِب، وأكثر من يحَب، والأكثر مسرةً وأكثر باعث علىٰ السرور» (AVICENNA, Mabda', trans. MICHOT, Genése, 16).
ويعود الشيخ الرئيس لهذا النص في كتاب: الشفاء والنجاة.

الحب تكون ظاهرة عنده. فعندما يهين شخصٌ ما الرسول ويفتري عليه، أو يتلفظ بإهانة لله، أو يشير إليه بطريقة غير مناسبة؛ يشتعل المؤمن غضبًا أكثر مما لو أهين والده أو والدته»[1].

ورغم هذا تجد كثيرًا من المتمسكين بعلم اللاهوت والرأي قد أنكروا حب الله وقالوا: «من المستحيل أنَّ يحِب اللهُ أو أن يحَب»؛ وجعلوا ذلك من أساسات الدين. وقالوا ما قالوه؛ «لمعارضة أنصار علاقة الله بالخلق». كما لو أنَّه كان فقط أنصار مثل هذه العلاقة هم من يقول بأنَّ الله يحِب! من المعروف أنَّ هذا هو دين الأنبياء والرسل وصحابة النبي والتابعين ومن تبعهم بإحسان. كما أنَّ الكتاب والسنة يُثبتان ذلك كما شرحنا في مواضع عدة.

بذلك؛ فإنَّ حب الله وحب رسوله مزروع في قلوب مُعْظَم من ينكرونه، أو حتىٰ في قلب كل مؤمن وإن أنكر ذلك نتيجة بعض الافتراضات التي يفترضها.

وبالمثل؛ فإنَّ معرفة الله موجودة في قلوب هؤلاء. وهؤلاء من ينكرون حب الله قالوا أيضًا: «أنَّ معرفته لا تأتي إلا بالنظر». وبذلك أنكروا الفطرة في قلوبهم من معرفة الله وحبه.

إلىٰ جانب ذلك؛ فإنَّ مثل هذا الحب يمكن أن يكون سبب استحالة إدراك أنَّ معرفة الله وحبه متواجدة في أرواحهم. فما يوجد من معرفة الله وحبه في قلب أحدهم يمكن في الحقيقة أن يختفي. ويمكن للفطرة بالحقيقة أن

---

(١) ومؤخرًا: ليس هناك مثالٌ أوضح من قضية رشدي في الخلاف في الرسوم المتحركة الدنماركية.

تفسد، كما يمكن أن تختفي أو توجد، لكنَّ صاحبها معميٌّ عنها[1]. ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج:٤٦).

تشير الفطرة بالضرورة ضمنًا لمعرفة الله وحبه، وتحفَظ له قدر كونه المحبوب الأول، وهذا ما يشكل إدراك الوحدة الإلهية. وهذا هو معنىٰ «لا إله إلا الله».

## الحنيفية: المعرفة والحب والتوحيد.

أخبرنا الله ﷻ بأنَّه خلق عباده حنفاء كلهم[2]، وهذا ما يدلهم علىٰ معرفته وحبه وإدراك وحدانيته. هذه الأمور الثلاثة هي ضمنية في القلب السليم للمسلم الحنيف. وهذا هو معنىٰ «لا إله إلا الله».

بهذه العبارة الطيبة والتي كما لو أنَّها ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى

---

(١) هذا مذهب ابن تيمية في الفطرة، حيث يدعو لتدبر مذهب ابن سينا عن الوعي الذي تملكه روح كل إنسان نظريًا حتمًا: «الوعي الذي تملكه الروح البشرية موجود في ذاتها أساسًا. وهو لا يأتيها بالاكتساب، علىٰ أية حال يمكن للروح أن تنسىٰ جوهرها بالطريقة نفسها التي يمكن أن تنسىٰ بها مبادئها الأساسية. ثم تحتاج أن تصحىٰ علىٰ نفسها» (AVICENNA. trans. in Y. MICHOT', Destinée. 50. n. 53). وبالطريقة نفسها عند ابن تيمية؛ فإنَّ الفطرة «يمكن أن توجد لكن لا ترىٰ»، بالنسبة لابن سينا؛ فإنَّ معظم الناس يعيشون تحت جوهرهم الروح بنسيان ودون وعي، وجوهرهم مفتوح علىٰ المطلق. في حين أنَّ اللاوعي عند بعض الناس يمكن أن يستمر في الآخرة، إلا أنَّ جوهرهم الروحي لن يفنىٰ وسيظهر نفسه في النهاية لهم.

(٢) راجع: التعليق السابق عن عياض بن حمار.

ٱلسَّمَآءِ ﴾ (إبراهيم:٢٤)؛ يُدعَمُ عندنا أساس معرفتنا بالله، ففيها تأكيد لهذه المعرفة، وفيها تأسيس لوجود حبنا له. الإله في الحقيقة هو الذات المؤلّهة، هو من له الحق ليكون مؤلّهًا، وهذا هو أعظم ما في الأمر، وأقصىٰ ما يهتم به الحب. بهذه الجملة الطيبة؛ تجد تأكيدًا بأن لا إله غيره، فيها معرفة وحب وإدراك للوحدانية الإلهية.

«كل مولود يولد علىٰ الفطرة»، أي: علىٰ الحنيفية التي فطر اللهُ الناس عليها، إلا أنَّ والديه يفسدانها. فيهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه أو يجعلان منه مشركًا بطريقة الجهمية نفسها. يجعلون منه منكرًا لما يوجد في قلبه فيما يخص معرفة الله وحبه وإدراك وحدانيته. فبالنسبة لمعرفته؛ سيبحث هذا الفرد عنها بطرق الأدلة وينكر هذا الحب في كيانه. وإدراك الوحدانية الإلهية المشيرة للحب يصدر ممن لا يعرف الله، وعندها لا يبقىٰ عنده إلا إدراك توحيد الخلق(١). لكن حتىٰ المشركون أنفسهم اعتادوا الإقرار بالتوحيد الإلهي في الخلق والإقرار بمثل هذه الترابطية.

### ج. فساد علوم اللاهوت.

أنكر معظم علماء الكلام في علم اللاهوت أنَّ الله يمكن أن يُحَب، كما

---

(١) لا يمكن اختزال التوحيد بالإقرار فقط بوجود خالق واحد، حيث يشمل التوحيد الانتقال من توحيد الخلق والربوبية إلىٰ توحيد الألوهية، أي مثلًا: القول أنَّه لا مُلك ولا حب ولا خوف... إلا بالله. ولمعرفة المزيد عن الاختلاف (والذي هو أساسي) بين هذين التوحيدين؛ راجع: Y. MICHOT, Textes II, Textes IV

أنكروا أنَّه يحِب. أو يحبه شخص ما. وهذا في الواقع إنكار أنَّه إله يستحق العبادة. الله في الواقع ذاتٌ مؤلّهة، له الحق بالألوهية وبأن يعبد. يستلزمُ الخضوعُ للتأله والارتباطُ بتعبده؛ أقصىٰ درجة من حبه وأقصىٰ درجة من التذلل له.

في حين ربما يكون كثيرٌ من هؤلاء معذورين بكونهم علىٰ خطأ، أو بتمسكهم برأي أنَّ الألوهية هي القدرة علىٰ الخلق، ذلك؛ لأنَّ كلمة الإله لها معنىٰ اسم الفاعل النشط لـ الآله، أي: «الخالق»، ولهذا فبالنسبة للعباد كلمة «اللهم» تشير لمن «خلقهم»، وليس أنَّهم يُؤلِّهون الله. القضية بهذا المضمون قدمتها إحدىٰ طوائفهم، الأشاعرة[1] وغيرهم.

بالاطلاع علىٰ النقاط التي تثبت إمكانية حب الله (الإثباتات الواردة في الكتاب والسنة وقول السلف والشيوخ العارفين)؛ نجد مجموعة ثالثة تقرُّ بأنَّ الله يمكن حبُّهُ، لكنه نفسه لا يحب شيئًا إلا ضمن المنطق التالي: إن أراده. وبالتالي فكل الأشياء التي يريدها الله، يحبها. تلك هي طريقة كثير من أنصار النظر للعبادة وللحديث، ومنهم أبو إسماعيل الأنصاري[2] وأبو حامد الغزالي وأبو بكر بن عربي[3].

---

(١) أبو الحسن الأشعري (بصرىٰ ٢٦٠/ ٨٧٣ – بغداد ٣٢٤/ ٩٣٥) من علماء الكلام؛ راجع: .'W. MONTGOMERY WATT. EI$^2$, art. 'al - Ash'ari

(٢) أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي (من هرات ٣٩٦/١٠٠٦ – ٤٨١/ ١٠٨٩) صوفي حنبلي؛ راجع: 'S. DE BEAURECUEIL. EI$^2$. art. 'al - Ansarr'.

(٣) أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري ابن العربي (ولد في إشبيلية سنة ٤٦٨/ ١٠٧٦ وتوفي في فاس سنة ٥٤٣/ ١١٤٨) من أهل السنة كان في بغداد وتتلمذ علىٰ يد الغزالي؛ راجع:
J. Roason. EI$^2$. art. 'Ibn al - 'Arabi'

حقيقةُ هذه الأقوال تشير إلىٰ أنَّ الله يحب الكفر والعناد والعصيان، ويُسَرُّ بها. وهذا ما اشتهر من أقوال الأشعري وصحبه. فوفقًا لما جاء به أبو المعالي الجويني؛ فقد كان الأشعري أول من قال بذلك. وذكر ابن عقيل(١) ما يشبه ذلك بأنَّ أول من قال بأنَّ الله يحب الكفر والعصيان كان الأشعري ورفاقه(٢).

ربما يقولون أنَّ الله لا يحب أن يكون ذلك دينًا، ولا يُسرُّ بذلك كدين، فهو كما لو أنَّهم يقولون أنَّه لا يرغب بمكافأة من يقوم بذلك(٣). ورغم ذلك فهو يحب المعاصي لذاتها، مثلها مثل كل مخلوقاته. وبالنسبة لهم؛ فإنَّ الخلائق في الواقع يحبها الله، أي أنَّهم يقولون ليس هناك إلا إرادة واحدة، تحيط بكل الخلائق. فيكون بالنسبة لهم: كل مخلوق يحبه الله ويُسَرُّ به.

أقرت جماهير المسلمين بذلك: تُعرف السمة الفاسدة لمثل هذه الأقوال بالضرورة من دين المتمسكين بالاعترافات المتنوعة. هنالك اتفاق بين المسلمين واليهود والنصارىٰ علىٰ أنَّ: الله لا يحب الشرك، ولا يمكن بحال من الأحوال اعتبار الرسل كاذبين، كما أنَّه تعالىٰ لا يُسر بذلك؛ بل حتىٰ أنَّه يكرهه ويلعنه ويمقته.

* * *

---

(١) أبو الوفاء البغدادي الظفري (بغداد ٤٣١/ ١٠٤٠ - ٥١٣/ ١١١٩) عالم دين وفقيه حنبلي؛ راجع: 'G. MAKDISI, EI$^2$, art. 'Ibn 'Akil.

(٢) راجع: J. BELL, Love, 56 ff.

(٣) هذا هو موقع عالم الدين البصري الأشعري أبو بكر الباقلاني (توفي سنة ٤٠٣/ ١٠١٣)؛ راجع: J. BELL, Love, 57.

# الفصل التاسع:

## الإيمان والحب:
## من التوحيد النظري إلى التوحيد العملي

ما هي العبرة من اتخاذ رب وخالق واحد؛ إذا كنا سنحب ونعبد ونؤله معه من هم دونه؟ ومن جهة أخرىٰ: ماذا نفعل بحب الأنبياء وضرورة طاعتهم؟ وفقًا لابن تيمية؛ هذه الأسئلة قابلة للإجابة إن ميزنا بين الحب لله والحب مع الله، وكذلك إذا تذكرنا أن طاعة الرسول هي طاعة لله، وأن أي طاعة أخرىٰ مهما كانت ملزمة لا يجب أن تتعارض أوامرها مع الشريعة الإلهية. لذلك من وجهة نظر أوسع؛ يبدو اعتبار التوحيد مناقضًا للعالم والإنسانية تصورًا تبسيطيًا، ولكنه ممكن من خلال الطريقة التي يرىٰ فيها المسيحيون سلطاتهم وفي نظرتهم إلىٰ المسيح. والخلاصة: أن الحب في الله من خلال شريعته هو الطريق الوسط بين عدمية اللاهوت الذي يستعبد المخلوق وبين أي نوع من الناصرية. ما هو الإيمان؟ وفقا لأستاذنا في النص المترجم أدناه[1]؛ حين يكون السؤال عن الإيمان بالمطلق - أي دون ذكر

---

(١) ابن تيمية، فتوىٰ ماردين.

الإسلام أو الفعل أو الإحسان بوضوح -؛ فهو يتضمن هذه المفاهيم جميعًا. الإيمان حقا قول وعمل، الإيمان أكثر بكثير من معرفة الحق أو الاعتقاد به، فمثلًا: معرفة أن محمدًا رسول الله دون أي تبعات لذلك، أو التكبر عن اتباعه؛ ليس إيمانًا. حتىٰ يكون هناك إيمان لا بد أن يصدق العمل ما عرفه القلب من الحق. وهذا الفعل سيتجلىٰ في تصرفات المرء الظاهرة دائمًا.

ونفس الأمر ينطبق علىٰ التوحيد فهو يستتبع فعلا حقيقيًا في القلب والجوارح بالإضافة إلىٰ التوحيد بالقول والمعرفة؛ لا بد أن يكون في الحب توحيد بالفعل والإرادة أيضًا. أن يكون الدين كله لله، كما ترشد إليه سورة الإخلاص، ليس فقط أن نقر أن الله أحد، ولكن بالفعل أيضًا ألا نعبد ما يعبده الكافرون.

### تبعات الإقرار الحقيقي بوحدانية الإله.

بداية الدين ونهايته وظاهره وباطنه هو إشهار التوحيد: «أن يكون الدين كله لله»[1] هو إضفاء الواقعية علىٰ قول لا إله إلا الله.

ومع أن المسلمين جميعًا يقرون بهذا؛ فإنهم يتميزون عن بعضهم بما يضفي الواقعية علىٰ الكلام النظري، وهو ما لا يمكننا تحديده بدقة. لذلك يعتقد الكثير من المسلمين أن إشهار التوحيد ما هو إلا الإقرار به والتصديق بأن الله تعالىٰ خالقُ كل شيء وربُّه، وبهذا فهم يخلطون بين توحيد الربوبية

---

(١) انظر مثلا: سورة الزمر، الآية (٢) ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾.

- وهو ما كان المشركون العرب يقرون به -، وتوحيد الألوهية الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ. وكذلك فإنهم لا يجمعون الإقرار الفعلي إلىٰ الإقرار القولي بالتوحيد.

لم يقل المشركون أن العالم خلقه اثنان، ولا أن هناك مع الله إلها آخر خلق أي شيء بنفسه. بل علىٰ العكس، كما قال الله تعالىٰ عنهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (لقمان:٢٥)، وقال تعالىٰ أيضًا: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ (يوسف:١٠٦)، ويقول أيضًا: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ (المؤمنون:٨٤ - ٨٩)، فبينما يقرون أن الله هو الخالق الأوحد؛ فقد جعلوا معه شركاء. اتخذوهم شفعاء لهم أمام الله. قالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ (الزمر:٣)، وأحبوهم حبهم لله.

الإشراك المتعلق بالحب والعبادة والابتهال والتوسل مختلف عن الإشراك بالاعتقاد؛ كما قال ﷻ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾ (البقرة:١٦٥). وكل من يحب مخلوقًا كما يحب خالقه فقد أشرك بالله واتخذ من دونه ندًا يحبه كحب الله، حتىٰ لو أنه يُقِرُّ بأن الله هو خالقه.

## الحب في الله... شروط وحدود الطاعة.

لهذا السبب ميز الله ورسوله بين من يحب المخلوق في الله ومن يحبه مع الله. فبالنسبة للأوّل؛ الله تعالىٰ هو محبوبه ومعبوده لا يحب معه أحدًا، لكنه يحب أنبياءه وعباده الصالحين؛ لأنه يعرف أن الله يحبهم. وبشكل مشابه؛ فإنه يحب أن يلتزم أوامر الله ويجتنب نواهيه كما يحب الله. فحبه يتبع حب الله وينبثق منه ويُصَنَّف تحته. علىٰ العكس من حاله: ذلك الذي يحب مع الله ويجعل محبوبه ندًا لله ويعلق عليه آماله ويخافه أو يطيعه، دون أن يعرف أن الطاعة المفروضة عليه هي طاعة الله وحده. إنه يتخذه شفيعًا له، دون أن يعلم إن كان الله تعالىٰ قد سمح لهذا الأخير بأن يشفع له أمامه.

يقول ﷻ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (يونس:١٨)، ويقول أيضًا: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة:٣١). قال حاتم بن عدي: قلت: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدُهم! فقال: «أليس يحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرِّمونه، ويحلُّون ما حرَّم الله فتحلُّونه؟» قال: قلت: بلىٰ! قال: «فتلك عبادتهم!»[1]. يقول تعالىٰ: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ (الشورىٰ:٢١)، ويقول أيضًا: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ (الفرقان:٢٧ - ٢٩). طاعة رسول الله ﷺ

---

(١) لمرجع هذا الحديث؛ انظر: ص (٥)، الملاحظة (٢).

واجبة أيضًا، ومن يطع الرسول فقد أطاع الله. والحلال هو ما أحله، والحرام هو ما حرمه، والدين هو ما بلّغه. وكل من عداه ﷺ من علماء وشيوخ وأمراء وملوك؛ لا تجب طاعتهم ما لم تكن في طاعة الخالق، وقد أمر الله ورسولُه بطاعتهم، ولذلك؛ طاعتهم هي طاعة لرسول الله. يقول تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ (النساء:٥٩)، فكان ترتيب طاعة أولىٰ الأمر تحت طاعة رسول الله، والذي طاعته من طاعة الله، وأعاد ذكر فعل الطاعة مع الرسول وليس مع أولىٰ الأمر. من يطع الرسول حقًا فقد أطاع الله.

وليس لأحد - إن أمر الرسول بشيء - أن يتحرّىٰ إن كان الله تعالىٰ أمر به أم لم يأمر به. بينما في طاعة أولي الأمر؛ فيمكن أن يأمر هؤلاء بمعصية الله، وطاعتهم في هذه الحالة معصية لله. ولذلك؛ علىٰ المرء أن يتحرىٰ إن كانت أوامرهم في معصية الله ويتحرىٰ إن كان الله أمر بما يأمرون به أم لا، أيّا كان هؤلاء، أمراء أو علماء. وتقليد العلماء أو طاعة الحكام يندرجان تحت هذه القاعدة أيضًا.

وبهذه الطريقة؛ يكون الدين كله لله. يقول تعالىٰ: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ ﴾ (البقرة:١٩٣).

يا رسول الله: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرىٰ مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله أعلىٰ فهو في سبيل الله»[1].

---

(١) انظر: صحيح البخاري باب التوحيد، وصحيح مسلم باب الإمارة، مع نصين مختلفين قليلًا.

الكثير من الناس يحبون الحاكم أو العالم أو الشيخ أو الأمير، ويجعلونه ندا لله، ولو زعموا أنهم يحبونهم في الله. من جعل طاعة أي مخلوق أيًا كان عدا رسول الله في كل ما يأمر به وينهىٰ عنه ولو تعارض مع أوامر الله ورسوله؛ فقد جعله في الحقيقة ندًا لله ﷻ. أحيانا يعاملونهم كما عامل الناصريون المسيح: يستحضرونه ويطلبون عونه، يعادون من عاداه، ويسالمون من سالمه، ويطيعونه بما كل ما يأمر به وينهىٰ عنه، وكل ما يحلله ويحرمه، ويضعونه في مكان الله ورسوله. هذا نوع من الشرك الذي قال فيه تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾ (البقرة:١٦٥).

## التوحيد كالإيمان قول وعمل.

الإقرار بالتوحيد أو الإشراك. قول قلبي وفعل قلبي كذلك. ولهذا؛ يقول الجنيد[1]: «الإقرار بالتوحيد هو قول القلب، والثقة بالله هي عمل القلب»[2]. وقد عنىٰ بذلك أن الإقرار بالتوحيد الذي يشتمل علىٰ التصديق وإضافة الثقة إليه تجعل من التصديق أساسا للثقة. ولكن هذه الكلمات (الإقرار بالتوحيد) حين تقال لوحدها فإنها تشمل قول القلب وفعله؛ لأن

---

(١) أبو القاسم بن الجنيد (متوفى ٢٩٨ هـ/ ٩١٠ مـ) من أئمة الصوفية المعتدلين في بغداد، تلميذ سري السقطي وأستاذ الحلاج.

(٢) انظر: نص الجنيد المترجم: «الإسلام الواثق هو عمل القلب، والإقرار بالتوحيد هو كلمة العبد. ويصفو القلب حين يعرف مذهب التوحيد ويعمل وفقه».

الثقة تشارك في إنجاز الإقرار بالتوحيد. الأمر نفسه ينطبق على كلمة الإيمان حين تقال لوحدها؛ إذ تتضمن الأفعال الظاهرة والباطنة، وقد قيل: «الإيمان قول وعمل»[1]، أي: قول القلب واللسان، وفعل القلب والجوارح. انظر إلى قول الرسول عليه الصلاة والسلام في حديثه المتفق عليه: «الإيمان بضع وستون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[2]. وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (الحجرات:١٥). وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الأنفال:٢ - ٣). وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ ﴾ (النور:٦٢).

الإيمان يشتمل على الإسلام؛ ولذلك جاء في الصحيحين: أن النبي قال لوفد عبد القيس[3]: «آمركم بالإيمان بالله، هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا من المغانم الخمس»[4]. ولذلك؛ قال أحد السلف: «كل مؤمن مسلم وليس كل

---

(١) الأطروحة الحنبلية، وذكرت في صحيح البخاري.

(٢) انظر تحديدًا بابي الإيمان في: صحيحي مسلم والبخاري، مع نصين مختلفين قليلًا.

(٣) قبيلة عربية كبيرة من شرق الجزيرة العربية.

(٤) انظر تحديدًا بابي الإيمان في: صحيحي مسلم والبخاري، مع نصين مختلفين قليلًا.

مسلم مؤمنًا»، علىٰ العكس من ذلك حين تذكر كلمة الإيمان مع الفعل أو الإسلام؛ فيجب أن نميز بين الاثنين، كما في قوله تعالىٰ الذي تكرر في القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾[1]، وفي قول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح حين سأله جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان. فقال: «الإسلام: شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا». قال: وما الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره». قال: وما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[2]. في هذا النص يميز ﷺ بين الإسلام والإيمان؛ لأنه سُئل عنهما معا. وفي النص السابق[3] ضَمّن الإسلام في الإيمان؛ لأنه ذكر الإيمان وحده. والأمر ذاته ينطبق علىٰ كلمة «العمل».

## الإيمان أكثر من التصديق.

الإسلام الذي تحدثنا عنه متصل بالعمل، والعمل ضرورة لإيمان القلب وتابع له، حين يحصل إيمان القلب؛ يصبح إيمان الجوارح ضروريًا. في إيمان القلب لا بد من التصديق والالتزام دائما. إذا صدق أحدهم أن محمدًا هو رسول الله ثم نفر منه أو غار منه أو تكبر علىٰ أتباعه فإن قلبه ليس مؤمنا.

---

(١) متكررة جدا في القرآن الكريم، انظر مثلا: سورة البقرة، الآية (٢٥).

(٢) انظر تحديدًا بابي الإيمان في: صحيحي مسلم والبخاري، مع نصين مختلفين قليلًا.

(٣) أي: حديث النبي لوفد عبد القيس، انظر: ص (١٦١).

وحتىٰ لو تضمن الإيمان التصديق؛ فإنه ليس مرادفا له. لا يقول أحدنا أن أي شخص يصدق حقيقة ما هو مؤمن بها بالضرورة. أنا أصدق أن الواحد هو نصف الاثنين. وأن السماء فوقنا والأرض تحتنا. إذ قال أحدهم ما سبق أو أي شيء مما يلاحظه الناس فلا يقال عنه أنه مؤمن بهذا. لا يقول أحد هذه الكلمة إلا عن شخص يخبر عن أمر غير معروف. ولذلك يقول أخوة يوسف: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ (يوسف:١٧)؛ لأنهم أعلموا والدهم بشيء مجهول له، مميزين بذلك بين تصديق شيء والإيمان به. التعبير الأول يقال للشخص الذي يخبر، والتعبير الثاني يقال عن الخبر نفسه؛ ولذلك قال أخوة يوسف: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ (يوسف:١٧). وقال تعالىٰ: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ (يونس:٨٣). وقال أيضا: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة:٦١). ميز بين الإيمان بالله والإيمان للمؤمنين. المعنىٰ هنا: أنه يصدق المؤمنين إذا حدثوه، بينما إيمانه بالله هو الإقرار بوجوده. يقول تعالىٰ بهذا المعنىٰ علىٰ لسان فرعون وملئه: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾ (المؤمنون:٤٧). ويقول: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٧٥). ويقول أيضًا: ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ﴾ (العنكبوت:٢٦). وبمعنىٰ الكلمة الآخر يقول تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (البقرة:٣). ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ ﴾ (البقرة:٢٨٥). ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾

(البقرة:١٧٧)، بمعنىٰ: الذين يقرون بذلك. وذكر ذلك بمواضع كثيرة من القرآن الكريم.

ما نعنيه بذلك أن كلمة الإيمان تستخدم فقط عن المعلومات المؤكدة. وهي مشتقة من جذر (الأمان)[1]، كما أن (الإقرار) مشتق من (أقر) مأخوذة من التثبيت. المؤمن صاحب أمان كما المقر صاحب إقرار[2].

من وجهة النظر هذه؛ لا بد أن يعمل القلب بموجب إقراره وبما يتوافق معه. فإن كان يعلم أن محمدًا رسول الله ولكنه يحبه ولا يطيعه مهابة بل ينفر منه ويستكبر علىٰ اتباعه؛ فهو في هذه ليس مؤمنا بل كافرا. وعلىٰ هذا كان كفر إبليس وفرعون وأهل الكتاب الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم[3] وغيرهم. إبليس لم يعتبر أن المعلومات التي وصلته كاذبة ولا أن المبلغ كاذب، ولكنه تكبر علىٰ أمر ربه[4]. وقال تعالىٰ في فرعون وقومه: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (النمل:١٤)، وقال له موسىٰ: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ (الإسراء:١٠٢). ويقول تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ (البقرة:١٤٦). معرفة القلب للحقيقة

---

(١) ملاحظة لغوية لغير العرب.

(٢) محاولتنا لترجمة الدقائق المفرداتية في جدليات ابن تيمية مغامرة حرجة. أملنا أن نلقي الضوء علىٰ معاني كلمتي الإيمان والإقرار في الإسلام. الإيمان والإقرار عند ابن تيمية أكثر من مجرد معرفة الحقيقة وتصديقها بل هي مشاريع بشرية أغنىٰ من ذلك مجردًا.

(٣) مفردة قرآنية استخدمها ابن تيمية في السطور اللاحقة.

(٤) انظر قصة رفض إبليس للسجود لآدم كما أمره الله في: سورة البقرة، الآية (٣٤).

ليست ذات فائدة لصاحب المعرفة - إن لم يقرنها بفعل قلبي متوافق معها -. هذا يعني بالنسبة للقلب أن يحب الحقيقة ويتبعها. وزيادة علىٰ ذلك؛ فإن أشد الناس عذابًا يوم القيامة هو العالم الذي لم ينتفع بعلمه. وقد قال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يستجاب له، وقلب لا يخشع»[1].

لكن فرقة الجهميّة[2] رأوا من منظورهم أن معرفة القلب للحقيقة وتصديقه إياها هي الإيمان، وأن الكفر في الشرع يشير إلىٰ انعدام معرفة القلب. هذا الرأي ينبع من جهل شديد بالشرع والمنطق، وهو يتضمن بالضرورة جعل المؤمن والكافر متساويين؛ وعلىٰ هذا كَفرهم وكيع بن الجراح[3] وأحمد بن حنبل وغيرهم من الأئمة. من المعلوم بالضرورة: أنه يمكن للشخص أن يعرف الحقيقة وينفر منها لسبب أو لآخر. وأيضًا ليس كل متكبر علىٰ الحقيقة لا يعرفها. في الإيمان لا بد من أن يكون هنالك تمييز للحقيقة وعمل بها من قبل القلب. وهذا هو معنىٰ قول الأقدمين: «الإيمان قول وعمل».

---

(١) انظر: صحيح مسلم، باب الذكر، ومسند ابن حنبل، مع نصين مختلفين قليلًا.

(٢) اختزال الإيمان بالمعرفة المجردة، أكد جهم بن صفوان أن الأعمال أو حتىٰ الإقرار القولي ليس لهما أي مساهمة في الإيمان. انظر: الملل والنحل للشهرستاني.

(٣) وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي، من أكبر المحدثين في عصره، وأحد أهم شيوخ الإمام أحمد بن حنبل.

**إخلاص الدين كله لله: من إقرار القلب الكامل إلى الأفعال الواضحة.**

بناء علىٰ ذلك؛ حين يضفي القلب الواقعية علىٰ الحقيقة وعلىٰ الحب الكامل الذي يتضمن الإرادة ستلحق به الأفعال الملموسة بالضرورة. حين تجتمع القوة الكلية بالإرادة القاطعة؛ فإن الفعل الملموس يحصل بالضرورة، فإذا لم يحصل الفعل؛ فلا بد أن هناك خللًا في القوة أو خللًا في الإرادة. ولذلك؛ حين يقر القلب إقرارًا كاملًا أن محمدا رسول الله، وأنه يحبه كل الحب؛ فمن المستحيل مع ذلك ألا يدين بالشهادتين بكل قوته. ولكن إن لم تكن لديه القدرة بسبب الحمق أو الخوف فلن تكون لديه القوة ليتلفظ بهما.

مع أن أبا طالب[1] عرف أن محمدا رسول الله وأحبه فإن حبه لم يكن حبا لله. بل أحبه؛ لأنه كان ابنَ أخيه وقريبَه. وإن كان أحب ظهوره فربما أحب ما سيعود عليه من جاه وشرف. ما أحبه كان السلطة. ولذلك؛ حين اقترح النبي ﷺ عليه أن يقر بالشهادتين عند احتضاره رفض؛ لأنه اعتبر ذلك ردة عن دينه الذي أحبه. لقد أحب دينه أكثر من ابن أخيه؛ ولذلك لم يقر بالشهادتين. من المؤكد أنه كان سينطق بالشهادتين لو أنه أحبه لأنه رسول الله. هكذا أحبه أبو بكر الذي قال عنه الله تعالىٰ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ (الليل:١٧ - ٢١)[2]. وهكذا أيضا أحبه أيضا بقية من آمنوا به

---

(١) أبو طالب، عبد مناف بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ، وأبو علي، وسيد بني هاشم. حمىٰ النبي لكنه لم يعتنق الإسلام.

(٢) يزعم الشيعة أن هذه الآيات نزلت في علي. بينما أجمع علماء السنة أنها نزلت في أبي بكر،=

مثل عمر وعثمان وعلي وغيرهم. إذًا حب أبي طالب كان حبًا مع الله وليس حبًا في الله. ولذلك لم يقبل الله منه ما عمله لمساعدة النبي ودعمه؛ لأنه لم يفعل ذلك لوجه الله، والله تعالىٰ لا يقبل عملًا ما لم يكن خالصًا لوجهه الكريم. وهذا ما يقودنا إلىٰ الإدراك بأن الإيمان والإقرار بالتوحيد يجب أن يكونا دائما فعلا من القلب، أي: حبًا من القلب. والدين يجب أن يكون خالصا لله. والدين لا يكون دينا إلا بالفعل ويتضمن الطاعة والعبادة. وقد أنزل الله تعالىٰ سورتي الإخلاص، وقال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (الكافرون:١)، وقال: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص:١)، واحدة تتعلق بالإقرار بالتوحيد بالمعرفة والقول، والثانية تتعلق بالإقرار بالتوحيد بالعمل والإرادة. في الأولىٰ يقول: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (الإخلاص:١ - ٤)، وقد أمر نبيه أن يتلو هذه الآيات مقرا بوحدانيته سبحانه. وفي الثانية يقول: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (الكافرون:١ - ٦). أمره بأن يتلو هذه الآيات؛ ليتبرأ من عبادة ما سوىٰ الله ويخلص دينه لله.

* * *

=لدىٰ شرائه بلال بن رباح وإعتاقه إياه. انظر: تفسير الفخر الرازي.

# الفصل العاشر:
# العبودية في العبادة (أو اكتمال تحرر القلب)
# (النص السابع، ١٩٩٢)

انتصار القوىٰ العظمىٰ، والمبالغة في الاستهلاك، وتمجيد الحواس... ولكن ماذا لو كانت هذه «المكتسبات» في مطلع القرن الحادي والعشرين ما هي إلا إغراء وخداع؟ كما قال ابن تيمية: «يهتم الإنسان الذكي بالحقائق الواقعة وليس بالمظاهر». لو أن أحدًا كان بحماسة ابن تيمية في الحق؛ لوجد تحت كل حالة من الإطراء الخارجي عزلة وخضوعًا واستعبادًا. في الواقع، يخضع الأمير لمملوكه، ولا يكون الزوج المحب سيدًا بأي حال من الأحوال بل قد يكون أسيرًا لزوجته. كما قد يكون المرء الغارق في عواطفه أو المتعلق بأمور تافهة عبدًا لها. في الواقع، قد يكون من الأصح الحديث عن خضوع متبادل، حيث يعد إخضاع القلب أخطر من إخضاع الجسد. الشخص (في النص المترجم أدناه[1]) الذي يعبر عن نفسه في هذا السياق خبير في هذا الشأن، وقوي بعد أن عاش عدة سنوات من الاعتقال.

---

(١) جمعنا مقطعين معًا من المجلد العاشر من كتاب مجموع الفتاوىٰ (أ) من (١٧٦ - ٧٩) و(ب) من (١٨٤ - ٩١).

وعلىٰ أي حال، فاللعبة لم تنته بعد وما تزال لدينا الفرصة دومًا لتحرير النفس من هذا العالم. في الواقع، ليس كما قد يتهيَّأ للبعض أنّ باستطاعته الانسحاب من الحياة والشعور بالاكتفاء الذاتي الوهمي كأساس لقليل من الحرية اللامحدودة. فلن ينتج عمَّا يشبه التوحد وما يشبه الإدمان الميتافيزيقي (التجريدي) سوىٰ أشكال جديدة من الاستعباد، فمن الممكن للإنسان أن تستعبده نفسه كما يمكن أن يُستعبد لأي شيء أو أي شخص. في الإسلام، ليس لأحد الحرية المطلقة سوىٰ الله تعالىٰ، ويفسر ابن تيمية ذلك بأن الإنسان يمكن أن يتحرر في هذا العالم فقط بكونه عبدًا لله.

«أن تتحقق عبودية المرء لله»، أي أن يجعل من العبودية عبادة وطاعة، وأن يضع أمله كله بالله وحده، فإنه يصل بذلك إلىٰ أبعد من تحرره.

إنه يحقق بذلك الكمال لنفسه كمخلوق. في الحقيقة، ما من إلهٍ يُعبَد سوىٰ الله تعالىٰ، ولا حتىٰ المسيح، وأولئك الذين يعظمون أنفسهم بصورة كبيرة جدًا لحد العبادة مصيرهم جهنم. إذًا تعد الدعوة لعبادة الله أساس الوحي المنزل علىٰ كل الأنبياء وفاتحة خطاباتهم الدينية. وليس للشيطان والشر سيطرة علىٰ عباد الله ولا علىٰ أولياء الله؛ كما وصفهم تعالىٰ في القرآن. الحرية من خلال العبودية، والاستقلالية من خلال الخضوع، مع أنها تنطوي علىٰ مفارقة ظاهرية إلا أنها جوهر الإنسانية في الإسلام؛ لأن الإنسان لا يحرر نفسه من السلطة ومن الأشياء الخارجية ومن الآخرين ومن هواه الشخصي، إلا عن طريق تكريس نفسه لعبادة الله، أو من خلال كونه مخلَصًا لطاعة الله. وإذا حمل نفسه علىٰ «الحب في الله والبغض في الله» - بالتعبير النبوي - فإنه

سيذوق بذلك طعمًا لا يضاهىٰ من حلاوة الإيمان الحقيقي والحب، والوفاق مع مراد الله ﷻ، والتعلق بحب نبيه الكريم. إنه بفعله ذلك باختصار يأخذ ثواب الجهاد.

**اكتمال العبودية.**

كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبودية؛ ازداد كماله وعلت درجته، ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه، أو أن الخروج عنها أكمل؛ فهو أجهل الخلق وأضلهم. قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ (مريم:٨٨ - ٩٥)[١].

وقال تعالىٰ في المسيح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (الزخرف:٥٩)، وقال تعالىٰ أيضًا[٢]: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (الأنبياء:١٩ - ٢٠)، وقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا

---

(١) استشهد ابن تيمية في بداية النص ونهايته بهذا المقطع القرآني.

(٢) في كل الآيات القادمة أتت كلمة العبادة مرادفة للطاعة، والعكس بالعكس.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (النساء:١٧٢ - ١٧٣)[1]، وأيضاً: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (غافر:٦٠)، وقال: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ۩ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ﴾ (فصلت:٣٧ - ٣٨)، وقال: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۩ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ﴾ (الأعراف:٢٠٥ - ٢٠٦)[2]. ويتكرر هذا ونحوه مما فيه وصف أكابر المخلوقات بالعباد لله، وذم من يخرج عن ذلك كثيرًا في القرآن.

### الدعوة إلى العبادة من صميم الوحي.

وقد أخبرنا الله ﷻ أنه أرسل جميع الرسل بهذه الرسالة: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ (الأنبياء:٢٥)، ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ (النحل:٣٦). وقال تعالىٰ لبني اسرائيل: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ

---

(١) استشهد ابن تيمية في بداية النص ونهايته بهذا المقطع القرآني.

(٢) استشهد ابن تيمية في بداية النص ونهايته بهذا المقطع القرآني.

أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (العنكبوت:٥٦)، و﴿ وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ (البقرة:٤١)، وقال أيضًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:٢١)، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦)، وقال: ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (الزمر:١٢ - ١٥).

وكل رسول من الرسل افتتح دعوته بالدعوة إلىٰ عبادة الله، كقول نوح ومن بعده عليهم السلام: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأعراف:٥٩)، وفي المسند عن ابن عمر[1] عن النبي ﷺ أنه قال: «بُعِثْتُ بين يَدَيِ السَّاعة بالسَّيف، حتىٰ يُعبَدَ اللهُ وحدَه لا شريك له، وجُعِلَ رِزْقي تحت ظلِّ رُمْحي، وجُعِلَ الذُّلُّ والصَّغار علىٰ مَنْ خالَف أمري، ومَنْ تَشَبَّهَ بقومٍ فهو منهم»[2].

## المصطفون والمحفوظون من السيئات: عباد الله.

لقد بين الله أن عباده هم الذين ينجون من السيئات. قال الشيطان: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الحجر:٣٩)، ﴿ إِنَّ عِبَادِى

---

(١) ابن الخليفة الثاني (d.73/693) ، انظر: L. VRCCLA VAGUER, art ، عبد الله بن عمر بن الخطاب.

(٢) انظر: ابن حيان، مسند، الثاني، (٥٠، ٩٠) حديث، راجع: نص ابن تيمية المترجم من قبل Y. micigrr، النص.N,X, 6

لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾ (الحجر:٤٢)، ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ (ص:٨٢ - ٨٣).

وقال في حق يوسف: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ (يوسف:٢٤)، ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ (الصافات:١٥٩ - ١٦٠)، ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴾ (النحل:٩٩ - ١٠٠). ونعت الله كل من اصطفىٰ من خلقه بالعباد، كقوله: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۝ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾ (ص:٤٥ - ٤٧)، ﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ (ص:١٧)، وقال عن سليمان: ﴿ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ (ص:٣٠)، وعن أيوب: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾ (ص:٤١). وقال عن نوح عليه السلام: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴾ (الإسراء:٣). وقال أيضًا: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ﴾ (الإسراء:١)، ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ ﴾ (الجن:١٩)، ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا ﴾ (البقرة:٢٣)، ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴾ (النجم:١٠)، ﴿ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾ (الإنسان:٦)، ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾ (الفرقان:٦٣)، وتتكرر هذه الآيات كثيرًا في القرآن.

### أ. العبودية لله والرجاء منه.

وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه في قضاء حاجته ودفع الضرر عنه؛ قويت عبوديته له وتحرره مما سواه، فكما أن تعلق أمله في المخلوق يوجب عبوديته له؛ فإن يأسه منه يستتبع غنىٰ قلبه عنه. وقد قيل: «استغن عمن شئت تكن نظيره، وتفضلْ علىٰ من شئت تكن أميره، واحتج إلىٰ من شئت تكن أسيره»، فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه منه يوجب عبوديته له، بينما الطلب من غير الله ورجاؤه؛ يوجب انصراف القلب عن العبودية لله؛ ولا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق، بحيث يكون قلبه معتمدًا إما علىٰ منصبه وجنوده وأتباعه ومماليكه، وإما علىٰ أهله وأصدقائه، وإما علىٰ أمواله ومدخراته، وإما علىٰ ساداته وكبرائه، كسيده (بالنسبة للعبد) أو ملكه أو شيخه أو مخدومه وغيرهم، ممن ماتوا أو يموتون. قال تعالىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ (الفرقان:٥٨).

### الفرق بين العبد والسيد.

كل من علق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه أو يرزقوه أو يهدوه؛ خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميرهم المدبر لأمورهم والمتصرف بها، فالعاقل ينظر إلىٰ الحقائق لا إلىٰ الظواهر. الرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقىٰ قلبه أسيرًا لها، تحكم فيه وتتصرف بما تريد[1]، وهو في الظاهر سيدها؛ لأنه زوجها. وفي الحقيقة هو

---

(١) وفي هذا الصدد؛ ينبغي أن نذكر أن ابن تيمية لم يتزوج قط، وهو الأمر الذي أخذه البعض=

أسيرها ومملوكها، لا سيما إذا عرفت بفقره إليها، وعشقه لها، وأنه لا يعوضه عنها غيرها، فإنها حينئذ تتحكم فيه بحكم السيد القاهر في عبده المقهور، الذي لا يستطيع الخلاص منه، بل أعظم.

سيكون من المثير للاهتمام وضع نهج ابن تيمية في العلاقة بين السيد والعبد في سياق التطور التاريخي الطويل لهذه المسألة. سوف نكتفي بالتذكير بأن أفلاطون (الجمهورية، التاسع،579 د، ترجمة. JowErr، ص١٣٤١) يعتبر بالفعل أن «الطاغية الفعلي، وأيا كان ظن الرجال فيه، فهو العبد الحقيقي».

إن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن. فإن من استعبد بدنه واسترق؛ لا يبالي إذا كان قلبه مستريحًا من ذلك مطمئنًا، بل يمكنه الاحتيال للخلاص. وأما إذا كان القلب - الذي هو الملك - رقيقًا مستعبدًا، متيمًا بغير الله؛ فهذا هو الذل والأسر المحض والعبودية لما استعبد القلب.

وعبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، فإن المسلم لو أسره كافر، أو استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك إذا كان قائمًا بما يقدر عليه من الواجبات، والذي يتم استعباده ثم أدىٰ حق الله وحق مواليه؛ له أجران، ولو أكره علىٰ التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان؛ لم يضره ذلك، وأما من استعبد قلبه فصار عبدًا لغير الله؛ فهذا

---

=عليه؛ انظر: .(Y. MICHOT. Cdlibataire) انتهىٰ تعليق المؤلف، ونقول أن البعض يتلمس العذر له في حياته التي عاشها مشغولا بكتبه وردوده وفتاويه وتنقلاته وسفره وسجنه واضطهاده في أكثر من بلد وفي أكثر من مكان والله أعلم بحاله (المترجم).

يضره، ولو كان في الظاهر ملك الناس. فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنىٰ غنىٰ النفس، قال النبي ﷺ: «ليس الغنىٰ عن كثرة العرض، وإنما الغنىٰ غنىٰ النفس»[1].

## الحب الإنساني بين الخضوع والسُّكر.

وهذا لعمري إذا كان قد استعبد قلبه صورة[2] مباحة، فأما من استعبد قلبه صورة محرمة، امرأة أو شاب؛ فهذا العذاب الذي لا براء منه. وهؤلاء من أعظم الناس عذابًا وأقلهم ثوابًا، فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقًا بها، مستعبدًا منها اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد. حتىٰ لو سلم من فعل الفاحشة الكبرىٰ[3]، فهؤلاء يشبهون السكارىٰ والمجانين. كما قيل:

سكران سكر هوىٰ وسكر مدامة * ومتىٰ إِفَاقَةُ مَنْ به سكران

وقيل أيضًا:

قالوا جننت بمن تهوىٰ فقلت لهم * العشق أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه * وإنما يصرع المجنون في الحين

---

(١) انظر بشكل خاص في: البخاري، صحيح، الرقاق، الثامن (٩٥). مسلم، صحيح، الزكاة، الثالث، (١٠٠).

(٢) كلمة صورة تحتمل أيضا وصف الوجه «face» لأنها تأتي بمعنىٰ شكل «form».

(٣) هذا التعبير يعني الفجور، الزنا، الشذوذ الجنسي.

## من اتباع الهوى إلى تجربة إخلاص القلب لله.

ومن أعظم أسباب هذا البلاء: إعراض القلب عن الله، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله، والإخلاص له؛ لم يكن عنده شيء قط أحلىٰ من ذلك، ولا ألذ ولا أطيب، والإنسان لا يترك محبوبًا إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه، أو خوفًا من مكروه، فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح، أو بالخوف من الضرر. قال تعالىٰ في حق يوسف: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (يوسف:٢٤)، فالله يصرف عن عبده ما يسوءُه من الميل إلىٰ الصور والتعلق بها، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله.

ولهذا قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له، تغلبه نفسه علىٰ اتباع هواها.

فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوي في قلبه؛ خضع له هواه، ودحره بلا رجعة. قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٥)، فإن الصلاة فيها دفع للمكروه، وهو الفحشاء والمنكر، وفيها تحصيل المستحب، وهو ذكر الله، وحصول هذا المستحب أكبر من دفع المكروه، فإن ذكر الله عبادة لله، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها. وأما اندفاع الشر عنه، فهو مقصود لغيره علىٰ سبيل النتيجة. والقلب خلق يحب الحق ويريده ويطلبه، فإذا عرضت له إرادة الشر طلب دفع ذلك، فإنه يفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (الشمس:٩ - ١٠).

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ (الأعلىٰ:١٤ - ١٥). ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ ﴾ (النور:٣٠). وقال تعالىٰ أيضًا: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ (النور:٢١). فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هو أزكىٰ للنفس، وبين أن ترك الفواحش من تزكية النفوس، وتزكية النفوس تتضمن زوال جميع الشرور: من الفواحش والظلم والشرك والكذب وما إلىٰ ذلك.

**السيد والعبد.**

كذلك أيضًا طالب الرئاسة، والعلو في الأرض قلبه مسترقٌّ لكل من يعينه عليها[1]، ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم فيبذل لهم الأموال والرتب، ويعفو عنهم ليطيعوه ويعينوه. هو في الظاهر رئيس مطاع، وفي الحقيقة عبد مطيع لهم، والحق أن كلًا منهما عبد للآخر، وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله. وإذا كان تعاونهما علىٰ العلو في الأرض بغير الحق، كانا بمنزلة المتعاونين علىٰ الفاحشة أو قطع الطريق، وكل فرد منهما اتبع هواه الذي استعبده، وجعله خاضعًا للآخَر.

**الحاجات الحقيقية والحاجات المزيفة.**

وهكذا أيضًا طالب المال؛ فإن ذلك يستعبده ويسترقه. وهذه الأمور

---

(١) انظر سورة القصص، الآية (٨٣): ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

نوعان: منها ما يحتاج العبد إليه من طعامه وشرابه، ومسكنه ومنكحه ونحو ذلك. فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيه، فيكون المال[1] عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه وبساطه الذي يجلس عليه، بل بمنزلة الكنيف الذي يقضي فيه حاجته دون أن يستعبده، ذلك أن الإنسان خلق هلوعًا: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (المعارج: ٢٠ - ٢١).

ومنها ما لا يحتاج العبد إليه؛ فهذا ما لا ينبغي له أن يعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها؛ صار مستعبدًا لها وربما صار معتمدًا على غير الله فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبة من عبادة غير الله وشعبة من التوكل على غير الله، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ: «تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة»[2]، وهذا هو عبد هذه الأمور، إذا طلبها من الله وأعطاه إياها رضي، وإذا منعه إياها سخط[3].

## اكتمال الإيمان.

وإنما عبد الله من يُرضِيه ما يُرضِي الله ويسخطه ما يسخط الله، ويحب ما أحبه الله ورسوله ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي أولياء الله ويعادي

---

(١) ابن تيمية يتحدث في بعض الأحيان بإيجابية أكثر عن المال؛ انظر: الفتوى ذات الصلة لدى Y. MICHOT، Textes N.S. ii.

(٢) انظر على وجه الخصوص: البخاري، صحيح، الجهاد، الرابع (٣٤) أو الرقاق، الثامن، (٩٢). تخريجه مختلف قليلًا.

(٣) انظر: تتمة هذا الحديث، نقل فقط: «إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط».

أعداء الله تعالىٰ، وهذا هو الذي وصل إلىٰ كمال الإيمان. كما في الحديث: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطىٰ لله، ومنع لله فقد استكمل الإيمان»[1]. وقال: «أَوْثَق عُرَىٰ الْإِيمَانِ: الحبّ فِي اللهِ، والْبُغض فِي اللهِ»[2]. وفي الصحيح عن الرسول ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ؛ من كان اللهُ وَرَسُولُهُ، أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمن كان يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَمن كان يَكْرَهَ أَنْ يَرجع فِي الْكُفْرِ بعد إذ أنقذه الله منه، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلقىٰ فِي النَّارِ»[3].

فهذا وافق ربه فيما يحبه وما يكرهه؛ فكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأحب المخلوق لله لا لغرض آخر، فكان هذا من تمام حبه لله، فإن محبة من يحبهم المحبوب من تمام محبة المحبوب، فإذا أحب أنبياء الله، وأولياء الله، لأنهم أحباب الحق جَلَّ جَلَالُهُ لا لشيء آخر؛ فقد أحبهم لله لا لغيره، وقد قال تعالىٰ: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (المائدة:٥٤). وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران:٣١)، فإن الرسول يأمر بما يحبه الله، وينهي عما يبغضه الله، ويفعل ما يحبه الله، ويخبر بما يحب الله التصديق به، فمن كان محبًا لله لزم أن يتبع الرسول، فيصدقه فيما أخبر ويطيعه فيما أمر ويتأسي به فيما فعل، ومن

---

(١) انظر بشكل خاص: ابن حنبل، مسند، الثالث (٤٣٨)، و(٤٤٠). والحديث يضيف شرطا خامسا، هو النكاح في الله.

(٢) انظر: ابن حنبل، مسند، الخامس (٢٨٦). تخريجه مختلف قليلًا.

(٣) انظر: البخاري، صحيح، بشكل خاص الإيمان، الأول (١٢) تخريجه مختلف قليلًا.

فعل ذلك فقد فعل ما يحبه الله فيحبه الله. وقد جعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول، والجهاد في سبيله.

**حقيقتا الجهاد والمحبة.**

كما أن حقيقة الجهاد هي الاجتهاد فيما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح، ودفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان. وقد قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ (التوبة:٢٤)[١]، فتوعد من كان أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله والجهاد في سبيله بهذا الوعيد. بل قد ثبت عنه في الصحيح أن الرسول قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه، من ولده، ووالده، والناس أجمعين»[٢]، وأيضًا في الصحيح أن عمر بن الخطاب قال له: «يا رسول الله!، والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال: لا يا عمر! حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك. فقال: فوالله، لأنت أحب إلي من نفسي، فقال: الآن يا عمر»[٣].

كذلك حقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب، وهي موافقته في حب

---

(١) ابن تيمية يستشهد ببداية ونهاية المقطع القرآني.

(٢) انظر بشكل خاص: البخاري، صحيح، الإيمان، الأول (١٢). مسلم، صحيح، الإيمان، الأول (٤٩).

(٣) انظر: البخاري، صحيح، الإيمان، الثامن (١٢٩).

ما يحب، وبغض ما يبغض، والله يحب الإيمان والتقوىٰ ويبغض الكفر والفسوق والعصيان.

* * *

# الفصل الحادي عشر:
## الحب والشريعة
## (الصفحات ٥، ٢٠٠٠)

يتغنّىٰ بعض الناس في الإسلام - كما في الديانات الأخرىٰ - بحبهم الخالص لله، في حين يتملّصون من التسليم التام لشريعته ورسوله. يشرح ابن تيمية في النص التالي[1]، أنّ الشريعة تشمل الحب والطاعة معًا، وفي ذلك كمالها.

**تجاوزات بعض الصوفيين.**

لقد شَغَل العديد من متّبعي هذا المذهب - من خلال ادعائهم حبهم لله - أنفسَهم في نماذج متنوعة من تجاهل مسائل الدين، سواء في تجاوز حدود الله، أو إهمال حقوق الله، أو تبني ادعاءات باطلة بعيدة عن الواقع. كما في قول أحدهم: (ليس من تلاميذي من لم يكن منكم يوم القيامة شفيعًا في أهل النار، «أنا بريء منه»). بينما قال آخر: (ليس من تلاميذي من ترك أحد المؤمنين يدخل النار)[2]، قدّم الأول تلميذه كمنقذ كل أهل النار ومخرجهم

(1) MF,x. 209, 1. 1 - 213, 1. 7.

(٢) انظر: أقوال حاتم الأصم البَلْخي (d. 237/851) ، وأقوال أبي يزيد البسطامي: (عن=

منها، وقدم الثاني تلميذه وكأنّه يقي مرتكبي الكبائر من دخول النار. كما قال أحدهم: (إذا أتىٰ يوم القيامة، سأنصب خيمتي علىٰ جهنم حتىٰ لا يدخلها أحد)[1]. وسُجِّلَت تصريحات مماثلة عن شيوخ مشهورين آخرين.

تلك التصريحات إما أكاذيب نُقِلَت عنهم أو أخطاء من جانبهم. كما يمكن الإدلاء بتصريحات مشابهة في حالة الثّمل (السُّكر) وفقدان السيطرة (الغالبة) و(الفناء)، فحينها تنهار قدرة المرء علىٰ التمييز أو تضعف بشدة بحيث لا يُدرِك بعدها ماذا يقول. فالسكر سعادة مع غياب الإدراك. ولذلك، هناك مَن اعتاد من بين أولئك الناس أن يستغفر عن مثل تلك التصريحات حالما يصحو من سكره.

وأولئك المشايخ الذين يجدون السعادة في الاستماع إلىٰ قصائد الحب والرغبة، والعتاب واللوم، والغرام؛ فأهم ما يبغون الوصول إليه هو الإحساس بما يشبه السُّكر[2].

---

=أبي يزيد: أنه جاء حاتم الأصمّ زائرًا له؛ فقال حاتم: قد قلت لتلامذتي: من لم يكن منكم يوم القيامة شفيعًا في أهل النار فيدخلهم الجنة لم يكن لي تلميذًا. فقال له أبو يزيد: ولكن قد قلت أنا لهم: ليس من تلاميذي إلا من وقف يوم القيامة، فكل من أمر من الموحدين إلىٰ النار أخذ بيده وأدخله الجنة).(A. Meddeb, Dits, 56 - 57, no.66)

(١) انظر البسطامي: (وددت أن قامت القيامة حتىٰ أنصب خيمتي علىٰ باب جهنم. فسأله رجل: ولم ذاك يا أبا يزيد؟ فقال: إني أعلم أن جهنم إذا رأتني تخمد، وبذلك أكون رحمة للكائنات!).(A. Meddeb, Dits, 122, no.281)

(٢) من كتاب السماع، من المتوقع أن يؤدي «الاستماع الروحي» للشعر وللموسيقىٰ إلىٰ النشوة. انظر: ابن تيمية، سماع، ترجمة Michot ، الموسيقىٰ.

ولذلك؛ أنزل الله في موضوع الحب شرطًا لإثبات حبه، بقوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٣١). إذًا لن يُحبَّ الله إلا من يتبع رسوله. وأن تطيع الرسول وتتبعه يعني أن تؤدي العبودية الحقيقية. الكثير ممَّن يدَّعون حبه يخرجون عن شريعته وعن سنته ويطرحون ادعاءات لا تدع مجالًا للشك. ووصلوا إلىٰ حد أنّ أحدهم قد يقوم بكل ما يتعارض مع شريعة الرسول وسنته وطاعته، كمَن يعتقِد بأنّ الأمر الإلهي يهفو، وأنّ ما هو محرم علينا حلال له، وغير ذلك. علىٰ العكس تمامًا، يعد حب الله وحب رسوله مماثلًا للجهاد في سبيله. يشمل هذا الجهاد الحب المطلق لأوامر الله والكره المطلق لما حرَّمه الله. ولذلك؛ قال تعالىٰ في وصف أولئك الذين يحبهم ويحبونه: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (المائدة: ٥٤).

ولهذا السبب؛ يعد حب أولئك العامة لله أكثر كمالًا من حب المذكورين أعلاه، وأكثر مَنْ يمثل أولئك العامة هم صحابة محمد ﷺ. وأكثر مَنْ يُشبههم، من يكون ذلك الحب والعبودية أكثر كمالًا فيه. إذًا، ماذا يتوفر من هذا النوع من الحب والعبودية لدىٰ مُدَّعي الحب؟

**«نار تحرق في القلب...»**.

وفي كلام أحد الشيوخ: (المحبة نار تحرق في القلب ما سوىٰ مراد المحبوب)[1]. وأرادوا أن كل هذا الكون قد أراد الله وجوده، فظنوا أن

---

(١) أعطي هذا التعريف بصورة غير مفهومة في رسالة أبو القاسم القشيري (١٤٦)، trans =

كمال المحبة أن يحب العبد كل شيء حتىٰ الكفر والفسوق والعصيان. ولا يمكن لأحد أن يحب كل موجود؛ بل يحب ما يلائمه وينفعه، ويبغض ما ينافيه ويضره. ولكن استغلوا هذا الضلال لاتباع أهوائهم، فهم يحبون ما يهوونه، كالوجوه الجميلة، والرئاسة، والمال الوفير، والبدع المضلة، زاعمين أن كل هذا من محبة الله. بينما من محبة الله: بغض ما يبغضه الله ورسوله، وجهاد بالنفس والأهل والمال ضد ما يبغضه الله ورسوله.

وجه الغلط في قول أحدهم: «المحبة نار تحرق ما سوىٰ مراد المحبوب»: أنه يقصد في ذلك «مراد الله تعالىٰ»؛ فلله تعالىٰ إرادتان، إرادة كونية (ومنها تقديره وسماحه بوقوع الشر والمعاصي رغم أنه يبغضها ويكرهها وينهىٰ عنها ولكن لا بد من وقوعها لإقامة الحجة علىٰ أصحابها)[1] وإرادة دينية شرعية (وهي ما يحبه تعالىٰ ويرضاه ويأمر به الناس من الخير). ومن هنا كان كمال المحبة أن تحب ما يحب الله ويأمر به، وأن تكره ما يكرهه الله وينهىٰ عنه، وليس أن تحب ما يكره الله وينهىٰ عنه بزعم أنه طالما خلقه فهو يحبه!

ومن النقاط الفاصلة بين محبي الله الذين يحبهم ويحبونه، وبين أولئك الذين يدَّعون حبه وتقتصر علاقتهم بربوبيته[2]؛ هي اتباع الشريعة والجهاد.

---

=رسالة حروري (٣٩٠). انظر أيضًا: ابن تيميةMF ، الباب الأول (٢٠١).

(١) وهذا يعني أن ما يحصل من شر بأمر الله، ومن قضائه وقدره، ومن إرادة الله الكونية في خَلْقه.

(٢) هذا يعني عدم الاتكال علىٰ الله في أي شيء إلا لربوبيته وإرادته الخلاقة في الشر كما في=

**ادعاءات اليهود والنصارى عن حب الله.**

يرتبط ادعاء محبة الله هذا بنوع محبة الله التي يدعيها اليهود والنصارىٰ، أو بالأحرىٰ قد يكون ادعاء أولئك الناس أسوأ مما ادعاه اليهود والنصارىٰ؛ نظرًا لما يحملون من نفاق، ثم يجدون أنفسهم ﴿ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (النساء:١٤٥). كذلك قد يكون ادعاء اليهود والنصارىٰ أيضًا أسوأ من ادعائهم؛ نظرًا لعدم وصولهم بعد إلىٰ ما يشبه كفر الأولين.

تتفق التوراة والإنجيل في بعض الأمور بخصوص احترام حب الله، وتعد أوامر الشريعة (الناموس) الأكثر أهمية بينها[1]. كذلك تجد في الإنجيل قول المسيح: «فَقَالَ لَهُ يَسُوع: تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ. هذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الأُولَىٰ وَالْعُظْمَىٰ»[2]. الآن، يدَّعي النصارىٰ أنهم يعيشون هذا الحب ويمارسون الزهد ويتعبَّدون كجزء من ذلك. لكنهم بعيدون عن حب الله طالما أنهم لا يتبعون ما يحب. علىٰ العكس من هذا، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ (محمد:٢٨).

يكره الله الكافرين ويبغضهم ويلعنهم، ويحب ﷻ من يحبونه. من غير الممكن أن يحب العبدُ اللهَ ولا يحبَّه اللهُ تعالىٰ. بالأحرىٰ، يتناسب حب الله

---

=الخير، دون الاهتمام بألوهيته وإرادته الكاشفة في جلب الخير ومنع الشر.

(١) الناموس، وتعني باليونانية nomos «الشرع»؛ انظر: سفر التثنية Deuteronomy ، 5 :6، والنص المترجم أعلاه ص (١٤٤).

(٢) انظر: إنجيل متىٰ، (٢٢: ٣٧ – ٣٨)، والنص المترجم أعلاه ص (١٤٤).

مع حب العبد لربه، مع أنّ الثواب المعطىٰ من الله لعبده أكبر. لذا نجد في الحديث القدسي الشريف يقول الله تعالىٰ: «وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»(1).

كما يخبرنا سبحانه أنه يحب الأتقياء والمحسنين والصابرين، وأنه يحب التوابين، وأنه يحب المتطهرين. إضافة إلىٰ أنه يحب مَن يؤدي أوامره؛ وهي الأعمال المفروضة والمستحَبَّة. وهذا ما نجده في الحديث القدسي: «مَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»(2).

**إسلام بعض الصوفيين «النصارىٰ».**

يقع الكثير ممن يخطئ ويتبع بعض المشايخ في زهدهم وتعبُّدهم في ذات الأمور التي يقع فيها النصارىٰ: مثل ادعاء حب الله بينما يعارضون شريعته، ويتخلفون عن الجهاد في سبيله، وغيرها. ويتقربون إلىٰ الله دينيًا من

---

(1) انظر: صحيح البخاري، التوبة، الباب التاسع (١٥٧، ١٢١). صحيح مسلم، التوبة، الباب الثامن (٩١). عن هذا الحديث القدسي؛ انظر: W. A. Graham, Divine, 127 - 128, no. 12

(2) انظر: صحيح البخاري، كتاب الرقاق، الباب الثامن، ١٠٥. مسند ابن حنبل، الباب السادس (٢٥٦). النصوص المترجمة أعلاه ص (٢٣ - ٢٤)، (٨٥ - ٩٤). لم يستشهد ابن تيمية هنا بكامل الحديث بل كتب ببساطة: «وبقية الحديث».

خلال تمسُّكِهم بأشياء مشابهة لتلك التي يتمسَّك بها النَّصارىٰ: لديهم لغة غامضة وقصص مؤلِّفُها غير معروف بصدقِه، وحتىٰ في حال كان مؤلفُها صادقًا فهو غير معصوم عن الخطأ. إنهم يصنعون ممَّن يتبعونهم مُشرِّعين لدينهم تمامًا كما يصنع النصارىٰ مِنْ كهَنَتهم ورُهبانهم مشرِّعين للدين. إنهم يستهترون بعبوديتهم ويدَّعون أنّ الخاصة فوق ذلك كله، تمامًا كما يدّعي النصارىٰ بخصوص السيد المسيح. بالنسبة للخاصَّة، يؤكدون علىٰ وجود علاقة مع الله كتلك التي يؤكد النصارىٰ علىٰ وجودها مع المسيح وأمه. وهناك أنواع أخرىٰ من العلاقات التي لن يتسنَّىٰ لنا شرحها هنا.

إذًا يقتصر الدين الحق علىٰ تأدية عبوديتنا الحقيقية باحترام الله من كل جوانبها، وممارسة حبنا الحقيقي لله في كل مرحلة. ففي مقياس العبودية الكاملة يكون حب العبد لربه مطلقًا وحب الرب لعبده مطلقًا، وفي مقياس العبودية الناقصة يكون حب العبد لربه ناقصًا أيضًا.

* * *

# الفصل الثاني عشر:

# سيد بني آدم

# (الصفحات ٧، ٢٠٠٠)

يتحدث بعض الناس عن الأزمان قبل وجود النبي عليه الصلاة والسلام وقبل آدم، ويرون في النبي سبب الخَلْق بذاته. ومع ذلك؛ يصرّ ابن تيمية في الفتوىٰ[1] التالية علىٰ إنسانية الرسول المخلوق من نطفة بطريقة طبيعية، وعلىٰ علو شأنه الفائق الذي يجعله سيد بني آدم وأفضل من الملائكة. ومع أن نبوته لم تبدأ حتىٰ القرن السابع؛ إلا أنها تحتمت سلفًا وكُتبت من قِبَلِ الله حينما كان آدم لا يزال منجدلًا في طينته، حيث إنها تدل علىٰ إتمام الخلق.

## خُلق آدم من طين ولكنه أفضل من الملائكة.

[سؤال]. هل خُلق النبي ﷺ من النور[2]؟ أم خُلق من العناصر الأربعة؟

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوىٰ، الجزء الحادي عشر، ١،٨٦. ١٥ - ٨٧، ١. ١؛٩٤،١. ١٤ - ٩٩، ١ . ٨. هذا جزء واحد من الفتوىٰ.

(٢) يرتبط هذا السؤال بموضوع «الحقيقة المحمدية» عند استجرار موضوع «النور المحمدي» الذي يأتي أصلًا من تسمية النبي في سورة الأحزاب، الآية (٤٦) بـ«السراج=

أم من غير ذلك؟ وهل الحديث الذي يذكره بعض الناس: «لولاكَ ما خلق الله عرشًا، ولا كرسيًا، ولا أرضًا، ولا سماءً، ولا شمسًا، ولا قمرًا ولا غير ذلك»[1] صحيح هو أم لا؟

---

=المنير». يربط عدة مؤلفين متصوفين خلق النبي ونوره بنور الله، وقد أورد سهل التستري (توفي في البصرة عام ٢٨٣ هـ ٨٩٦ م) علىٰ سبيل المثال: أنه قد أُعلم من الخضر بأن الله قد خلق نور محمد من نوره. ويعتبر الحلاج المشكاة المذكورة في الآية القرآنية (٣٥) من سورة النور تمثل شخص النبي، والمصباح في نفس الآية يمثل النور المحمدي؛ انظر: م. شودغيفيتش، الختم sceau، (٧٩ - ٩٤).

(١) لقد انتقل هذا الحديث الكاذب بشدة بصيغ عديدة مختلفة، وهنا مثالان عنه:
«كان الحب الصافي فريدًا مع محمد، وقال له الله حبًا به: لولاكَ...» ولما كان وحده المقصود المطلق بالح؛، فقد ميزه الله عن باقي الأنبياء، بقوله: «إذا لم يكن لأجل الحب الصافي، فكيف أُوجد السماوات؟» (جلال الدين الرومي، المثنوي، ترجمة دي فيتراي مايروفيتش ومورتازافي، البحث quete، الجزء الخامس (١٢٧٠)، الأبيات الشعرية ٢٧٣٧ - ٢٧٣٩).
«لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد إلا غفرت لي. فقال الله: يا آدم، وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه؟ قال: يا رب، لأنك لما خلقتني بيدك، ونفخت فيّ من روحك، رفعت رأسي، فرأيت علىٰ قوائم العرش مكتوبًا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضف إلىٰ اسمك إلا أحب الخلق إليك. فقال الله: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إلي، ادعني بحقه، فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك». أورد الحاكم* هذا الحديث في المستدرك وقال بأنه صحيح، وهذا ممَّا أُنكر علىٰ الحاكم، ففي المستدرك عدة أحاديث أقر بأنها صحيحة مع أنها بالنسبة لأئمة عِلْم الحديث موضوعة (ابن تيمية، مجموع الفتاوىٰ، الجزء الأول، ٢٥٤ - ٢٥٥).
* أبو عبد الله محمد، الحاكم النيسابوري (توفي ١٠١٤ هـ/ ٤٠٥ م) وقد اشتهر بكونه من=

[الجواب]: خُلق النبي ﷺ مما يخلق منه البشر، ولم يخلق أحد من البشر من نور، بل قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله خلق الملائكة من نور؛ وخلق إبليس من مارج من نار؛ وخلق آدم مما وصف لكم»[1]. وليس تفضيل[2] بعض المخلوقات علىٰ بعض باعتبار ما خلقت منه فقط؛ بل قد يخلق المؤمن من كافر، والكافر من مؤمن، كابن نوح منه وكإبراهيم من آزر، وآدم خلقه الله من طين[3]، فلما سواه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له الملائكة، وفضله عليهم بتعليمه أسماء كل شيء[4]، وبأنْ خلَقَه بيديه[5]، وبغير ذلك؛ فهو وصالحو ذريته أفضل من الملائكة؛ وإن كان هؤلاء مخلوقين من طين، وهؤلاء من نور.

وهذه «مسألة كبيرة» مبسوطة في غير هذا الموضع، فإن فضل بني آدم هو بأسباب يطول شرحها هنا. وإنما يظهر فضلهم إذا دخلوا دار القرار[6]:

---

=المقلدين، وهو صاحب كتاب المستدرك علىٰ الصحيحين، جمع فيه الأحاديث التي اعتقد أنها صحيحة علىٰ شرط الشيخين البخاري ومسلم أو أحدهما ولم يروها الشيخان في صحيحيهما؛ انظر: ج. روبسون،EI، مقالة: الحاكم النيسابوري.

قُدِّم حديث لولاكَ الكاذب أيضًا بصيغة حديث قدسي: لولاكَ ما خلقتُ الأفلاك؛ انظر: أ. شيميل، محمد (١٣١، ١٣٥، ٢٠١)؛ س. تورتيل، كتاب البدائيات (٧٥، ١٧٥، ٢٣٨).

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الزهد، ٨. ٢٢٦. الحديث عن الجن وليس عن إبليس.

(٢) ما يميز آدم وأبناءه أقل شأنًا جوهريًا من حقيقة كونهم المقصودين تحديدًا من نعمه تعالىٰ.

(٣) انظر: سورة الأعراف، الآيتان (١٢ - ١٣).

(٤) انظر: سورة البقرة، الآية (٣١).

(٥) انظر: سورة ص، الآية (٧٥).

(٦) انظر: سورة غافر، الآية (٣٩).

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ (الرعد:٢٣ - ٢٤)، والآدمي خلق من نطفة، ثم من علقة[1]، ثم انتقل من صغر إلىٰ كبر، ثم من دار إلىٰ دار، فلا يظهر فضله وهو في ابتداء أحواله، وإنما يظهر فضله عند كمال أحواله، بخلاف المَلَك الذي تشابه أول أمره وآخره. ومن هنا غلط من فضّل الملائكة علىٰ الأنبياء؛ حيث نظر إلىٰ أحوال الأنبياء، وهم في أثناء الأحوال، قبل أن يصلوا إلىٰ ما وعدوا به في الدار الآخرة من نهايات الكمال.

وقد ظهر فضل نبينا علىٰ الملائكة ليلة المعراج لما صار بمستوىٰ يسمع فيه صريف الأقلام، وعلا علىٰ مقامات الملائكة، والله تعالىٰ أظهر من عظيم قدرته وعجيب حكمته من صالحي الآدميين من الأنبياء والأولياء ما لم يظهر مثله من الملائكة، حيث جمع فيهم ما تفرق في المخلوقات. فخلق بدنه من الأرض، وروحه من الملأ الأعلىٰ[2]، ولهذا يقال: هو العالم الصغير، وهو نسخة العالم الكبير.

**لولاك...**

ومحمد سيد ولد آدم، وأفضل الخلق، وأكرمهم عليه. ومن هنا قال من قال: إن الله خلق من أجله العالم، أو أنه لولا هو لما خلق عرشًا، ولا كرسيًا،

---

(١) انظر سورة المؤمنون، الآيتان (١٣ - ١٤): ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا ...﴾ يعكس ابن تيمية التتالي القرآني: العلقة - المضغة.

(٢) انظر: سورة الصافات، الآية (٨).

ولا سماء ولا أرضًا ولا شمسًا ولا قمرًا. لكن ليس هذا حديثًا عن النبي ﷺ لا صحيحًا ولا ضعيفًا، ولم ينقله أحد من أهل العلم بالحديث عن النبي ﷺ، بل ولا يعرف عن الصحابة، بل هو كلام لا يعرف قائله. ويمكن أن يفسر بوجه صحيح كقوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ (الجاثية:١٣)، وقوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (إبراهيم:٣٢ - ٣٤)، وأمثال ذلك من الآيات التي يبين فيها أنه خلق المخلوقات لبني آدم. ومعلوم أن الله فيها حكمًا عظيمة غير ذلك، أو أعظم من ذلك. ولكن يبين لبني آدم ما فيها من المنفعة، وما أسبغ عليهم من النعمة.

فإذا قيل: فعل كذا لكذا، لم يقتضِ ألا يكون فيه حكمة أخرىٰ. وكذلك قول القائل: لولا كذا ما خلق كذا، لا يقتضي ألا يكون فيه حكم أخرىٰ عظيمة، بل يقتضي إذا كان أفضل صالحي بني آدم محمد، وكانت خلقته غاية مطلوبة، وحكمة بالغة مقصودة أعظم من غيره، صار تمام الخلق، ونهاية الكمال، حصل بمحمد ﷺ.

والله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وكان آخر الخلق يوم الجمعة، وفيه خلق آدم وهو آخر ما خلق، خلق يوم الجمعة بعد العصر في آخر يوم الجمعة. وسيد ولد آدم هو محمد ﷺ، وآدم ومن دونه تحت لوائه. قال ﷺ: «إني عند الله لمكتوب خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته»[1]،

---

(١) انظر: مسند ابن حنبل (٤. ١٢٧). مما يروونه عنه ﷺ: «كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين»،=

أي: كُتِبت نبوتي وأُظْهِرت لما خلق آدم قبل نفخ الروح فيه كما يكتب الله رزق العبد وأجله وعمله وشقيًا أو سعيدًا؛ إذا خلق الجنين قبل نفخ الروح فيه[1]،

---

=وكنت نبيًا وآدم لا ماء ولا طين». أجاب ابن تيمية: الحمد لله، هذا اللفظ كذب باطل، ولكن اللفظ المأثور الذي رواه الترمذي وغيره أنه قيل: يا رسول الله، متىٰ كنت نبيًا؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد»*، وفي السنن عن العِرباض بن سارية**، أنه قال: «إني عند الله لمكتوب خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته» (ابن تيمية، مجموع الفتاوىٰ، ١٧. ٣٧٩ - ٣٨٠).

* انظر: سنن الترمذي، كتاب المناقب، الجزء (٥، ٢٤٥)، رقم (٣٦٨٨).

** صحابي توفي عام ٧٥هـ/ ٦٩٤م.

(١) وأما ما يرويه هؤلاء الجهال كابن عربي في الفصوص* وغيره من جهال العامة: «كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين»، «كنت نبيًا وآدم لا ماء ولا طين»، فهذا لا أصل له ولم يروه أحد من أهل العلم الصادقين، ولا هو في شيء من كتب العلم المعتمدة بهذا اللفظ، بل هو باطل، فإن آدم لم يكن بين الماء والطين قط، فإن الله خلقه من تراب، وخلط التراب بالماء حتىٰ صار طينًا، وأيبس الطين حتىٰ صار صلصالًا كالفخار، فلم يكن له حال بين الماء والطين مركب من الماء والطين، ولو قيل: بين الماء والتراب لكان أبعد عن المحال، مع أن هذه الحال لا اختصاص لها، وإنما قال: «بين الروح والجسد»، وقال: «وإن آدم لمنجدل في طينته»؛ لأن جسد آدم بقي أربعين سنة قبل نفخ الروح فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ (الإنسان: ١)، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ (الحجر: ٢٨ - ٢٩)، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ﴾ (السجدة: ٧ - ٩)، وقال تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ (ص: ٧١ - ٧٢). والأحاديث في خلق آدم ونفخ الروح فيه مشهورة في كتب الحديث والتفسير وغيرهما. فأخبر ﷺ أنه=

فإذا كان الإنسان هو خاتم المخلوقات وآخرها، وهو الجامع لما فيها، وفاضله هو فاضل المخلوقات مطلقًا، ومحمد إنسان هذا العين، وقطب هذه الرحىٰ، وأقسام هذا الجمع كأنها غاية الغايات في المخلوقات، فما ينكر أن

---

=كان نبيًا، أي: كنت نبيًا وآدم بين الروح والجسد. وهذا - والله أعلم -؛ لأن هذه الحالة فيها يقدر التقدير الذي يكون بأيدي ملائكة الخلق، فيقدر لهم ويظهر لهم، ويكتب ما يكون من المخلوق قبل نفخ الروح فيه، كما أخرج الشيخان في الصحيحين وفي سائر الكتب الأمهات: حديث الصادق المصدوق، وهو من الأحاديث المستفيضة التي تلقاها أهل العلم بالقبول وأجمعوا علىٰ تصديقها، وهو حديث الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقال: اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح»، وقال: «فوالذي نفسي بيده، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينها وبينه إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة»**. فلما أخبر الصادق المصدوق أن الملك يكتب رزقه وعمله وأجله وشقيا أو سعيدا بعد خلق الجسد وقبل نفخ الروح، وآدم هو أبو البشر، كان أيضًا من المناسب لهذا أن يكتب بعد خلق جسده، وقبل نفخ الروح فيه ما يكون منه، ومحمد ﷺ سيد ولد آدم فهو أعظم الذرية قدرًا وأرفعهم ذكرًا. فأخبر ﷺ أنه كتب نبيًا حينئذ، وكتابة نبوته هو معنىٰ كون نبوته، فإنه كون في التقدير الكتابي، ليس كونًا في الوجود العيني؛ إذ نبوته لم يكن وجودها حتىٰ نبأه الله تعالىٰ علىٰ رأس أربعين سنة من عمره ﷺ. (ابن تيمية، مجموع الفتاوىٰ، الجزء ٢، ١٤٧ - ١٤٨، انظر أيضًا: الجزء ٢، ٢٣٧ - ٢٣٨، الجزء ١٨، ٣٦٩ - ٣٧٠). *انظر: م. شودغيفيتش، الختم sceau، (٨٩ - ٩٠).

** انظر: صحيح البخاري، كتاب التوحيد (٩. ١٣٥)؛ صحيح مسلم، كتاب القدر (٨. ٤٤)؛ مسند ابن حنبل (١. ٣٨٢).

يقال: إنه لأجله خلقت جميعها، وأنه لولاه لما خلقت، فإذا فسر هذا الكلام ونحوه بما يدل عليه الكتاب والسنة؛ قُبِل ذلك.

**«لا تطروني...»**.

وأما إذا حصل في ذلك غلة من جنس غلة النصارىٰ بإشراك بعض المخلوقات في شيء من الربوبية؛ كان ذلك مردودًا غير مقبول، فقد صح عنه ﷺ أنه قال: «لا تطروني كما أطرت النصارىٰ عيسىٰ ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله»[1]، وقد قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ ﴾ (النساء:١٧١).

والله قد جعل له حقًا لا يشركه فيه مخلوق فلا تصح العبادة إلا له، ولا الدعاء إلا له، ولا التوكل إلا عليه، ولا الرغبة إلا إليه، ولا الرهبة إلا منه، ولا ملجأ ولا منجىٰ منه إلا إليه[2]، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا حول ولا قوة إلا به، ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ ﴾ (سبأ:٢٣)، ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾ (البقرة:٢٥٥)، ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ۝ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾ (مريم:٩٣ - ٩٥).

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأنبياء (٦. ١٦٧)؛ مسند ابن حنبل (١. ٢٣).

(٢) انظر سورة التوبة، الآية (١١٨): ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (النور:٥٢)، فجعل الطاعة لله وللرسول، وجعل الخشية والتقوىٰ لله وحده، وكذلك في قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ (التوبة:٥٩)، فالإيتاء لله والرسول، وأما التوكل فعلىٰ الله وحده، والرغبة إلىٰ الله وحده.

***



# الفصل الثالث عشر:

# «تبجيل» النبي

يعدّ الإيمان بالرسل - ولا سيَّما آخرُهم ﷺ - ركنًا أساسيًا بامتياز في الإسلام والسنة النبوية الشريفة. لكن لا بدَّ من فهم مكانة النبي الحقيقية في سبيل إيجاد الصراط المستقيم. فالنبي بحد ذاته لا يختلف عن عباد الله، ولا يمكن تأليهه بأي شكل من الأشكال. يقال: بأنَّه يتمتع بحقوق خاصة محددة، وأنَّ على كل مؤمن احترامه بضوابط دينية: طاعته، وحبه، ونصرته، واتخاذه مثلًا أعلى، وغيرها... وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن يُعبَد، أو يُدعَى، أو يُستغاث به... يوضح ابن تيمية في النص التالي[1] تفاصيلَ مفيدة حول معنى «تبجيل» النبي وحدود المسلم في ذلك.

## الصراط المستقيم، بين مخاطر الانحراف إلى «التهويد» أو «التنصير».

قال الله ﷻ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (الفاتحة: ٦ - ٧).

---

(١) الملخص المترجم لابن تيمية (٦٤ - ٧٠).

كما ورد في الصحيح عن النبي ﷺ، أنه قال: (اليهود هم المغضوب عليهم، والنصارىٰ هم الضالون)[1]. وثبت ذلك في كتاب الله في أماكن متعددة، علىٰ سبيل المثال: قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ (المائدة:٦٠). ومن كلماته أيضًا: ﴿ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ ﴾ (البقرة:٩٠). ومن كلماته: ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ﴾ (آل عمران:١١٢).

وقال أيضًا فيما يخص النصارىٰ: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (المائدة:٧٧). ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ ﴾ (النساء:١٧١). وقال تعالىٰ أيضًا: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة:٣٠ - ٣١). كما قال تعالىٰ: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:٧٩ - ٨٠). وقال تعالىٰ أيضاً: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا

---

(١) انظر: الترمذي، السنن، التفسير، المجلد (٢٧٢)، ص (٤٠٣٠).

تَحْوِيلاً ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ (الإسراء:٥٦ - ٥٧).

لقد أمرنا الله سُبحانه أن نسأله في كل صلاة الهداية إلىٰ الصراط المستقيم، وهو ذاك الصراط الذي أنعم الله به علىٰ النبيين والصدّقين والشهداء والصالحين؛ تمييزًا لهم عن أولئك المغضوب عليهم وأولئك الضالين.

وهناك خوف واضح من انحراف العبدِ إلىٰ أيٍّ منهما. وهو بالفعل ما حدث كما أبلغنا الرسول ﷺ، عندما قال: (لَتَتبِعُن سَنَنَ مَن قَبلَكُم شِبرًا بِشِبرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتىٰ لَو دخلوا جُحرَ ضَب لَاتبعتموهم، قُلنَا يَا رَسُولَ اللهِ: اليَهُودَ، وَالنصَارَىٰ؟ قَالَ: فَمَن؟) حديث صحيح[1].

لوحظ قديمًا حالات انحراف بين الفقهاء عن الصراط المستقيم إلىٰ ما يشبه اليهودية، وحالات انحراف بين المحبين إلىٰ ما يشبه النصرانية. حيث لوحظ لدىٰ أتباع المعرفة (الفقهاء والعلماء) المنحرفين شيء من تحريف الكلمات عن مواضعها[2]، وقسوة القلب، وقلة المعرفة، والتكبّر، وأنهم يحثون الناس علىٰ الاستقامة في حين ينسَون أن يحثوا أنفسهم... إلخ. بينما لوحظ لدىٰ ملتزمي العبادة والروحانيات مغالاة تجاه الأنبياء والصالحين،

(١) انظر: صحيح البخاري، قسم الأنبياء، الرابع (١٦٩)، صحيح مسلم، قسم الفقه، الثامن. (٥٧)، مُسند ابن حنبل، الرابع (١٢٥).

(٢) انظر: سورة النساء، الآية (٤٦) ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾، وسورة المائدة، الآية (١٣) ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾. وعن التحريف وفقًا لابن تيمية؛ انظر: Th. MICHEL، الاستجابة (١٧ - ١١٢)، وترجمت فيه عدة مسارات (٥٤ - ٢١٠).

وابتداع في العبادات، سواء كان ذلك بالرهبانية أو من حيث التصاوير أو الأصوات[1].

**«عبدُ الله ورسوله».**

قال رسول الله ﷺ حول هذا الموضوع: «لاَ تُطرُونِي، كَمَا أَطرَت النصَارَىٰ ابنَ مَريَمَ، فَإِنمَا أَنَا عَبدُهُ، فَقُولُوا عَبدُ اللهِ، وَرَسُولُه»[2]. ولذلك أكد الله أنه يتمتع بسمة العبودية بأسمىٰ معانيها (الروحانية)، في قوله: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلاً ...﴾ (الإسراء:١). أيضًا في قوله ﷻ: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ (النجم:١٠). وبالمثل قوله ﷻ: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ (الجن:١٩). ولذلك يُسَنُّ شرعًا قول الشهادة التالية أثناء التشهد في الصلاة (التشهد)، كما تُقال بمناسبة الخُطَب الشرعية مثل خطبة يوم الجمعة، وفي أيام العيد، وفي بعض الأحيان في خطب حفلات الزفاف، وما إلىٰ ذلك: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله».

وأكد رسول الله ﷺ أننا عباد لله وحده، وينبغي ألَّا يقع المجتمع في الخطأ الذي وقع فيه النصارىٰ؛ وهو الإصرار علىٰ تأليه المسيح. ونذكر هنا ما قاله له رجل، ففي الحديث: (أن رجلا قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت.

---

(١) الإشارة إلىٰ استخدام الفنون البصرية والموسيقية في الطقوس والقداس المسيحي، عُثِرَ علىٰ ذلك أيضًا في أشكال معينة من الصوفية: الاحتفالات الروحانية (السماع)، شاهد - بازي.

(٢) انظر: صحيح البخاري، قسم الأنبياء، الرابع (١٦٧)، مُسند ابن حنبل، الأول (٢٣).

فقال :أجعلتني لله ندا؟ ما شاء الله وحده)[1]. وبالمِثْل قال لأصحابه: (لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمّد، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمّد)[2]. وقال أيضًا: (لا تجعلوا بيوتكم قبورا، ولا تجعلوا قبري عيدا، وصلوا علي؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم)[3]. وأيضًا: (اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَىٰ قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)[4]. (ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك)[5].

وبالفعل، نظرًا لمغالاة المجتمع في ذلك ظهر مجموعتان: مجموعة من الشيعة في ضلال؛ لكونهم يؤمنون بألوهية الأنبياء والأئمة من آل البيت، ومجموعة من المتصوفين يؤمنون بشيء من هذا القبيل فيما يتعلق بالأنبياء والصالحين.

فإنَّ أي شخص يتخيل أن النبي محمدًا أو غيره الأنبياء يرقىٰ إلىٰ الألوهية أو الربوبية فهو سالك سبيل النصارىٰ.

### حقوق الرسول.

في الواقع، تقتصر حقوق الأنبياء علىٰ تلك المُشار إليها في القرآن والسنة.

---

(١) انظر: مسند ابن حنبل، الأول (٢١٤).

(٢) انظر: الدرامي، سنن، الثاني (٢٩٥)، مسند ابن حنبل، الثالث (٧٢).

(٣) انظر: أبو داوُد، سنن، مناسك، الثاني (٢١٨ و٢٠٤٢)، مسند ابن حنبل، الثاني (٣٦٧).

(٤) انظر: مالك، الموطأ، سفر، الأول (١٨٨ - ٨٩ و٤١٦)، مسند ابن حنبل، الثاني (٢٤٦).

(٥) انظر: صحيح مسلم، المساجد، الثاني (٦٨).

قال تعالىٰ في أخذ ميثاق بني إسرائيل: ﴿ ...وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ (المائدة:١٢).

«التعزير» يعني: المناصرة والتوقير والدعم.

وقال تعالىٰ أيضًا: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ...﴾ (الفتح:٨ - ٩)؛ وهذا حق الرسول علينا. وتُحَدِّثُنا الآيات بعد ذلك عن حق الله ﷻ: ﴿... وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (الفتح: ٩). كما قال تعالىٰ: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف:١٥٦ - ١٥٧). كما قال ﷻ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران:٣١ - ٣٢). ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب:٥٦).

كما قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ ...﴾ (التوبة:٢٤). كما أشار الله

ﷻ إلىٰ طاعة الرسول بأكثر من ثلاثين آية في القرآن، فقد قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (الأنفال:٢٤). كما قال تعالىٰ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ (النساء:٦٥). وأيضًا: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور:٦٣). ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (النور:٥١ - ٥٢).

وبالتالي؛ فقد ربط الله ﷻ طاعته بطاعة الرسول، بينما يكون الخوف منه وحده سبحانه، كما في قوله: ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ (البقرة:٤٠)، وقوله: ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ (البقرة:٤١)، وقوله: ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى ﴾ (البقرة:١٥٠)، كما قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ ﴾ (الفتح:١٠). وقال تعالىٰ أيضًا: ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ ﴾ (النور:٦٣). وأيضًا: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ ﴾ (الأحزاب:٦).

كما قال النبي ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكونَ أحَبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)[1]. فأجابه عمر بن الخطاب: (والله يا رسول الله لأنتَ أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي)، فقال: (لا والذي نفسي بيده، حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك)، فقال له عمر: فإنك والله أحب إليَّ من

(١) انظر: صحيح البخاري، قسم الإيمان، المجلد الأول (١٢)؛ صحيح مسلم، الإيمان، حديث رقم (٤٩).

نفسي، فقال: (الآن يا عمر)[1].

وقد شرح الله ﷻ في كتابه الكريم حقوق الرسول؛ سواء كان ذلك في احترام طاعته وحبه وتعزيره وتبجيله ومناصرته واتخاذه كحاكم والرضا بحكمه والتسليم له واتباعه عليه الصلاة والسلام عليه وتفضيله علىٰ نفسك وأهلك ومالك والرجوع إلىٰ سنته في المسائل الجَدَلية، وغيرها من الحقوق. وأخبرنا ﷻ أن طاعة الرسولِ من طاعته، حيث قال: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ (النساء:٨٠)، وأنَّ مبايعة الله والولاء له تكون بمبايعة رسوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ (الفتح:١٠). وفيما يتعلق بالحب، ربط ﷻ اسمه باسم رسوله: ﴿ ... أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ... ﴾ (التوبة:٢٤)، وتكلم عن إغضابهما، في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ...﴾ (الأحزاب:٥٧)، وعن الطاعة والمعصية بقوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ...﴾ (النور:٥٢)، وقوله: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ... ﴾ (النساء:١٤)، وعن الرضا بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ (التوبة:٦٢)، إذًا تعد مثل تلك الأمور ومثيلاتها حقًا لرسول الله علينا، تصل حتىٰ فدائِه بآبائنا وأمهاتنا!

### الله وحده يُعبَد ويُدعَى.

تُفرَض العبادة لله والاستعانة به وحده لا شريك له، كما في قوله ﷻ: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ (النساء:٣٦)، ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥)، ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ (البينة:٥). لقد أشار

---

(١) انظر: صحيح البخاري، قسم الأيمان، المجلد الثامن (١٢٩).

ﷻ إلىٰ عبادته والاستعانة به في أماكن مختلفة، كما في قوله: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ (هود:١٢٣)، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ (الفرقان:٥٨)، ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (هود:٨٨).

وبالمثل فالتوكُّل علىٰ الله وحده، كما في قوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (إبراهيم:١٢). وقال أيضًا: ﴿ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (الزمر:٣٨). وكذلك: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ (آل عمران:١٧٣).

كذلك تتوجه الأدعية والتضرُّع لله وحده، سواء كانت أدعية للتعبُّد أو أدعية لطلب المساعدة منه تعالىٰ، كما في قوله: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ (الجن:١٨ - ٢٠). وقال تعالىٰ أيضًا: ﴿ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (غافر:١٤). وقال: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ (الشعراء:٢١٣). وأيضًا: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ ﴾ (الأنعام:٥٢).

* * *



# الفصل الرابع عشر:

## اتباع محمد ﷺ من حب الله

## (الصفحات الحادية عشرة، ٢٠٠٠)

يدّعي بعض الناس أن حب الله غير متعلق بحبّ النبي ﷺ، وعامة الناس لا يحبونه إلا من أجل نِعَمِه، وما يزال البعض يعيشون حب الله كحبهم لإنسان آخر، يوضح ابن تيمية في النص التالي(١): أنه لا يجوز أن نبقىٰ علىٰ هوانا واجتهادنا في تحديد كيفية حبنا لله. أن نحب الله تعالىٰ، يعني أن نتبع رسوله، ويفضل أن نحبه؛ لأنه الله، وليس من باب الامتنان فحسب. وبنهاية الأمر، يتحدث القرآن والسّنة بصورة أكثرَ صحّةً من كل الأدبيات أو الرومانسيات عن الحالة الحقيقية لهذا الحب. وباختصار، هناك التصوف ومزيدٌ من التصوف.

**«إذا كنت تحب الله؛ فاتبعني...»**.

من الأشياء الواجب فهمها: قول الله سبحانه في كتابه الكريم: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران:٣١). كما ادعىٰ قوم في عهد

---

(١) ابن تيمية، الرابع (٨١، ١٠.٤ - ٨٧، ١٣).

النبي ﷺ أنهم يحبون الله؛ فأنزل الله هذه الآية: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران:٣١)(١). فبين سبحانه أن حبه يُوجب اتباع الرسول، وأن اتباع الرسول يحقق بالتالي حب الله للعبد. ويمتحن الله بتلك المحبة مَن يدَّعي حُبّه، فإن هذا الباب تكثر فيه الادعاءات والشبهات. لذا؛ يُروىٰ عن ذي النون المصري(٢) أنهم تكلموا في مسألة الحب عنده، فقال: «اسكتوا عن هذه المسألة؛ لئلا تسمعها النفوس فتدعيها».

وقال بعضهم أيضًا: «مَن عبد الله بالحب وحده؛ فهو زنديق، ومَن عبده بالخوف وحده؛ فهو حروري»(٣)، «ومَن عبده بالرجاء وحده؛ فهو مرجئ»(٤). «ومن عبده بالحب والخوف والرجاء: فهو مؤمن موحد»(٥). وذلك؛ لأن الحب المجرد تنبسط النفوس فيه حتىٰ تتوسع في أهوائها، إذا لم يزَعْها وازع

---

(١) يستشهد ابن تيمية ببداية الآية ويقول: و[بقية] الآية.

(٢) رائد صوفي: من أهل النَّوبة (إخميم180/796، الجيزة ٢٤٦/ ٦٨١). انظر: M. Smith, EI². art (ذو النون أبو الفَيض). كما نُقِلت هذه الجملة من قبل رسالة القشيري (١٤٧)، ونقلها غرامليش، سندس شربيني (٤٤٩).

(٣) عن الحروري أو الخارجي؛ طائفة معارضة واجهها علي ﷺ، انظر: VECCIA VAGLIERI L., EI², art «حرورة».

(٤) عن المرجئة؛ انظر: (٩).

(٥) وسمي هذا المبدأ أيضًا من قبل السيد الصوفي أبي طالب المكي (د. بغداد ٩٩٦/ ٣٨٦) في غذاء القلوب (كوت. الأول. ٢٤٢). وذكر مرة أخرىٰ من قبل الغزالي في الإحياء، ويعود إلىٰ مكحول الدمشقي غير محدد الهوية 2nd/8th أو 10th*4th. انظر: R. GRAMLICH. Lehre, 349:

الخشية من الله، حتىٰ قالت اليهود والنصارىٰ: ﴿ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ ﴾ (المائدة:١٨)، ويقع مدّعو المحبة في أمور مخالفة للشريعة لا يقع فيها أهلُ الخشية، ولهذا اقترنت الخشية من الله بالشريعة في قوله: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٍ مُّنِيبٍ ۝ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ﴾ (ق:٣٢ - ٣٤).

وكان المشايخ المصنفون في السنة يذكرون في عقائدهم مجانبة من يكثر ادعاء المحبة والخوض فيها من غير خشية؛ لما في ذلك من الفساد الذي وقع فيه طوائف من الصوفيين، وما وقع عند[1] هؤلاء من فساد الاعتقاد، والأعمال، أوجب إنكار طوائف أخرىٰ لأصل طريقة المتصوفين بالمجمل، حتىٰ صار المنحرفون صنفين: صنف يقر بحقها وباطلها، وصنف يُنكِر حقها وباطلها. كما هي حال عدة طوائف من أهل الكلام والفقه. والصواب: إنما هو الإقرار بما فيها وفي غيرها مما يوافق الكتاب والسنة، والإنكار لما فيها وفي غيرها مما يخالف الكتاب والسنة[2].

---

(١) فيه: في F.

(٢) توضح هذه الفقرة فكرة واحدة هامة للإجابة عن سؤال كثيرًا ما يُطرح عن ابن تيمية: هل كان يعارض الصوفية تمامًا أم كان صوفيًا علىٰ العكس من ذلك؟ وفقًا لشيخ الإسلام ابن تيمية؛ يعد رفض المكونات السلبية والإيجابية للتصوف دون تمييز موقفًا منحرفًا، تمامًا كقبولها بالكامل. وهو نفسه بعيدٌ عن ذلك، ويفضِّل بالنسبة لهذا الموضوع - كما في كل الأمور الخلافية - اعتبار الموقف يعبر عن نفسه فقط، والتقيُّد بالقرآن والسنة في تعريف الاستقامة وتقويم الانحراف. وجهة نظر ابن تيمية عن الصوفية؛ انظر في: اللغات الأوروبية، الصوفية لـ Th. HOMERIN. ابن تيمية لـ M. A. H. ANSARI. الصوفي لـ G. MICHEL. شرح Th. MICHEL.

قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران:٣١). فيستوجب حب الله بالضرورة اتباع سنة رسوله ﷺ وشريعته باطنًا وظاهرًا، كما أن الجهاد في سبيله وموالاة أنصاره ومعاداة أعدائه؛ هو الإيمان الحق، كما في الحديث: «أوثق عرىٰ الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله»[1].

وهناك حديث أيضًا: «مَن أحب لله، وأبغض لله، وأعطىٰ لله، ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان»[2].

## لا حُبّ في الانحرافات.

الكثير ممن يدعي المحبة هو أبعد من غيره عن اتباع السنّة، وعن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله. ويزعمون مع هذا أن ذلك أفضل طريق للمحبة من غيره؛ لزعمهم أن طريق المحبة لله ليس فيه غيره، وهذا علىٰ خلاف ما دل عليه الكتاب والسنة، لهذا السبب [يقال] في الأحاديث المأثورة: «يقول الله يوم القيامة»: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»[3]، وفي قوله: «أين المتحابون بجلالي»؛

---

(١) انظر: سنن أبي داوود، السنّة، الباب الرابع (١٩٨)، رقم (٤٥٩٩)، مسند ابن حنبل، الباب الثالث (١٤٦): «أفضل الأعمال: الحب في الله، والبغض في الله». انظر أيضًا: صحيح البخاري، الإيمان، الباب الأول (١١): «إن الحب في الله والبغض في الله من الإيمان».

(٢) انظر: سنن أبي داوود، السنّة، الباب الرابع (٢٢٠)، رقم (٤٦٨١)، مسند ابن حنبل، الباب الثالث (٤٣٨).

(٣) انظر: صحيح مسلم، البِرّ، الباب السابع (١٢)، مسند ابن حنبل، الباب الثاني (٢٣٧).=

تنبيه علىٰ ما في قلوبهم من إجلال الله وتعظيمه مع التحاب فيه، وبذلك يكونون حافظين لحدوده، دون الذين لا يحفظون حدوده لضعف الإيمان في قلوبهم، وهؤلاء الذين جاء فيهم الحديث: «حقّت محبتي[1] للمتحابين في، وحقت محبتي للمتباذلين في، وحقت محبتي للمتزاورين في، والمتحابون في الله علىٰ منابر من نور في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله»[2].

ورد في الصحيحين: عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتىٰ لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال إني أخاف الله رب العالمين»[3].

## حب العامة وحب الخاصة.

أصل الحب هو: معرفة الله، ﷻ! وله قاعدتان، إحداهما: الحب الذي يقال له «حب العامة»؛ امتنانًا لِنِعَم الله تعالىٰ علىٰ عباده، وهذا الحب علىٰ هذا

---

=عن هذا الحديث القدسي. انظر: .142, W.A. GRAHAM Divine - 44 رقم. ١٩a.

(١) حقّت محبتي لـ... الحقيقة: أن حبي لهؤلاء أو أولئك لهم حق محبتي.

(٢) انظر: مسند ابن حنبل، الباب الثاني (٣٨٦)

a١٩.رقم44 - 142, W.A. GRAHAM Divine..

(٣) انظر: صحيح البخاري، الأذان، الباب الأول (١٣٣)، صحيح مسلم، الزكاة، الباب الثالث (٩٣).

الأساس لا ينكره أحد، فإن القلوب مجبولة علىٰ حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، والله سبحانه هو المنعم المحسن إلىٰ عبده بالفعل، فإنه المتفضل بجميع النعم، وإن جرت بواسطة، فهو مُسيِّر الوسائط، ومسبب الأسباب[1]، ولكن في الحقيقة لم يجذب هذا الحب القلب إلىٰ محبة الله بحد ذاته، فلم يحب العبد في الحقيقة إلا نفسه، وكذلك كل من أحبَّ شيئًا لأجل إحسانه إليه فحسب؛ فما أحب في الحقيقة إلا نفسه، وهذا ليس بمذموم بل محمود. أشار ﷺ إلىٰ تلك المحبة بقوله: «أحبوا الله؛ لما يغذوكم به من نعمه، أحبوني لحب الله، وأحبوا أهلي بحبي»[2]، والمقتصر علىٰ ذاك الحب لم يَعرِف عن الله تعالىٰ ما يستوجب أن يحبه إلا إحسانه إليه، وقيل - بالمثل -: إن لتسبيح الله نوعَيْن: تسبيح لحمد الله علىٰ فضله فحسب، وتسبيح لتمجيده وتوقيره وحبه مع مراعاة ما يليق به سبحانه.

كما بالنسبة للحب؛ حيث يشمل النوع الثاني من مُحبّي الله مَنْ يُحبُّهُ لأنّه أهلٌ لذلك. وهو الحب لمَنْ تعرفُه شخصيًا، أما فيما يتعلق بالله فيكون ذلك؛ لأنّ له الحق أنْ يُحَب. وينطبق ذلك علىٰ كل الأمور التي نؤديها لله، حيث

---

(١) وهذا يعني: أنه مُهيِّئ الأسباب. ويؤكد هذا المفهوم أن للمسلم أولوية مطلقة في الاتكال علىٰ الله مع الاعتراف الكامل بتأثير الأسباب الثانوية، انظر: النصوص المفيدة جدًا من ابن سينا، مترجمة من قبل MICHOT.Y ، Destinee، (٦١ - ٦٣)، و(١٨). انظر أيضًا: J. JANSSENS، الأفكار، (٢٦٥ - ٦٦).

(٢) انظر: سنن الترمذي، مناقب، الباب الرابع (٢٣٩ و٣٨٧٨). راوي هذا الحديث الترمذي: «حَسَن غريب».

يعد كل عطاء يقدمه لنا نعمة وكل عقاب من جانبه عدالة. لذلك؛ فهو أهلٌ لأَنْ نسبحه ونحمده علىٰ كل حال؛ في السراء والضراء. وهذا هو الحب الأعلىٰ والأقرب إلىٰ الكمال، حب الخاصَّة[1]. وآخرون مَنْ يطلب السعادة برؤية وجهه الكريم ويجِد متعةً بذكره ومناجاته بثقة. ويُعَدّ ذلك بالنسبة لهم أهم من الماء بالنسبة للسمك، وعندما يُحرَمون منه يُصابون بحزن لا يُحتَمَل. أولئك هم السابقون.

كما ورد في صحيح مسلم، عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: (كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة، فمر علىٰ جبل يقال له جُمدان، فقال: سيروا هذا جمدان، سبق المُفرِّدون قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات)[2]. وبرواية أخرىٰ: قال: (المُسْتَهْتَرُونَ فِي ذِكْرِ اللهِ، يَضَعُ

---

(١) يظهر التمييز بين طريقتي حب الله؛ حسب انتماء الشخص إلىٰ العوام أم إلىٰ الخواص، فعند الجُنَيْد؛ شيخ الصوفية العظيم في بغداد. انظر: الغزالي، إحياء BK36، الباب الرابع، (٣٢٩): (تأتي كل الصفات الدينية الحَسَنة والأخلاق الفاضلة ثمرة للحب. كيف يدفعُ الحب لحمل ثمرة اتباع الهوىٰ والاتصاف بالأخلاق الرديئة؟ أجل؛ يحب المرء اللهَ أحيانًا لإحسانه، ويحبه أحيانًا لعَظَمَتِه وجماله، حتىٰ لو أزال عنه النعم. إذًا فأولئك الذين يحبون الله ينتمون إلىٰ أحد هاتين المجموعتين، كما في قول الجنيد: «الناس في محبة الله ﷻ: عامٌّ، وخاص. فالعوام أحبوه لكثرة نعمه ودوام إحسانه، إلا أن محبتهم تقل وتكثر، وأما الخواص فأحبوه لما عرفوا من صفاته وأسمائه الحسنىٰ، واستحق المحبة عندهم؛ لأنه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم!»).

(٢) انظر: صحيح مسلم، الذكر، الباب الثامن (٦٣)، مسند ابن حنبل، الباب الثاني (١١٤). وفقًا للحديث؛ يقع جُمدان علىٰ الطريق المؤدي إلىٰ مكة. انظر أيضًا: ياقوت (d. 626/1229)، معجم، الباب الثاني (١٨٦ - ٨٧)، رقم (٣٢٢٣). ورد في ياقوت:=

الذِّكْرُ عَنْهُمْ أَثْقَالَهُمْ فَيَأْتُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ خِفَافًا)[1]. والمستَهتَرون في ذكر الله أي: المولعون بذكر الله الكَلِفون به[2]، ويجدون المتعة في ذلك دون كللٍ أو ملل.

ورد في حديث هارون بن عنترة[3]، عن أبيه، عن ابن عباس ﷺ، قال: (قال موسىٰ ﷺ: يا رب أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني. قال: يا رب أي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلىٰ علمه؛ عسىٰ أن يصيب كلمة تهديه إلىٰ هدىٰ أو ترده عن ردىٰ. قال: فأي عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه)[4].

لقد أشار في هذا الحديث إلىٰ الحب والمعرفة والعدالة وكل ما فيه خير.

**الحب البشري وحب الله.**

من بين الأشياء الواجب فهمها حقيقة: عدم الخلط بين حب الله تعالىٰ

=تهجئة مختلفة «جُمْران»، ويشير إلىٰ مواقع مختلفة، ولا يرىٰ علاقة بين أسبقية المفرِّدين ورؤية جُمدان: (غالبًا ما يكون أولئك الذاكرون لله والذاكرات من السابقين حتىٰ رغم عدم رؤيتهم لجُمدان. لم يرد ذلك عن أي من أولئك المُعلِّقين علىٰ هذا الحديث).

(١) انظر: سنن الترمذي، دعوات، الباب الخامس (٢٣٥)، رقم (٣٦٦٦)، مسند ابن حنبل، الباب الثاني (٣٢٣). أخرج الترمذي هذا الحديث «حَسَن غريب».

(٢) كَلِفَ بِهِ: أحبَّه وأُولِع به.

(٣) عنترة الشيباني، انظر: ابن الأثير، أسد الغابة، الباب الرابع (١٥٢).

(٤) انظر: سنن الدارمي، المقدمة، الباب الأول، رقم (١٠٢): (قَالَ مُوسَىٰ: يَا رَبِّ، أَيُّ عِبَادِكَ أَحْكَمُ؟ قَالَ: الَّذِي يَحْكُمُ لِلنَّاسِ كَمَا يَحْكُمُ لِنَفْسِهِ، قَالَ: يَا رَبِّ، أَيُّ عِبَادِكَ أَغْنَىٰ؟ قَالَ: أَرْضَاهُمْ بِمَا قَسَمْتُ لَهُ، قَالَ يَا رَبِّ، أَيُّ عِبَادِكَ أَخْشَىٰ لَكَ؟ قَالَ: أَعْلَمُهُمْ بِي). لم أتمكن من تحديد مصدر ابن تيمية بدقة.

وحب الآخرين (المخلوقات)؛ في حين أن نمط العلاقات الأخير قد يتضمن اتهامات أو هروب أو انفصالا دون سبب أو غير ذلك، ويُخطئ بعض الناس كثيرًا من خلال اتباعهم لأساليب في حب الله كتلك التي يتبعونها لحب أحد ما يصدهم أو ينفصل عنهم دون [أن يرتكبوا] خطيئة ما أو يبتعد عمَّنْ يتقرب منه. [هذا هو الموقف الواجب اتخاذه: عدم الخلط بين حب الله والحب البشري]، رغم أن كُتَّابًا مُحدَّدين قد أخطأوا في هذا الموضوع في رسائلهم؛ إذ يشكل محتوىٰ نصوصهم في النهاية حجة (لعشق) الله![1]، ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ (الأنعام:١٤٩).

ورد في الصحيحَيْن: عن أبي هُرَيْرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (قال تعالىٰ: «إنْ ذَكَرَنِي عبدي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»)[2].

كما قال الله تعالىٰ في روايات أخرىٰ: (أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيارتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهلُ معصيتي لا أُقنطّهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾ (البقرة:٢٢٢)، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم: أبتليهم بالمصائب لأُطهرهم من الذنوبِ والمعايب)[3].

---

(١) نقد المنظرين أو الشعراء الصوفيين الذين يتحدثون عن حب الله بطريقة «عاطفية» جدًا.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب التوحيد، الباب الرابع، رقم (١٢١). صحيح مسلم، كتاب التوبة، الباب الثامن، رقم (٩١). في الحديث القدسي، انظر:
W. A. GRAHAM, Divine, 127 - 128, no. 12.

(٣) لم يرد هذا الأثر في أيٍّ من كتب الحديث التسعة. انظر أيضًا: ابن تيمية ـ الباب الرابع عشر،=

قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ (طه:١١٢). فلا يخاف من الله أن يظلمه، فيحمل عليه سيئات غيره، فيعاقبه عليها، ولا يخاف أن يهضمه حسناته، فينقصه ثوابها. كما يقول تعالىٰ: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (النحل:١١٨).

* * *

=رقم (٣١٩)، وابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، الباب الأول، رقم (١٩٤ - ٩٥). ووردت في النصّيْن الأخيرَيْن «زيادتي» عوضًا عن «زيارتي»: (والشكر معه المزيد أبدًا). انظر: سورة ابراهيم، الآية (٧): ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾.

# الفصل الخامس عشر:
# طاعة وُلاة الأمر

هل كان ابن تيمية ثوريًا يحُث علىٰ قتل المستبد ذي الجور؟ هكذا يعتقد بعض الناس، بل وإنه من المؤسف أن يحتاج المرء أن يعيد إلىٰ الأذهان مدىٰ إتقان الإمام للسنة النبوية وإجلاله لها؛ حتىٰ يستبعد الظن بأن ابن تيمية مال - ولو قيد أنملة - عن اعتدال السنة بخصوص طاعة ولاة الأمر أو غيرها من الأمور. ولكن ماذا يعلم عنه - بالضبط - ذامُّوه والمتطرفون الذين يزعمون أنهم باسمه ومنهجه يعملون؟ ماذا قرأوا له من فتاوىٰ غير تلك التي نادىٰ فيها بمقاومة المغول الذين كانوا يغزون؟ إنه من الواجب إذًا علىٰ هؤلاء الذين يسعون إلىٰ الحقيقة أن يقدِّموا لنا نصوصه مباشرةً حتىٰ يتولىٰ شيخ الإسلام الدفاع عن نفسه ضد ما يقوله هؤلاء المفترون، بل ويتبرأ بوضوح مِنَ المتطرفين الذين بزعمهم أنه راعٍ لفعلهم وإرهابهم.

يقدِّم الموضوع الأساسي لكتاب ابن تيمية: «منهاج السنة النبوية» تفنيدًا لكتاب: «منهاج الكرامة في معرفة الإمامة» من تأليف العالم الحِلِّي، والذي صنعه للملك المغولي الخان محمد أوليجاتو (توُفي عام ٧١٦هـ/ ١٣١٦مـ). ويحلِّل بشكل منهجي عقيدة الإمامية في نظام الحكم المطلق، فشيخ الإسلام

يعارض أي شكل من أشكال الطاعة العمياء المطلقة للسلطات البشرية أيًا كانت، ويدعو إلىٰ التبيُّن حيال كل أمر تصدره، أي: إلىٰ «استيضاح» مشروعيته أو بطلانه من وجهة نظر الدين، وذلك يحثّ عليه القرآن في سورة الحجرات، الآية (٦). ومع معارضته النابعة من ضميره وعصيانه المدني المستنيرين بالإيمان إلىٰ لعنِه علىٰ الجانب الآخر لأي سلطة ضالة جاهلة ظالمة ومقاومته إياها بالسلاح؛ مع كل ذلك توجد خطوة يرفض ابن تيمية أن يأخذها، فهو يعي جيدًا أن إحدىٰ روايات حديث الموالاة المشهور عن النبي ﷺ لا تجيز الخروج علىٰ الحُكام إلا في حالة إثبات «كفرهم البواح» ببرهان من الله. وعلىٰ أي حال فهو يعلم البشر جيدًا، أي: يمكنه أن يتصور أن التمرد المسلح لن يُحدِث فسادًا وعواقب أقل ضررًا للمجتمع مقارنة بالظلم الذي تمارسه السلطة المتنازع عليها.

الفقرات الأربع التالية[1] والمترجمة من كتاب «منهاج السنة النبوية» مشبعة بالواقعية والالتزام بمصادر الإسلام. فبربط طاعة أولي الأمر بطاعة الله والرسول؛ يدعو ابن تيمية في ذات الوقت إلىٰ تفكيرٍ ناقدٍ حليمٍ وفطنةٍ وتدبرٍ ورفضٍ للاستبداد والظلم ونبذٍ للتطرف والتمرد المسلح.

### أ. هل يُطاع وليُّ أمر فاسق وجاهل؟

«إن الناس قد تنازعوا في ولي الأمر الفاسق والجاهل: هل يُطاع فيما يأمر

---

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية، الجزء الثالث: (أ) من ص (٣٩٠ - ٣٩٥)، و(ب) من ص (٣٨٧ - ٣٨٨)، و(ج) من ص (٣٩٥ - ٣٩٦)، و(د) من ص (٥٤٧ - ٥٤٨).

به من طاعة الله، ويُنفَّذ حكمه وقسمه إذا وافق العدل، أو لا يُطاع في شيء، ولا يُنفَّذ شيء من حكمه وقسمه؟ أو يُفرَّق في ذلك بين الإمام الأعظم وبين القاضي ونحوه من الفروع؟ علىٰ ثلاثة أقوال، أضعفها عند أهل السنة هو: ردُّ جميع أمره وحكمه وقسمه، وأصحها عند أهل الحديث وأئمة الفقهاء هو: القول الأول، وهو أن يُطاع في طاعة الله مطلقًا ويُنفَّذ حكمه وقسمه إذا كان فعله عدلًا مطلقًا، حتىٰ إن القاضي الجاهل والظالم يُنفَّذ حكمه بالعدل وقسمه بالعدل علىٰ هذا القول، كما هو قول أكثر الفقهاء.

والقول الثالث: هو الفرق بين الإمام الأعظم وبين غيره؛ لأن ذلك لا يمكن عزله إذا فسق إلا بقتال وفتنة، بخلاف الحاكم ونحوه، فإنه يمكن عزله بدون ذلك، وهو فرق ضعيف؛ فإن الحاكم إذا ولَّاه ذو الشوكة لم يمكن عزله إلا بفتنة، ومتىٰ كان السعي في عزلِه مفسدة أعظم للمجتمع من مفسدة بقائه في الحكم؛ لم يجز الإتيان بأعظم الفسادَيْن لدفع أدناهما، وكذلك الإمام الأعظم.

ولهذا كان المشهور من مذهب أهل السنة: أنهم لا يرون الخروج علىٰ الأئمة وقتالهم بالسيف وإن كان فيهم ظلم، كما دلت علىٰ ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبي ﷺ؛ لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة، فلا يُدفع أعظم الفسادين إلا[1] بالتزام أدناهما. ولعله لا يكاد يُعرف طائفة خرجت علىٰ ذي سلطان إلا وكان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته.

---

(١) ساقطة من طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود. (المترجِم).

والله تعالىٰ لم يأمر بقتال كل ظالم وكل باغٍ كيفما كان، ولا أمَر بقتال الباغين ابتداءً، بل قال: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ ﴾ (الحجرات: ٩)، فلم يأمر بقتال الباغية ابتداءً، فكيف يأمر بقتال ولاة الأمر ابتداءً؟!

وفي صحيح مسلم: عن أم سلمة[١] ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: «سيكون أمراء؛ فتعرفون وتنكرون، فمن عرف برئ، ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع». قالوا: «أفلا نقاتلهم؟» قال: «لا ما صلُّوا»[٢]. فقد نهىٰ رسول الله ﷺ عن قتالهم مع إخباره أنهم يأتون أمورًا منكرة، فدل علىٰ أنه لا يجوز الإنكار عليهم بالسيف، كما يراه من يقاتل ولاة الأمر من الخوارج والزيديَّة[٣]

(١) أم سلمة هي هند بنت أبي أمية (توفيت سنة ٦١هـ/ ٦٨١مـ) إحدىٰ زوجات النبي ﷺ المكِّيات.

(٢) انظر: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، الجزء السادس، ص (٢٣).

(٣) الزيدية هي طائفة من الشيعة، تزعم أنها تتبع زيدًا، وهو حفيد الحسين بن عليّ، قُتل زيد في الكوفة سنة ١٢٢هـ/ ٧٤٠مـ أثناء الثورة علىٰ الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك. قال ابن حبَّان: «هو زيد بن علي بن الحسين كانت الشيعة تنتحله [تزعم أنها تتَّبعه] وكان من أفاضل أهل البيت وعبادهم، قُتل بالكوفة سنة ثنتين وعشرين ومئة، وصُلب علىٰ خشبة، فكان العباد يأوون إلىٰ خشبته بالليل يتعبدون عندها».

يقول ابن تيمية في المنهاج، الجزء الأول، ص (٣٥): «قلت: ومن زمن خروج زيد افترقت الشيعة إلىٰ رافضة وزيدية، فإنه لما سئل عن أبي بكر وعمر فترحم عليهما، رفضه قوم، فقال لهم: «رفضتموني!»؛ فسُمُّوا رافضة لرفضهم إياه، وسُمي من لم يرفضه من الشيعة=

والمعتزلة وطائفة من الفقهاء وغيرهم.

وفي الصحيحين: عن ابن مسعود ﷺ قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «إنكم سترون بعدي أثرة وأمورًا تنكرونها» قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «تؤدون الحق الذي عليكم لهؤلاء الحُكَّام، وتسألون الله الذي لكم»[1].

فقد أخبر النبي ﷺ أن الأمراء يظلمون ويفعلون أمورًا منكرة، ومع هذا فأمرنا أن نؤتيهم الحق الذي لهم علينا، ونسأل الله الحق الذي لنا، ولم يأذن في أخذ الحق بالقتال، ولم يرخص في ترك الحق الذي لهم علينا.

وفي الصحيحين: عن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من رأى من أميرِه شيئًا يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة جماعة المؤمنين شبرًا فمات إلا مات ميتة جاهلية». وفي لفظ: «فإنه من خرج من السلطان شبرًا فمات، مات ميتة جاهلية»، واللفظ للبخاري[2]. وقد تقدم قوله ﷺ لما ذكر أنهم لا يهتدون بهديه ولا يستنون بسنته. قال حذيفة: «كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟» قال: «تسمع وتطيع للأمير - وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك -؛ فاسمع وأطع»[3]. فهذا أمر بالطاعة مع ظلم الأمير.

وتقدم قوله ﷺ: «من ولي عليه والٍ فرآه يأتي شيئًا من معصية الله؛

---

=زيديًا؛ لانتسابهم إليه، ولما صلب كانت العباد تأتي إلى خشبته بالليل فيتعبدون عندها».

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الفتن، الجزء التاسع، ص (٤٧)، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، الجزء السادس، ص (١٧ - ١٨).

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الفتن، الجزء التاسع، ص (٤٧).

(٣) انظر: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، الجزء السادس، ص (٢٠).

فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعنَّ يدًا عن طاعة»[1]. وهذا نهيٌ عن الخروج عن السلطان وإن عصىٰ.

وتقدم حديث عبادة[2]: «بايعنا رسول الله ﷺ علىٰ السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا[3]، وألا ننازع الأمر أهله». قال: «إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان»[4]، وفي رواية: «وأن نقول - أو نقوم - بالحق حيث ما كنا، ولا نخاف في الله لومة لائم»[5]، فهذا أمرٌ بالطاعة مع استئثار ولي الأمر واستحواذه علىٰ الخير، وذلك ظلم منه، ونهيٌ عن منازعة الأمر أهله، وذلك نهيٌ عن الخروج عليه؛ لأن أهله هو أولو الأمر الذين أمر بطاعتهم، وهم الذين لهم سلطان يأمرون به، وليس المراد من يستحق أن يُولَّىٰ ولا سلطان له، ولا المتولِّي العادل؛ لأنه قد ذكر أنهم

---

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الإمارة، الجزء السادس، ص (٢٤)، ومسند الإمام أحمد، الجزء الرابع، ص (٢٤).

(٢) هو عبادة بن الصامت الأنصاري، صحابيٌّ، وأول قاضٍ مسلم في القدس (تُوفي سنة ٣٤هـ/ ٦٥٤م أو سنة ٣٥هـ/ ٦٦٥م في فلسطين) انظر: كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن أثير، الجزء الثالث، ص (١٠٦ - ١٠٧).

(٣) المراد بها: أن طواعيتهم لمن يتولىٰ عليهم لا تتوقف علىٰ إيصال حقوقهم لهم، بل عليهم الطاعة ولو منعهم حقهم. (فتح الباري بشرح صحيح البخاري).

(٤) انظر: صحيح البخاري، كتاب الفتن، الجزء التاسع، ص (٤٧)، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، الجزء السادس، ص (١٧)، ومسند الإمام أحمد، الجزء الخامس، ص (٣١٤).

(٥) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأحكام، الجزء التاسع، ص (٧٧)، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، الجزء السادس، ص (١٦).

يستأثرون، فدل علىٰ أنه نهيٌ عن منازعة ولي الأمر وإن كان مستأثرًا، وهذا باب واسع.

**ب. طاعة ولي الأمر إنما تكون في ضمن طاعة الله.**

«إنهم - أي أهل السنة - لا يوجبون طاعة الإمام في كل ما يأمر به، بل لا يوجبون طاعته إلا فيما تسوغ طاعته فيه في الشريعة، فلا يجوِّزون طاعته في معصية الله، وإن كان إمامًا عادلًا، وإذا أمرهم بطاعة الله فأطاعوه، مثل أن يأمرهم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصدق، والعدل، والحج، والجهاد في سبيل الله، فهم في الحقيقة إنما أطاعوا الله، والكافر والفاسق إذا أمر بما هو طاعة لله؛ لم تحرم طاعة الله ولا يسقط وجوبها لأجل أمر ذلك الفاسق بها، كما أنه إذا تكلم بحق لم يجُز تكذيبه ولا يسقط وجوب اتباع الحق لكونه قد قاله فاسق، فأهل السنة لا يطيعون وُلاة الأمور مطلقًا، إنما يطيعونهم في ضمن طاعة الرسول ﷺ. كما قال تعالىٰ: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ (النساء: ٥٩)، فأمر بطاعة الله مطلقًا وأمر بطاعة الرسول؛ لأنه لا يأمر إلا بطاعة الله: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴾ (النساء: ٨٠)، وجعل طاعة أولي الأمر داخلة في ذلك، فقال: «وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ»، ولم يذكر لهم طاعة ثالثة؛ لأن ولي الأمر لا يُطاع طاعة مطلقة، إنما يُطاع في المعروف. كما قال النبي ﷺ: «إنما الطاعة في المعروف»[1]، وقال: «لا طاعة في معصية الله»[1]، «لا

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، الجزء الخامس، ص (١٦١)، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، الجزء السادس، ص (١٥)، ومسند الإمام أحمد، الجزء الأول، ص (٨٢).

طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[2]، وقال: «ومن أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه»[3]».

### ج. تبيُّن جميع الأمور.

«إنا إذا قدَّرنا أن يُشترط العدل في كل متولٍ، فلا يُطاع إلا من كان ذا عدل، لا من كان ظالمًا. فمعلوم أن اشتراط العدل في الولاة ليس بأعظم من اشتراطه في الشهود، فإن الشاهد قد يخبر بما لا يعلم، فإن لم يكن ذا عدل لم يُعرف صدقه فيما أخبر به، وأما ولي الأمر فهو يأمر بأمر يعلم حكمه من غيره[4]، فيعلم هل هو طاعة لله أو معصية.

ولهذا؛ قال تعالىٰ: ﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ (الحجرات: ٦). فأمر بالتبين إذا جاء الفاسق بنبأ. ومعلوم أن الظلم لا يمنع من فعل الطاعة ولا من الأمر بها.

وهذا مما يوافق عليه الإمامية، فإنهم لا يقولون بتخليد أهل الكبائر في النار، فالفسق عندهم لا يحبط الحسنات كلها، بخلاف من خالف في ذلك من الزيدية والمعتزلة والخوارج، الذين يقولون: إن الفسق يحبط الحسنات كلها،

---

(١) انظر: مسند ابن حنبل، الجزء الرابع، ص (٤٢٦).

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد، الجزء الخامس، ص (٦٦).

(٣) انظر: سنن ابن ماجة، كتاب الجهاد، الجزء الثاني، ص (٩٥٦)، الحديث رقم (٢٨٦٣)، ومسند الإمام أحمد، الجزء الثالث، ص (٦٧).

(٤) أي من الكتاب والسنة.

ولو حبطت حسناته كلها لحبط إيمانه، ولو حبط إيمانه لكان كافرًا مرتدًا فوجب قتله.

ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل علىٰ أن الزاني والسارق والقاذف لا يُقتل بل يُقام عليه الحد، فدل علىٰ أنه ليس بمرتد.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ ...الآية (الحجرات: ٩)؛ يدل علىٰ وجود الإيمان والأخوَّة مع الاقتتال والبغي».

**د. «ستون سنة مع إمام جائر...».**

«أهل السنة لا يقولون: إن الواحد من هؤلاء كان هو الذي يجب أن يُولَّىٰ دون من سواه، ولا يقولون: إنه تجب طاعته في كل ما يأمر به، بل أهل السنة يخبرون بالواقع ويأمرون بالواجب، فيشهدون بما وقع، ويأمرون بما أمر الله به ورسوله، فيقولون: هؤلاء - أي بنو أميَّة وبنو العبَّاس - هم الذين تولوا[1]، وكان لهم سلطان وقدرة يقدرون بها علىٰ مقاصد الولاية، من إقامة الحدود، وقسم الأموال، وتولية الولايات، وجهاد العدو، وإقامة الحج والأعياد والجمع، وغير ذلك من مقاصد الولايات. ويقولون - أي أهل السنة -: إن الواحد من هؤلاء ونوّابهم وغيرهم لا يجوز أن يُطاع في معصية الله، بل يُشارك فيما يفعله من طاعة الله: فيُغزىٰ معه الكفار، ويُصلىٰ معه الجمعة والعيدان، ويُحج معه، ويُعاون في إقامة الحدود والأمر بالمعروف والنهي عن

(١) إشارة إلىٰ أول سلالتين حاكمتين في الإسلام، واللتين كان لهما حكم فعَّال في الشرق الأوسط، في حين لم يتولَّ أيٌّ من ذرية عليّ السلطةَ هناك.

المنكر... إلخ. فيُعانون علىٰ البر والتقوىٰ، ولا يُعانون علىٰ الإثم والعدوان.

ويقولون - أي أهل السنة -: إنه قد تولَّىٰ غير هؤلاء - أي بني أميَّة وبني العبَّاس -: تولّىٰ بالغرب طائفة من بني أميَّة وطائفة من بني عليّ[1]، ومن المعلوم: أن الناس لا يصلحون إلا بولاة، وأنه لو تولىٰ من هو دون هؤلاء من الملوك الظلمة لكان ذلك خيرًا من عدمهم، كما يُقال: «ستون سنة مع إمام جائر خير من ليلة واحدة بلا إمام»».

***

(١) إشارةً إلىٰ الأمويين في الأندلس (١٣٨هـ/ ٧٥٦مـ - ٤٢٢هـ/ ١٠٣١مـ)، وإلىٰ السلالة الشيعيَّة من الأدارسة في المغرب، (١٧٢هـ/ ٧٨٩مـ - ٣١٤هـ/ ٩٢٦م).

# الفصل السادس عشر:

## ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾

## (الطلاق: ٣)

أن تجد رسّامًا كاريكاتيريا إسرائيليًا يقدّم درسًا للمُسلمين في التخلي عن العنف لهو أمر غريب، إن أردنا التعبير بلطف[١]، فمثله ممن يرغب بتنظيف سمعته! ربّما يقول أولًا: «يا لها من شوتزبا!» (chutzpah؛ أي: شجاعة وجرأة باللهجة اليديشية من اللهجات الألمانية اليهودية)، لكن دعنا ننسىٰ هوية الرسّام ونركّز علىٰ الرسالة، فهي بالتأكيد مُبالغ فيها كما هو مُفترض به مع الرسم الكاريكاتوري، ولكنها تعكس تمامًا الصورة (الكارثية) التي لدىٰ كثير من غير المسلمين عن دين خاتم المرسلين ﷺ في العصر الحالي، وهي تساهم كذلك في تعزيز هذه الصورة الخاطئة.







(١) كاريكاتير لياكوف كيرشين Yaakov Kirschen الإسرائيلي، ٨ مايو ٢٠٠٩.

يستطيع المُسلم تغيير الجزء الأول من التعليق كما اقترح مُعلّق مجهول الهوية علىٰ مُدوّنة Yaakov Kirschen الإسرائيلية: هل كان حَرِيًّا القول: (يُحاولون في الغرب قتلك، وهذا ما يفعلونه؛ لأنّك مُسلم)؛ عوضًا عن «لأنّك لست مُسلمًا»؟ لكن دعنا نوقف هذا الجدل لننتقل للقسم الثاني من التعليق، وهو شيء لا يستطيع أيّ مُسلم ألّا يباليَ به، وللأسف فإنّ مُجتمعنا بالفعل أصبح اليوم أكثر انقسامًا عمّا كان قبل، ومُستعدّ أكثر للانفصال عند أيّ نزاع، فالمُؤمنون الذين يجب أن يقدّموا للعالم مثالًا عن الأخوّة المُثلىٰ يُشكّكون بإيمان أو تصرّفات بعضهم مع بعض، ويتّهمون بعضهم بوجود نقص في دينهم، ويتبادلون الإهانات ويَدْعون بعضهم بالنفاق واللعنة الدائمة ويُذبّحون بعضهم بابتهاج في كلّ أرض وفي جميع الأقاليم السبع.

أصدرت الجماعة المَعرفية الفلسفية المُدهشة التي تُسمّىٰ **إخوان الصفا** قبل أكثر من ألف عام في العراق في مثل هذه الظاهرة قرارًا صارمًا:

«فهذه محاورات جرت بين رجلين، أحدهما من أولياء الله تعالىٰ وعباده الصالحين الذين نجّاهم الله من نار جهنّم، وأعتقهم من أسرها، وأخلص نفوسهم من عداوة أهلها، وأراح قلوبهم من ألم المعذّبين فيها. والآخر من الهالكين المعذّبين فيها بألوان العذاب، المُحرّقة قلوبهم بحرارة عداوة أهلها، المتألمة نفوسهم بعقوباتها.

قال الناجي للهالك: كيف أصبحت يا فلان؟

قال: أصبحت في نعمة من الله، طالبًا للزيادة، راغبًا فيها، حريصًا علىٰ جمعها، ناصرًا لدين الله، مُعاديًا لأعداء الله، مُحاربًا لهم.

قال الناجي: ومن أعداء الله هؤلاء؟ قال: كلُّ من خالفني في مذهبي واعتقادي.

قال: وإن كان من أهل لا إله إلّا الله؟ قال: نعم.

قال: إن ظفرت بهم ماذا تفعل بهم؟ قال له: أدعوهم إلىٰ مذهبي واعتقادي ورأيي.

قال: فإن لم يقبلوا منك؟ قال: أقاتلهم وأستحلّ دماءهم وأموالهم، وأسبي ذراريهم.

قال: فإن لم تقدر عليهم؛ ماذا تفعل؟ قال: أدعوا عليهم ليلًا ونهارًا، وألعنهم في الصلاة، كلّ ذلك تقرّبًا إلىٰ الله تعالىٰ.

قال: فهل تعلم أنّك إذا دعوت عليهم ولعنتهم يُصيبهم شيء؟ قال: لا أدري! ولكن إذا فعلت ما وصفتُ لك؛ وجدت لقلبي راحةً، ولنفسي لذّة، ولصدري شفاء.

قال الناجي: أتدري لم ذلك؟

قال: لا، ولكن قل أنت.

قال: لأنّك مريض النفس، مُعذّب القلب، مُعاقب الروح،...»[1].

الروح المريضة... ابتداءً من داء السّكري الروحي عند الصوفيّين المُفرطين حتّىٰ السرطان الروحي عند الجهاديين المُتطرّفين، طيف الأمراض الدينية واسعٌ حقًا، ونعاني جميعًا بدرجات مختلفة من الجهل والتعصّب.

---

(١) إخوان الصفا، رسائل، (iii، ٢٩٨ - ٢٩٩) (الرسالة ٣٨).

سيصرخ البعض معترضًا أنّ هذا الحكم من إخوان الصفا هو مذهب الإسماعيلية، ولذلك يدعو «للشك»... لكن ما أهميّة ذلك بما أنّه في هذه الحالة يستطيع إخوان الصفا أن يُرجعوا هذا الرأي إلىٰ أركان الإسلام التشريعية الكبرىٰ - كما ذكر في القرآن والسنة النبوية -: من جهة فرض القتال في سبيل الله وحده، وليس أبدًا لإشباع غرورنا بفرض عقيدتنا أو تقاليدنا علىٰ الآخرين؛ ومن جهة أخرىٰ: التحريم القطعي لإراقة دماء المُسلمين، وذلك ما أقرّه الرسول خلال حجّة الوداع.

تلك هي ذات الأركان التي بمرور القرون أنعشت الروحانية والأخلاق وأسلوب حياة المُسلمين الأخيار. لا يُحبّ ابن تيميّة إخوان الصفا[1] لكن في الفقرة من رسالتهم التي عرضت أعلاه؛ لم يجد شيئًا مُخالفًا لهم، كما يرفض لعن المُسلمين الآخرين لخطأ أو ذنب؛ كما أنّه يُحرّم انتهاك حياة المُسلم وماله وعرضه، ويستنكر التطرّف الذي يفضي للامتناع عن الصلاة خلف أئمّة مُعيّنين، أو في حالة العداوة إلىٰ مُعاملة المُسلمين الذين يُقاتلهم كمُعاملة الكافرين. يُفسّر ذلك بوضوح في الخلاصة التالية من قاعدة أهل السنة والجماعة[2]، فضلًا علىٰ ذلك يقدّم ذاته - كما قام الرسول الكريم - بأنّه مُستعدّ لتقبّل جميع أنواع الأعذار، «الخاصة أو الشائعة، الدائمة أو العرضية»، وهذا ينطبق كذلك علىٰ المُخطئ الذي لا يعلم، أو أخطأ في فهم فرائض الدين، والله يُحبّ التسامح حقًا، ولا يُكلّف نفسًا إلا وسعها، وجعل

---

(١) في هذا الموضوع؛ اطلع علىٰ Y. MICHOT, Misled

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوىٰ، المجلد (٣)، ص (٢٨٢ - ٨٨).

لكلّ شيء قدرًا.

ابن تيمية، مُتطرّف؟ نعم، مُتطرّف في اعتداله...!

## تحريم التكفير.

ليس من المُباح أن نطلق علىٰ مُسلم أنّه (كافر) من أجل ذنب ارتكبه، ولا لشيء أخطأ فيه من المسائل التي يختلف عليها أهل القبلة. قال الله ﷻ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ (البقرة:٢٨٥) الآن من المؤكد في الصحيح: أنّ الله ﷻ يسمع الداعي إذا دعاه ويغفر ذنوب المُؤمنين[1]، قاتل الخليفة الراشد علي بن أبي طالب الخوارج الذين عزلوا أنفسهم (المارقين) من بعد أن أمر رسول الله ﷺ بقتالهم، وقد وافق أئمة الدين (صحابة رسول الله والتابعين) عليّ ابن أبي طالب في قتالهم، لكن لم يسمّيهم عليّ ابن أبي طالب ولا سعد بن أبي وقاص[2] ولا أيّ من الصحابة «بالكافرين»، بل اعتبروهم مُسلمين حتّىٰ وهم يقاتلونهم، ولم يقاتلهم عليّ إلىٰ أن أراقوا ما حرّم الله من الدماء وهاجموا أموال المُسلمين، وقاتلهم حينها؛ ليردع ظلمهم وتطرّفهم وبغيهم، وليس فقط

(١) انظر: كتاب ابن تيمية، بغية المرتاد في الرد علىٰ المتفلسفة والقرامطة، ص (٦٤ – ٦٧).

(٢) أحد العشر المُبشّرين بالجنّة، والمُنتصر علىٰ الفرس في معركة القادسية والحاكم الأول لمدينة الكوفة، ومات بين عامي (٥٠ و٥٨) من الهجرة و(٦٧٠)، و(٦٧٧) ميلادية؛ اطلع علىٰ G. R. Hawting. EI. art. ‘Sa`d b. Abi Wakkas`.

لأنّهم قد يكونون كافرين، ولهذا السبب؛ لم يأسر نساءهم ولم يستولِ علىٰ أموالهم.

إن كان هؤلاء الذين ضلّوا عن شرع الله وعن الجماعة لم يُسمّوا بالكافرين حتّىٰ مع أمر الله ورسوله عليه الصلاة والسلام بقتالهم، فما بالك بالفرق التي تختلف عن بعضها حيث يلتبس الحق، فيما يتعلق بمسائل أخطأ فيها حتىٰ مَنْ هم أكثر منهم علمًا؟ وليس من الجائز تكفير أي فرقة مسلمة، ولا أن يُحكَم باستحلال دمائهم وأموالهم، وإن كان هنالك بدعة مُثبتة في تلك الفرقة. فكيف هو الأمر إن كانت الفرقة التي تسمّي الآخرين بالكافرين هي مُبتدِعة بذاتها؟ قد يكون ابتداع الفئة الثانية أعظم وأغلظ من ابتداع الفئة الأولىٰ، لكنّ الأرجح من ذلك أنّ جميعهم جاهلون بحقيقة اختلافهم.

المبدأ الرئيسي الواجب اتّباعه هو أنّ دماء المُسلمين وأموالهم وأعراضهم مُحرّمة كما هي علىٰ الآخرين؛ فلا يكونون مؤمنين إلا بميثاق من الله ورسوله، وعندما خطب الرسول عليه الصلاة والسلام في [الناس] أثناء حجّة الوداع قال: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا»[1]، كما قال أيضًا عليه الصلاة والسلام: «كل المسلم علىٰ المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[2]، وقال أيضًا

(١) انظر: صحيح البخاري، الحجّ، الباب الثاني (١٧٦)؛ وصحيح مُسلم Qasama، الباب الخامس (١٠٨).

(٢) انظر: صحيح مُسلم، البرّ، الباب الثامن (١١)، سنن أبي داوود، آداب، الباب الرابع، (٢٧٠)، رقم (٤٨٨٢)، مُسند ابن حنبل، الباب الثاني (٢٧٧).

عليه الصلاة والسلام: «من صلىٰ صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له ذمة الله ورسوله»[1]، وقال أيضًا: «إذا التقىٰ المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قيل: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه أراد قتل صاحبه»[2]، وقد قال أيضًا: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»[3]، وقال أيضًا: «إذا قال المسلم لأخيه: يا كافر؛ فقد باء بها أحدهما»[4]، وهذه الأحاديث كلها في الصحاح.

عندما يُقاتل المُسلم أو يقول لآخر أنّه «كافر» اعتمادًا علىٰ تأويله الفردي الخاص به؛ فبذلك لا يُصبح كافرًا، وهذا ما قاله عُمر بن الخطاب عن حاطب بن أبي بلتعة[5]: «يا رسول الله ائذن لي فيه أضرب عنقه؛ فقد كفر» فقال الرسول ﷺ: «يا ابن الخطاب، ما يدريك؛ لعل الله قد اطلع علىٰ هذه العصبة من أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، هذا موجود في الصحيحين[6].

---

(١) انظر: صحيح البخاري، الصلاة، الباب الأول (٨٧).

(٢) انظر: صحيح البخاري، الإيمان، الباب الأول (١٥)، صحيح مُسلم، الفتن، الباب الثامن، (١٧٠)، مُسند ابن حنبل، الباب الخامس (٤٣).

(٣) انظر: صحيح البخاري، العِلم، الباب الأول (٣٥)، صحيح مُسلم، الإيمان، الباب الأول (٥٨).

(٤) انظر: صحيح البخاري، آداب، الباب الثامن (٢٦)، صحيح مُسلم، الإيمان، الباب الأول (٥٧)، مُسند ابن حنبل، الباب الثاني (١٨).

(٥) صحابي (توفي ٣٠هـ/ ٦٥٠م). نتيجة لرسالة أخبر فيها قريش بخطط الرسول، واشتبه بخيانته لكن غفر له؛ انظر: ابن الأثير، أسد الغابة، الباب الأول (٣٦٠ – ٦٢).

(٦) انظر: صحيح البخاري، المغازي، الباب الخامس (٧٨). صحيح مُسلم، فضائل الصحابة، الباب السابع (١٦٨).

نقرأ في الصحيحين أيضًا في حادثة الإفك[1]: أنّ أسيد بن حضير[2] قال لسعد بن عبادة[3]: «إنك منافق تجادل عن المنافقين!»، وتجادل الفريقان معًا ولم يزل الرسول عليه الصلاة والسلام يخفضهم حتّىٰ سكتوا. هؤلاء المُحاربون في غزوة بدر، تجد أحدهم يدعو الآخر بالمُنافق، ولا تجد الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو أيًّا منهما «بالكافر»، بدلًا من ذلك يشهد أنّ جميعهم سيدخلون الجنّة.

كذلك ثبت في الصحيحين[4]: عن أسامة بن زيد[5] أنّه قتل رجلًا بعد أن قال «لا إله إلا الله»، وقد وجد الرسول عليه الصلاة والسلام ذلك عظيمًا عندما علم بذلك. «يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟»، يقول أسامة: فما زال يكررها علي حتىٰ تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم! رغم ذلك لم يفرض عليه الرسول القَوَد (القصاص لقريب المُتوفّىٰ) أو

(١) انظر: صحيح البخاري، المغازي، الباب الخامس (١١٦ - ٢١) خاصة ص (١١٩)، صحيح مُسلم، التوبة، الباب الثامن (١١٢ - ١٨) خاصة (١١٦)، مُسند ابن حنبل، الباب السادس (١٩٦).

(٢) صحابي من المدينة المنوّرة من قبيلة الأول (توفي ٢٠هـ/ ٦٤٠م)؛ انظر: ابن الأثير، أسد الغابة، الباب الأول (٩٢ - ٩٣).

(٣) صحابي كريم من المدينة المنوّرة من قبيلة الخزرج، وقد طلب العفو من عبد الله بن أبيّ من بعد حادثة الإفك؛ انظر: W. MONTGOMERY, EI, art. Sa'd b. Ubada'

(٤) انظر: صحيح البخاري، الديّات، الباب التاسع (٤)؛ صحيح مُسلم، الإيمان، الباب (٦٧).

(٥) أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي (توفي حوالي ٥٤هـ/ ٦٧٤م)، عبد أطلق الرسول عليه الصلاة والسلام سراحه، وقد كان لديه مكانة خاصة في قلب الرسول عليه الصلاة والسلام؛ انظر: V. VACCA. EI. ART. 'Usama b. Zayd'

دفع الديّة، أو الكفّارة، علىٰ اعتبار أنّ فعله هذا كان لتأويله أنّ من الجائز له قتل هذا الرجل الذي يقول «لا إله إلا الله»؛ لأنّه اعتقد أنّه قال ذلك ليحمي نفسه.

## القتال بين المسلمين.

كذلك تقاتل السلف معًا ممن شاركوا في معارك الجمل[1] وصفّين[2] وغيرها، وجميعهم كانوا مُسلمين ومؤمنين، كما قال ﷻ: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (الحجرات:٩).

بالتالي؛ الله ﷻ قال بوضوح: حتّىٰ إن كانوا يتقاتلون وبعضهم مارسوا التطرّف ضد الآخرين، فهم إخوة مؤمنون، وأمر بالإصلاح بينهم بالعدل.

لهذا حافظ السلف علىٰ الأخوّة بينهم - أخوّة الدين - وإن قاتل بعضُهم بعضا، لكن لم يُكِنّوا بين بعضهم تلك العداوة التي ضدّ الكافرين، وقبلوا الشهادة فيما بينهم وتناقلوا العلم بين بعضهم وتوارثوا بين بعضهم وتزوّجوا من بينهم وتعاملوا مع بعضهم مُعاملة المُسلمين؛ رغم ما طرأ بينهم من قتال ولعن متبادل وغير ذلك.

---

(١) معركة بين عائشة أم المؤمنين والزبير وطلحة ضدّ علي ﷺ جميعا عام ٣٦هـ/ ٦٥٦م؛ انظر: L. VECCIA VAGLIERI, EI, art. 'al - Djamal'

(٢) معركة مُعاوية ضدّ علي (٣٦ هـ/ ٦٥٦م)؛ انظر: M. LECKER, EI, art. 'Siffin'

ثبت بالصحيح[1]: أنّ الرسول عليه الصلاة والسلام سأل ربّه ألا تهلك أمته بقحط عام، وقد أجابه الله؛ وسأل الله ألا يطغىٰ عدّو خارجي علىٰ الأمّة، وقد أجابه الله؛ وسأل الله ألا يبث البأس (الضرر) في أمّته، لكن لم يجبه في هذا، وأخبرنا الرسول عليه الصلاة والسلام أيضًا أنّ الله لن يدع عدوًّا خارجيًا يُسيطر ويهزم جميع المُسلمين إلىٰ أن يقتل ويأسر بعضهم بعضًا[2].

### تفاصيل من وعاء معدني حراري.

أثبت هذا أيضًا في الصحيحين[3]: عندما نزل قول ﷻ: «قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ»؛ فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: «أعوذ بوجهك»، «أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ»؛ قال الرسول: «أعوذ بوجهك»، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ (الأنعام:٦٥)؛ قال: «هذا أهون وأيسر».

هذا هو الحال رغم أنّ الله أمر بتشكيل الجماعة وأن تتآلف وحرّم البِدعة والاختلاف. قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ (الأنعام:١٥٩)، وقال الرسول عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا يجمع أمّتي علىٰ ضلالة، ويد الله مع الجماعة»[4]. وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ

---

(١) انظر: صحيح مُسلم، الفتن، الباب الثامن (١٦١ - ٧٢)، مُسند ابن حنبل، الباب الرابع (١٢٣).

(٢) انظر: نهاية الحديث المُقتبس السابق: صحيح مُسلم، الفتن، الباب الثامن (١٧١).

(٣) انظر: صحيح البخاري، التفسير القرآن، الباب السادس (٥٦)، مُسند ابن حنبل، الباب الثالث (٣٠٩). لم أستطع تحديد مكان هذا الحديث في صحيح مُسلم.

(٤) انظر: سُنن الترمذي، الفتن، الباب الثالث، ٣١٥-٢٢٥٤ و٥٥.

الْوَاحِدِ، وَمِنَ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام أيضًا: «إنّ الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم، يأكل الشاة القاصية»[2].

## نُصلّي خلف من؟

عندما يأتي المُسلم إلىٰ إحدىٰ مُدن المُسلمين يُفرض عليه أن يُصلّي صلاة الجُمعة وصلاة الجماعة ويُكنّ المودّة للمؤمنين وألا يُبدي العداوة لهم، وإن رأىٰ أحدهم قد ضلّ وأخطأ وكان مُمكنًا له أن يُرشده ويُوجّهه؛ فيجب عليه أن يقوم بهذا، وفي حال عدم قدرته علىٰ هذا؛ عندها ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة:٢٨٦).

إن كان هذا الفرد فيما يخص إمامة المُسلمين[3] لديه القدرة علىٰ منح الإمامة لمن هو أحق؛ فعليه منحه تلك الإمامة، وإن كان لديه القدرة علىٰ منع أحد ما غارقا بشدة في البِدَع والفساد (الفجور) من تلك الإمامة؛ فعليه منعه، وفي حال لم يكن يملك القدرة علىٰ ذلك؛ فمن الأفضل الصلاة وراء من هو أعلم بكتاب الله وسنّة نبيه وأحرص علىٰ طاعة الله ورسوله. لذا؛ قال رسول الله ﷺ في حديثه الموثّق: «يؤم القوم أقرؤُهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا بالسنة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في

---

(١) انظر: سُنن الترمذي، الفتن، الباب الثالث (٣١٥)، رقم (٢٢٥٤)، مُسند ابن حنبل، الباب الأول (١٨).

(٢) انظر: مُسند ابن حنبل، الباب الخامس (٢٣٣).

(٣) المعنىٰ الأصلي لكلمة «الإمامة» آتٍ من إمامة المُسلمين في الصلاة.

الهجرة سواء فأكبرهم سنا»[1]، وإن كان هنالك مصلحة غالبة في الانصراف عمّن غرق في البدع والفجور، فعليه أن ينصرف عنه؛ كما انصرف الرسول عليه الصلاة والسلام عن ﴿ ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ (التوبة:١١٨)[2] إلىٰ أن تاب الله عليهم.

بالمقابل؛ إن اختصّ أحدٌ آخر بالإمامة خلاف من هو أجدر بها دون مُوافقة هذا الشخص وإن لم تكن هنالك مصلحة شرعية في هجر الصلاة خلفه، فترك صلاة الجمعة وصلاة الجماعة هو جَهل وضلال، وبقيام هذا الشخص بذلك هو ردّ البدعة ببدعة أخرىٰ! تفرّق الناس حقًا في ضرورة أن يُعيد المُصلّي صلاته إن صلّىٰ الجُمعة خلف من هو فاجر، لكن أبغض معظمهم فكرة إعادة الصلاة، وذهب أحمد بن حنبل بعيدًا في قوله، عن رواية عبدوس[3]: «من أعادها فهو مُبتدع»، هذا هو الأوضح في أمرين قالهما حول هذا الموضوع. حقا لم يعتَدِ الصحابة علىٰ إعادة الصلاة عندما صلّوا خلف

---

(١) انظر: صحيح مُسلم، المساجد، الباب الثاني (١٣٣).

(٢) انظر سورة التوبة، الآية (١١٨): ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾. نزلت هذه الآية في غزوة تبوك (في عام ٩هـ/ ٦٣٠م)، انظر: Y. MICHOT, Muslims, 87 - 91. في موضع الهجرة من السيّئات وأعوان الشر عند استحالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالفعل؛ انظر في: نصوص ابن تيمية المُترجمة والمدروسة في Y. MICHOT, Muslims, 66 - 100, 10 - 20

(٣) عبدوس بن مالك العمّار، أبو محمّد، تلميذ ابن حنبل؛ انظر: طبقات ابن حنبل، الباب الأول (٢٢٦ – ٣٠)، رقم (٣٣٨)؛ خاصة ص (٢٢٨).

أعوان الفساد والبدع، وأيضًا لم يأمر الله ﷻ أحدًا بإعادة الصلاة إن صلّىٰ كما أمِر، وذلك تبعًا لما فيه استطاعته.

**فعل ما هو المُستطاع.**

لهذا؛ كان أصحّ الأمرين من أقوال العلماء هو القول أنّ من يُصلّي تبعًا لما هو قادر عليه ليس مفروضًا عليه إعادة صلاته، وهذا أيضًا ينطبق علىٰ المُتيمّم خوفًا من البرد ومن ليس لديه ماء أو تراب عندما يُصلّي علىٰ حالته. السجين ومن لديه عذر خاص أو عام، مُستمر أو عَرَضي، ليس مفروضًا علىٰ أيّ منهم إعادة الصلاة إن صلّوا أول مرّة تبعًا لما هم قادرين عليه.

ثبت في الصحيح: أنّ الصحابة صلّوا دون ماء أو تيمّم عندما فقدت عائشة أم المُؤمنين عقدها، ولم يأمر الرسول ﷺ أحدًا منهم بإعادة صلاتهم[1]، حتّىٰ ما هو أكبر من ذلك: أنّ أحدًا كان تاركًا للصلاة جاهلًا بأنها واجبة، والرسول الكريم لم يأمره بتعويض ما فاته، وعندما أصاب كلًّا من عُمر[2] وعمّار[3] حدث أكبر، وترك عُمر الصلاة، ومرّغ عمّار نفسه في التراب كما تُمرّغ الدابة؛ لم يأمرهم الرسول الكريم بتعويض الصلاة[4]. وأصاب أبو ذر[5] حدثًا أكبر فلم

(١) انظر: صحيح البخاري، التيمّم، الباب الأول (٧٤).

(٢) عُمر: عمّار F.

(٣) عمّار بن ياسر من أوّل من أسلموا، وقد اضّطهد من أهل مكّة بعد إسلامه، ومات في معركة صفّين (٣٧هـ/ ٦٥٧م) في مُعسكر عليّ؛ انظر: أسد الغابة لابن الأثير، الباب الرابع (٤٣ - ٤٧).

(٤) انظر: صحيح البخاري، التيمّم، الباب الأول (٧٥).

(٥) أبو ذر الغفاري (توفي حوالي ٣٢هـ/ ٦٥٢م) صحابي من أول من أسلم، اشتهر بتقواه=

يُصلِّ، ولم يأمره الرسول الكريم بتعويض الصلاة. كما أنّ المرأة الشابة التي كان لديها نزيف خارج وقت طمثها، وعندما كان نزفها شديدًا ومتدفّقًا ويمنعها من الصلاة والصيام؛ لم يأمرها بتعويض صلاتها[1]. كما أنّ الذين كانوا معتادين خلال رمضان أن يأكلوا حتّىٰ يتبيّن لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود؛ لم يأمرهم بتعويض الصيام الذي فاتهم، حيث أخطأوا في معنىٰ الآية واعتقدوا أنّ ما عُنيَ بكلام الله ﷻ: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ (البقرة:١٨٧)؛ هو الخيط حرفيًا، ولذلك؛ قال الرسول ﷺ «إنما هو سواد الليل وبياض النهار»[2]، ولم يأمرهم بتعويض الصيام الذي فات، كما أنّ من اعتاد علىٰ أداء صلاته بصورة خاطئة[3]؛ لم يأمره الرسول الكريم بإعادة الصلوات التي أدّاها سابقًا، والمُسلمون الذين كانوا في مكة وفي الحبشة وفي أماكن أخرىٰ صلّوا باتجاه القدس بعد أن تحولت القِبلة بأمر الله بالصلاة باتّجاه الكعبة، واستمرّوا بالصلاة باتجاه الصخرة حتّىٰ جاءهم خبر النسخ، ولم يأمرهم الرسول الكريم بإعادة الصلوات التي أدّوها. فهؤلاء كانوا معذورين أكثر من غيرهم، باعتبارهم كانوا متبعين لقانون مُلغىٰ.

---

=وزهده؛ انظر: J. ROBSON, EI, art. 'Abu Dharr al - Ghifari

(١) انظر: سُنن ابن ماجة، الصحارىٰ، الباب الأول (٢٠٥ - ٠٦)، رقم (٦٢٧).

(٢) انظر: صحيح مُسلم، الصيام، الباب الثالث (١٢٨).

(٣) انظر: صحيح البخاري، الأذان، الباب الأول (١٥٨)، صحيح مُسلم، الصلاة، الباب الثاني (٢٧ - ٢٨).

اختلف العلماء حول أوامر الله ورسوله للناس، هل هذه الأوامر مفروضة[1] علىٰ العباد قبل أن تصل إليهم؟ هناك ثلاثة أقوال في مذهب أحمد بن حنبل والفقهاء الآخرين، فقيل «أنها كذلك»، وقيل أيضًا: «ليست كذلك»، وقيل أخيرًا: ينطبق هذا في الأوامر الأصلية، وليس علىٰ الأمور الملغية. الأصح: هو ما يُشير إليه القرآن في كلام الله ﷻ: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (الإسراء:١٥)، وأيضًا قوله تعالىٰ: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ ﴾ (النساء:١٦٥). ذكر في الصحيحين[2]: أنّ الرسول ﷺ قال: «ولا أحد أحبُّ إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين».

إنّ حال من يقع في تفسيرات شخصية (المُتأوّل) والجاهل لعذر ليس كحال المُعاند والفاجر، لكن بالأحرىٰ ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ (الطلاق:٣).

***

(١) أي أنّ هذه الأوامر هي بالأصل أوامر يجب أن تُطاع بالتأكيد.

(٢) انظر: صحيح البخاري، التوحيد، الباب التاسع (١٢٣ - ٢٤). صحيح مُسلم، التوبة، الباب الثامن (١٠١).

# الفصل السابع عشر:
# المُسلم بين الكافرين

يتّبع أهل السنّة الحق الذي جاء به الرسول الكريم من ربّه ولا يلعنون الكفرة المُخالفين لهم فيه، بل هم أعلم بالحقّ وأرحم بالخلْق، وهذا هو وصف الله الذي أطلقه علىٰ المُسلمين بقوله تعالىٰ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «أنتم خير الناس للناس»[١]. إنّ أهل السنّة هم نقاوة المُسلمين، وهم بذلك خير الخلق للبشرية[٢].

لا نكاد ننظر للآخرين دون أن ننعتهم غالبًا «بالكافرين» أو «المُنافقين» أو «العصاة» وغير ذلك، ولا ينجو منّا حتّىٰ المُسلم الجديد ويبقىٰ بالنسبة لكثيرٍ منّا كاليهودي أو المسيحي أو المُلحد وهو لم يَعُد كذلك. يا لها من طريقة غريبة لَنتمنّىٰ أن نكون «خير الرجال للناس»! بالنسبة للحالة الثانية فالأمر بسيط: دخول الإسلام يغفر الارتباطات السابقة الدينية منها أو الوثنية. بينما في الحالة الأولىٰ قد يثبت أنّ الحقيقة مُعقّدة خصيصًا، فمَنْ – حقّا – يُقنعنا أنّ فلانًا من «العاصين» لديه الحرية ليعرّف عن نفسه في كلّ مكان بأنّه

---

(١) انظر: صحيح البخاري، تفسير القرآن الكريم، الباب السادس (٣٧ – ٣٨).

(٢) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، الباب الخامس (١٥٨).

أكثر تديّنًا، وأنّ «المُنافق» ليس مجبرًا ليلعب الدور الذي نلومه عليه، وأنّ من نُسمّيه «الكافر» ليس مُسلمًا بالخفاء؟

يدعونا ابن تيمية في النصّين التاليين[1] لِنكون أرفق وأحرص في كيفية النظر للناس الآخرين، سواء كانوا مُسلمين أو لا، وذكر خصيصًا شخصية النجاشي أصحمة[2]، هذا الحاكم المسيحي للحبشة الذي اشتهر بعرضه الملجأ للمُسلمين المُضطهدين من أهل مكّة المؤمنين بمحمّد ﷺ. لكن لم يستطع إعلان إسلامه، ولا أن يُمارس الإسلام علىٰ العلن، ولا الحكم تبعًا لشعائره، وفعل ما تسمح به سلطته، وكتبَ ابن تيمية «النجاشي ومن شابهه فرحين بالجنة». عندما علم الرسول عليه الصلاة والسلام بموته، أقام عليه صلاة الجنازة للغائب، وعندما انتقده أحدهم لصلاته علىٰ كافر بعيد؛ أكّد الله بنفسه دفاعه عن نبيّه بإنزاله للآية ١٩٩ في سورة آل عمران: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾، كم هناك من «الكافرين» ممن نعيش بينهم، وكم آخرين من المُسلمين بالخفاء - غير النجاشي - رفضنا أن نصلّي عليهم؟

**فقبل** قرونٍ عديدة من النجاشي أصحمة - لكن أيضًا في أفريقيا -؛ كانت الحاشية الكافرة للفراعنة مثالًا آخرًا لمُؤمنين أجبروا علىٰ إخفاء إيمانهم،

---

(١) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، الباب الخامس (١١١ - ١٦) (أ)؛ الباب السادس (٤٢٣ - ٢٥) (ب).

(٢) حول شخصية النجاشي في المصادر الإسلامية؛ انظر:
E. VAN DONZEL, EI. art. 'al - Nadjashi'.

عارض أحد أفراد عائلة فرعون إعدام نبيّ الله موسىٰ ﷺ، وكذلك زوجة فرعون التي رعت موسىٰ عندما كان طفلًا صغيرًا، وبالطبع نبيّ الله يوسف ﷺ ابن يعقوب ﷺ، والذي فضّل السجن علىٰ طاعة مخلوق في عصيان الله، وانتهىٰ به الحال أن أصبح حاكمًا لمصر. يُمثل يوسف ﷺ بالنسبة لابن تيمية حقيقة غالبًا ما تُنسىٰ: هنالك طرق أخرىٰ كثيرة للمؤمنين، وفقًا للظروف، ليضعوا أنفسهم بمواجهة غير المُسلمين غير الجهاد، وخاصة «إرادة الخير فيهم» والمُساهمة قدر المُستطاع لفرض العدل بينهم وإلم يعتنقوا دينهم. خلال أسوأ حالات الاضطهاد، حتّىٰ إعلان الكُفر مسموح به من الله، وفي الحالات الأقل شدّة لم يحرّم الله ﷻ إخفاء دين المرء بشرط أن يحمي قلبَه، وفي البيئات التي يُفرض فيها الاندماج واستحالة الهجرة؛ تكون المُرونة فرضًا، وذلك تبعًا للشيخ الدمشقي، والإيمان الذي يُحافظ عليه المرء في القلب يقتضي مُعاملة غير المُسلمين باستمرار «بالصدق والأمانة والإخلاص» في يومنا الحاضر كما كان في عصره.

### أ. الكفار المؤمنون.

هنالك مِن بين الكفار مَن وصلته دعوة الرسول ﷺ في أرض الكفر، ويعلم أنّه رسول الله وآمن به وآمن بما أنزل عليه، ويخاف الله بأقصىٰ وسعه - كما كان النجاشي وآخرون -، لكن ليس بمقدوره الهجرة إلىٰ أرض الإسلام أو إقامة كامل شعائر الإسلام، فهم ممنوعون من الهجرة وممنوعون من إشهار دينهم، وكذلك لا يوجد أحد من بينهم يستطيع تعليمهم كامل

شعائر الإسلام، فهؤلاء مؤمنون من بين أهل الجنة، كما كان المؤمن من أهل فرعون مع قوم فرعون[1]، وكذلك الأمر مع زوجة فرعون[2]، وكذلك أيضًا يوسف الصدّيق عليه السلام مع أهل مصر الذين كانوا غير مؤمنين: لم يكن قادرًا على تطبيق كل ما يعرفه عن دين الإسلام معهم؛ ودعاهم للشهادة بتوحيد الله والإيمان لكنّهم لم يستجيبوا لدعائه[3].

قال جل جلاله عن المؤمن من آل فرعون: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ ﴾ (غافر:٣٤).

كان هذا أيضًا مع النجاشي، فرغم أنّه كان ملكًا نصرانيًا إلا أنّ شعبه لم يطيعوه في دخول الإسلام؛ بل لم يدخل الإسلام إلا مجموعةٌ صغيرة معه، ولذلك عندما مات لم يكن هنالك أحد ليُصلّي عليه، ومن أجل ذلك؛ صلّىٰ عليه رسول الله عليه الصلاة والسلام في المدينة، فخرج مع المُسلمين إلىٰ المُصلّىٰ وأوقفهم في صفوفٍ وصلّىٰ عليه، وأخبرهم بموته في يوم وفاته

(١) انظر سورة غافر، الآية (٢٨): ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ ﴾.

(٢) انظر: سورة القصص، الآية (٩) حول قصة التقاط الطفل موسىٰ، ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾. في تفسير ابن كثير (الباب الثالث، ٣٦٨)، ردّ فرعون علىٰ زوجته: «لك نعم. لي فكلّا!» وهذا ما كان، وقد قادها الله لهذا السبب ليُهلكه علىٰ يدي موسىٰ.

(٣) هكذا كان يوسف الصدّيق نائبًا لفرعون مصر، الذي كان وشعبه من المُشركين. لكنّ يوسف عليه السلام طبّق العدل والخير الذي كان قادرًا علىٰ تطبيقه.

وقال: «مَاتَ الْيَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَىٰ أَخِيكُمْ أَصْحَمَةَ»[1].

لم يتّبع[2] النجاشي كثيرًا - أو حتّىٰ معظم - تشريعات الإسلام، ويُرىٰ أنّه لم يكن قادرًا علىٰ ذلك: ولم يُهاجر أو يطلق الجهاد، ولم يَحُجّ البيت[3]، بل حتّىٰ ذكِر أنّه لم يُصلّ الصلوات الخمس اليومية، ولم يصم شهر رمضان، أو يدفع الزكاة، فذلك بالتأكيد سيكشف دينه للناس وسيُؤنَّب في ساعتها عندما لم يكن مُمكنًا له مُعارضتهم، وعرف أيضًا يقينًا أنّ من غير المُمكن له أن يحكم بينهم بأحكام القرآن.

عندما جاء أهل الكتاب في المدينة إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام أمره الله بالحكم بينهم بما أنزل عليه من الوَحي، وأخبره بأخذ الحذر؛ خشية أن يُحاولوا ثَنْيَه عن بعض التكاليف التي أنزلها الله عليه، مثل الحكم الصادر علىٰ الرجل المُتزوّج (المُحصن) بإقامة عقاب (حدّ) الرجم بالحجارة عند الزنا[4]، والتكليف بفرض العدل بشأن ديّة القتل، والتكليف بالجزاء النفس بالنفس والعين بالعين بشأن إراقة الدماء، دون تمييز بين خاصة القوم

---

(١) انظر: صحيح البخاري، مناقب الأنصار، الباب الخامس (٥١).

(٢) المصادر: «لم يدخل في...».

(٣) أي: الكعبة.

(٤) يُعاقب الزنا بالرجم؛ تبعًا لمدارس مختلفة في الفقه السنّي عندنا: يكون فاعله بالغًا وحُرًّا ومُتزوّجًا (أو كان قد تزوّج سابقًا). هذا أشد من المئة جلدة المذكورة في سورة النور، الآية (٢)، لذات الذنب، وهذه العقوبة مبنيّة علىٰ أعراف مختلفة ووحي لم يبق بصورته النهائية التي في القرآن الكريم، تبعًا لعمر بن الخطاب الذي شهد إحداها؛ انظر:
R. PETERS, EI, art. 'Zina'; I. K. POONAWALA, Last Years, 191, n. 1321.

وعامتهم، وغير ذلك.

لم يكن مُمكنًا للنجاشي أن يحكم بأحكام القرآن الكريم، وفي الواقع لن يسمح له شعبه بذلك، فكم رجلٍ وُلّيَ القضاء بين المُسلمين والتتار - أو حتّىٰ كإمام - وفي نفسه بعض المسائل في العدل التي يتمنّىٰ أن يُطبّقها، لكن ليس مُمكنًا له فعل ذلك أو أنّ هنالك أناسًا يمنعونه من ذلك! ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة:٢٨٦)، وكان عُمر بن عبد العزيز[١] موضعًا للعداوة وسوء النيّة ممن حوله بسبب إقامته لبعض تدابير العدل، وقيل أيضًا أنّه سُمّم بسبب ذلك.

النجاشي ومن شابهه سعداء في الجنة حتّىٰ وإن لم يُقيموا تعاليم الإسلام التي لم يكونوا قادرين علىٰ إقامتها، بل حكموا تبعًا للأحكام التي كان بمقدورهم فرضها، ولهذا السبب؛ وضع الله هؤلاء الناس مع أهل الكتاب، فقال الله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (آل عمران:١٩٩)[٢].

---

(١) الخليفة الأموي عُمر الثاني (تولّىٰ الحكم عام ٩٩ هـ/ ٧١٧ م إلىٰ أن توفّىٰ عام ١٠١ هـ/ ٧٢٠م)، ولا يزال مشهورًا بتقواه؛ انظر: P. M. COBB, EI, art. ʿUmar II.

(٢) «كما هو بالنسبة للنجاشي وأصحابه، ممن أعلنوا أنفسهم بأنّهم يُمارسون أكثر ما كان الناصريون يفعلونه، لا يزال أمرهم ملتبسًا، ولهذا ذكر الفقهاء ما يلي كمُناسبة لإنزال هذه الآية: عندنا مات النجاشي صلّىٰ الرسول ﷺ، عليه؛ فقال أحدهم: «هل تصلّي علىٰ علج (كافر) ناصريّ عاش بعيدًا عنا في بلاده؟» ثم نزلت هذه الآية. روي ذلك عن جابر وأنس بن مالك وابن عبّاس ﷺ - الذين كانوا من الصحابة الذين حضروا الصلاة علىٰ النجاشي -، وهكذا كان الأمر مختلفًا جدًا عمّا حدث مع ابن سلام وسلمان الفارسي ﷺ،=

قال السلف أنّ هذه الآية نزلت في النجاشي، ورُوي ذلك عن جابر وعن ابن عبّاس وعن أنس[1]، ومن بينهم أيضًا من قال أنّها نزلت فيه وفي أحد الصحابة، كما قال الحَسَن[2] وقتادة، وهكذا المعنىٰ الذي قاله الصحابة؛ فالله وحده مَن تجب طاعته[3]. إنّ البيان في الآية بيانٌ بالجمع، وبهذا لم يكن المقصود شخصًا مُفردًا، وأيضًا ذكر عن عطاء[4] أنه قال: «نزلت هذه الآية في أربعين من أهل نجران وثلاثين من أهل الحبشة وثمانية من البيزنطيّين (الروم) الذين كانوا علىٰ دين المسيح ﷺ وآمنوا بمحمّد ﷺ».

لم يذكر المُفسّرين أولئك الذين آمنوا بالرسول ﷺ في المدينة - مثل عبد الله بن سلام[5] وآخرين ممّن كانوا من اليهود، وسلمان

---

=ذلك عندما صلّىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام علىٰ أحدهما فلم يلُمْه أحد. هذه من الأمور التي توضّح أنّ ممّن أشهروا إسلامهم كان بعض المُنافقين الذين لا يُصلّىٰ عليهم - وهذا ما بيّنه الوحي الذي نزل في ابن أبيّ ومن شابهه -، وكذلك فإنّ هنالك في أرض الكفر مؤمنين يُصلّىٰ عليهم، كما كانت الصلاة علىٰ النجاشي» (ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، الباب الخامس، ١١٩).

(١) أنس بن مالك، أبو حمزة (توفي عام ٩١ هـ/ ٧٠٩ أو ٩٣ هـ/ ٧١١ م)، صحابي؛ انظر: A. J. WENSINCK – J. ROBSON, EI, art. 'Anas b. Malik'

(٢) أبو سعيد، الحسن البصري (توفي في البصرة، ١١٠ هـ/ ٧٢٨ م)، واعظ شهير وسيّد روحي لجيل من التابعين؛ انظر: H. RITTER, EI, art. 'al - Hasan al - Basri'.

(٣) أي: لفهم كلماته بصورة صحيحة.

(٤) مختص بارز مُبكّر في الفقه (توفي في مكّة، ١١٤ هـ/ ٧٣٢ م أو ١١٥ هـ/ ٧٣٣ م)؛ انظر: J. SCHACHT. EI. art. 'Ata' b. Abi Rabah'

(٥) صحابي يهودي من بني القينقاع في المدينة (توفي عام ٤٣ هـ/ ٦٦٣ - ٤)؛ انظر: J. HOROVIIZ. EI, art. 'Abd Allah b. Salam. أسلم ابن سلام في الأيام الأولىٰ من=

الفارسي[1] وآخرين ممّن كانوا من النصرانيّين، وبالتأكيد كانوا من المؤمنين؛ ولذلك لم يُقل عنهم: ﴿ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (آل عمران:١٩٩).

فضلًا علىٰ ذلك؛ لن يقول أحد أنّ اليهود والنّصارىٰ، من بعد اعتناقهم الإسلام وهجرتهم وانضمامهم لجُملة المُسلمين المُهاجرين وجهادِهم لا يزالون من أهل الكتاب، وكذلك لن يُقال أنّ الصحابة الذين كانوا مُشريكن: «من المُشركين من يؤمن بالله ورسوله...». فمن بعد إيمانهم لم يعد يُطلق عليهم «الكافرون»، وبالتالي يُشير هذا إلىٰ أنّ الناس المذكورين في الآية [١٩٩ من سورة آل عمران] هم جماعة من أهل الكتاب - أي: هم جزء من جماعتهم - ممّن آمنوا بالرسول الكريم.

لذا؛ قال ﷻ هذا أيضًا عن المرء الذي قُتِل خطئًا: ﴿ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ (النساء:٩٢)، كان هذا المرء إلىٰ جانب العدو وكان مؤمنًا، لكن لم يكن قادرًا علىٰ الهجرة أو إعلان إيمانه، أو التزام شرائع

---

=وصول الرسول ﷺ المدينة، وقال: «فلما رأيت وجهه عرفت أنّ وجهه ليس بوجه كذّاب» [١١٨...]، ابن سلام واحد من جملة الصحابة والمؤمنين، وهو من أفضلهم، وكذلك سلمان الفارسي، فلا يقال فيه: إنه من أهل الكتاب. وهؤلاء لهم أجورهم مثل أجور سائر المؤمنين بل يؤتون أجرهم مرتين، وهم ملتزمون بجميع شرائع الإسلام، فأجرهم أعظم من أن يقال فيه: «أولئك لهم أجرهم عند ربّهم». (ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، الباب الخامس، ١١٧ - ١٨).

(١) صحابي، كان مسيحيا، من أصل فارسي، كان عبدًا ليهودي في المدينة قبل إسلامه (توفي عام ٣٥ هـ/ ٦٥٥م أو ٣٦ هـ/ ٦٥٦ م)؛ انظر:

G. LEVIDELLA VIDA, EI, art. 'Salman al - Farisi'.

الإسلام، لكن سمّاه الله «المؤمن» بسبب إيمانه، وأدّىٰ ما كان بمقدوره أن يؤديه.

كذلك أيضًا كان في مكّة جماعة من المُسلمين الذين عاشوا بإيمانهم بالخفاء، غير قادرين علىٰ الهجرة، وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (النساء:٩٧ - ٩٩). لذلك؛ عفا الله سبحانه عن المُستضعفين الذين لا يقدرون علىٰ الهجرة، وقال ﷻ: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (النساء:٧٥). كان هؤلاء عاجزين عن مُمارسة دينهم، ولذلك سقطت عنهم الشعائر التي كانوا عاجزين عن مُمارستها.

فإن كان هذا ينطبق علىٰ من كان مُشركًا وآمن، فما رأيك إذن بمن كان من أهل الكتاب وآمن؟

### ب. الإيمان في الخفاء وإرادة الخير للآخرين.

قال الله ﷻ: ﴿ ... إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ (آل عمران:٢٨)[1]، وقال مُجاهِد[2]

---

(١) سورة آل عمران، الآية (٢٨): ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

(٢) من التابعين (٢١ هـ/ ٦٤٢ م - حوالي ١٠٢ هـ/ ٧٢٠ م في مكة)، مُفسّر شهير للقرآن=

في تفسيره: «... إلا مُصانعة في الدنيا ومُخالقة»، فلا تكون حماية نفسي في أن أكذب وأقول بلساني شيئًا ليس في قلبي؛ إنّ ذلك هو النفاق، بل في أن أفعل ما في مُستطاعي، ولذلك؛ ذكر في الصحيح[1] عن الرسول ﷺ أنّه قال: «من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

إن وَجَد المؤمن نفسه بين الكافرين والفجّار؛ فليس مُلزمًا بأن يشنّ جهاد اليد ضدّهم عندما لا يكون قادرًا علىٰ هذا، لكن بلسانه إن استطاع، وإن كان أيضًا غير قادرٍ فبقلبه، وذلك يكون بألّا يكذب ولا يقول ما ليس في قلبه، فإمّا أن يُشهر دينه أو يُخفيه، وهذا بألّا يوافقهم علىٰ دينهم بالكامل، بل غالبًا سيكون مثل المؤمن من أهل فرعون ومثل زوجة فرعون؛ لم يُوافقهم علىٰ دينهم بكامله ولم يكذب ولم يقل أيّ شيء علىٰ لسانه ليس في قلبه، لكن أخفىٰ إيمانه.

أن يُخفي المرء دينه أمر، وأن يتظاهر بممارسة دين باطل أمرٌ آخر، فلم يأمر الله بهذا أبدًا إلا لِمَن أكره، ولذلك سمح الله لهم أن ينطقوا كلمة الكفر، وميّز الله ﷻ بين المُنافق ومن أكرِه، وحال الرافضة[2] كحال المنافقين، وليس كمن أكره وتظاهر بالكفر بينما قلبه مطمئن بالإيمان.

---

=الكريم؛ انظر: A. RIPPIN. EI, art. 'Mudjahid b. Djabr al - Makki'.

(١) انظر صحيح مُسلم، الإيمان، الباب الأول (٥٠)، مُسند ابن حنبل، الباب الثالث (٢٠).

(٢) لقب للشيعة الذين «رفضوا» الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل؛ انظر: أعلاه ص (٢٢٣)، رقم (٤)؛ IBN TAYMIYYA. MF ترجمة MICHOT, Textes XII, 30; Textes XIII, 25.

مثل هذا الإكراه لن يكون عامًا يُمارسه جمهور بني آدم، لكن قد يكون المُسلم مأسورًا أو معزولًا في بلاد الكفر دون أن يُكرِهَه أحد علىٰ نطق كلام الكفر، فهو لن ينطق هذا الكلام، ولن ينطق بلسانه شيئًا ليس في قلبه، ولربّما يحتاج لأن يلين مع بعض الكافرين بوجههم لكي يصدّقوا أنّه واحد منهم، ولكن عليه ألا ينطق بلسانه شيئًا ليس بقلبه بل عليه إخفاء ما في قلبه. هنالك فرق بين الكذب وإخفاء الشيء، فيلجأ المؤمن لهذا الأسلوب بإخفاء ما في روحه، ولذلك؛ يعفو الله عنه بشأن إعلان دينه أو عدمه، وذلك علىٰ شاكلة المؤمن من أهل فرعون. أيضًا كمَن يقول كلام الكفر، لن يعفوا الله عنه إلا إن كان مُكرهًا علىٰ قول ذلك. أخيرًا: لن يعفو الله عن المُنافق الكذّاب الأشر بأيّ ظرف كان. ولدينا بديل عن الكذب إن استعملنا عبارات مبهمة، فضلًا علىٰ ذلك؛ قد يجد هذا المؤمن المُخفي لإيمانه نفسه بين الكافرين لا يعلم ما هو دينه، وبذلك هو بالنسبة لهم مؤمن يُحبّونه ويحترمونه، والإيمان الذي في قلبه يدفعه حقًا ليعاملهم بصدق وأمانة وإخلاص (نُصْح) وإرادة الخير لهم، وإن كان لا يتفق معهم حول دينهم، وهكذا تعامل يوسف الصديق عليه السلام وجهًا لوجه مع أهل مصر الذين كانوا كافرين[1]، وكذلك أخفىٰ المؤمن من أهل

---

(١) كان يوسف عليه الصلاة والسلام رجلًا شابًا أعزبًا أسيرًا لدىٰ دولة عدوّة، ولم يكن لديه هنالك أقارب أو أصدقاء قد يشعر أمامهم بالخزي إن ارتكب الفاحشة، وما يمنع كثيرا من الناس من السقوط في أفعال شنيعة هو بالواقع الخزي الذي قد يشعروا به أمام من يعرفهم، ولذلك عندما يُسافرون يفعلون حينها ما يحلو لهم (ابن تيمية، مجموع الفتاوىٰ، المجلد الخامس عشر ص ١٣٨). =

فرعون دينه؛ وحتّىٰ أنّه بجّل موسىٰ عليه السلام وقال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ (غافر:٢٨).

* * *

= ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (يوسف:٣٣). نستنتج درسين من هذه الكلمات عن يوسف عليه السلام، الأول: أن نختار السجن والبلاء عوضًا عن الإثم والعصيان، والثاني: طاعة أوامر الله، وأن تطلب من الله أن يُقوّي قلبك بدينه ويرشده لطاعته، وإلا عندما لا يُقوّي قلبه؛ يميل عندها تجاه من يرتكب الآثام ويُصبح من الجاهلين. في هذه الآية ثقة بالله ومَلاذ لعونه ليُقوّي قلب المرء بالإيمان والطاعة؛ وهنالك صبر علىٰ المحنة والمُصيبة والبلاء الذي يحدث عندما يكون القلب قويًا بالإيمان والطاعة [...]، علىٰ المرء تقوىٰ الله بأداء ما أمر به وأن يصبر بوجه القدَر الإلهي، كما فعل يوسف عليه السلام، فقد خاف الله برفضه بعفة أن يرتكب الفاحشة، وكان صابرًا علىٰ الشر الذي فعلوه به بإغوائه وإدخاله السجن، وسأل الله العون وناشد الله ليُقوّيه بالعفة، فقد وضع ثقته بالله لما كان ضروريًا؛ ليُبعد مكرهم عنه، وتحمّل السجن بصبر. (ابن تيمية، مجموع الفتاوىٰ، المجلد الخامس عشر ص ١٣٠ - ١٣١).

# الفصل الثامن عشر:
# مثل يوسف في خدمة الفرعون

لكن ماذا عن يوسف عليه السلام؟ كما ذكِر بوضوح في القرآن الكريم وفسّره ابن تيميّة في النص الآتي[1]، فيوسف لم يُمنَح فحسب لقب سيّد مخازن أرض الفراعنة، بل طلب خصيصًا أن يكون كذلك، أي: أنّه وضع نفسه من تلقاء نفسه ليخدم دولة كافرة وكان واعيًا تمامًا بذلك، فأساسها أولًا ليس مبنيًا علىٰ سنّة الرسل وعدلهم، وثانيًا لن يكون بمستطاعه إقامة كلّ ما يعدّه «جزءًا من دين الله»، لكن بسبب تنصيب نفسه بهذه المكانة في مُجتمع غير مُسلم، ومُسهمًا فيه بقدر مُستطاعه لفرض العدل والإحسان، أصبح أخيرًا قادرًا بفضل سلطته علىٰ مُساعدة عائلته المحتجزة في فلسطين...

هذا النداء للانفتاح علىٰ غير المُسلمين والاندماج بفاعلية في مُجتمعهم، وتحديد أولويّات الدين الحقيقية في بيئة مُعيّنة بمُرونة، والبراغماتية والإخلاص فيه تجاه الأمثال القرآنية والنبوية. التدبّر هو المطلوب في كلّ الأمور: التدبّر في الحالة ومُقارنة الحسنات والسيّئات، وهل هنالك بديل

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوىٰ، المجلد العشرون، ص (٥٤ - ٦١). هذه خلاصة من الفصل من الكتاب عن تعارض الخير والشر في الأمور.

للقيام بالخيار الصحيح؟ والسعي قدمًا خطوة بخطوة، والتزام الصمت أحيانًا عوضًا عن الأمر أو المنع ومنح العفو في أمور مُعيّنة... ويُفسّر ابن تيمية أنّ القيام بهذا الأمر ليس بالسماح بما هو منهي عنه أو إسقاط ما هو فرض، بل الأخذ في الاعتبار «المصلحة الراجحة» بتروٍّ و«ضرورة» اللحظة، بإيمان صادق ودين مُتوسّط، الاعتدال الذي لا يفرض أبدًا عبئًا مُستحيلًا.

**الحكمة الصادقة ومُمارسة السلطة.**

يُقال أنّ «الإنسان العاقل ليس من يعرف الخير من الشر، بل الإنسان العاقل فقط من يعرف خيرَ الخيرَين وشرّ الشرّين»[1]، ويُقرأ هذا المقطع الشعري أيضًا كالتالي:

إن اللبيب إذا بدا من جسمه ❋ **مرضان مختلفان داوىٰ الأخطرا**

ينطبق هذا أيضًا علىٰ الأمور الأخرىٰ جميعها، مثلًا: يحتاج الطبيب لتقوية نشاط مريضه ويطرد المرض، وهنا فصد الدم[2] يعمل علىٰ تعزيز كليهما معًا، ففي حال النشاط الكامل يُرجّح الطبيب لإضعاف المرض ترك

---

(١) توجد أشكال مختلفة من هذه المقولة من مصادر مختلفة، وتبعًا لابن الجوزي، كتاب ذم الهوىٰ، (٨)، قال عُمر بن الخطاب: «ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، ولكنه الذي يعرف خير الشرين»، بينما نقله شمس الدين الذهبي، كتاب سير أعلام النبلاء، الباب الثالث، (٧٤)، عن عمرو بن العاص، بينما نقله محمد باقر المجلسي، كتاب بحار الأنوار، الباب (٢٥، ٦)، عن عليّ.

(٢) سحب الدم.

هـذا العـلاج، لكـن في حـال ضـعف النـشاط يقـوم بـالعلاج، وإنّ المنفعـة في الحفاظ علىٰ النشاط والمرض معًا تغلب المنفعة المُحتملة في التخلص من كليهما، فزوال النشاط حتمًا يستلزم الهلاك.

لـذلك أيـضًا؛ ثبتت الفكـرة في عقـول النـاس أنّ سـقوط المطـر في حـال الجفاف هو رحمة تنزل عليهم، رغـم ذلـك، ونظـرًا لمـا ينمـو بـسبب المطـر؛ تقـوىٰ جماعـات مُعيّنـة في ظلمهـا، وغيـاب المطـر سـيكون أشـدّ ضـررًا علىٰ الناس، فيُفضّلون أيضًا وجود السلطان مع ظلمه علىٰ غياب السلطة، ولـذلك يقول أحد العقلاء: «ستون سـنة مـع سـلطان جـائر خيـر مـن ليلـة واحـدة بـلا سلطان»[1]. لذلك؛ عند التمكّن يجب لوم السلطان علىٰ الأفعال المُعادية التي يرتكبها وتفريطه في حقوق الناس[2].

أقول: عندما لا يكون باستطاعة من أعطي الولاية علىٰ السلطة الكاملة أو إحدىٰ فروعها مثل الإمارة أو الولاية أو القـضاء وغيرهـا أن يُنجـز واجباتـه

---

(١) ظهرت هذه المقولة في نص آخر كالتالي: «ستون سنة مع إمام جـائر خيـر مـن ليلـة واحـدة دون إمام». ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، انظر: أعلاه ص (٢٣٠).

(٢) بالنسبة لابن تيمية: رفضه القيام ضدّ الحاكم الظالم لا يعني الصمت علىٰ أفعاله، فهنالـك حل وسط بين حدّي الثورة المُسلّحة والصمت – المُوالاة الحرجة –، وهـذا النـوع مـن العلاقـة بمواجهـة الـسلطات هـو مـا يُفـضّله، ولـذلك؛ لا يـزال مُخلـصًا للوعـود الثلاثـة الأساسية المفهومة في بيعة الصحابة للولاء للرسـول: «الطاعـة ضـمن طاعـة الله، حتّىٰ إن كان من يعطي الأمر ظالمًا، والامتناع عن مُنازعة سلطة من يفرضـها، والتـزام جانـب الحـق دون خوف من أيّ مخلوق» (ابن تيمية، مجموع الفتاوىٰ المجلد العاشر ص ٢٩ - ٣٠)؛ انظر أيضًا: Y. MICHOT. Muslims. 54 ، والنص أعلاه ص (٢٢١ - ٢٣٠).

ويترك الأمور المنهية، لكن قرّر هذا الشخص أن يُتمّ بعض الأمور الحميدة والتي لن يقوم بها شخص آخر، سواء في التخطيط لهذه الأمور أو القدرة علىٰ تحقيقها؛ فمن الجائز له تحمّل هذه الولاية وربّما تكون حتّىٰ واجبة، وهذا؛ لأن السلطة من بين الواجبات الضرورية لإيجاد المصالح التي تقدّمها - الجهاد ضدّ العدو وتقسيم الغنائم وإقامة الحد وتأمين الطرق - ومن الواجب تفعيلها، وعندما يستلزم هذا بالضرورة تولية السلطة لمن لا يستحقها ويستولي علىٰ شيء ليس شرعيًا ومنحها لشخص ليس مُناسبًا لها لكن ليس من المُمكن التخلي عن منحه إياها، يُعدّ هذا من بين الأمور التي بها لا يتحقق ما هو واجب أو مُستحب إلا عبْرَهم، ولهذا هو واجب أو مُستحب مع اعتبار أنّ صفته الفاسدة أدنىٰ من المصلحة التي يقدّمها هذا الشيء الواجب أو المُستحب.

بالإضافة: إن كان موقع السلطة ليس ضروريًا، ويستلزم بعض الظلم، ومن يُعطىٰ الولاية سيدع الظلم ليحكم؛ فتولية من يهدف لخفض الظلم الحادث بهذه السلطة وردّ معظمه بتحمّل حدّ أدنىٰ منه، فهو بهذه النية خير، وفعل الشر الذي يُراد به رد شيء أشدّ منه هو أكثر خيرًا.

تختلف هذه المسألة تبعًا لاختلاف النوايا والأهداف، ولنتخيّل الحالة التالية: قدرة ظالمة تغتصب المال من أحد وتجبره علىٰ الدفع، وجاء بعدها رجل بينهما لردّ معظم هذا الظلم علىٰ الضحية، فيأخذ المال من الضحية ويُعطيه للظالم، رغم أنّه لم يُرد أن يكون ظالمًا، وإن كان قادرًا يقوم بردّ هذا الظلم عنه، فهذا الوَسيط مُحسن بعمله، بينما إن تدخّل لمُساعدة الظالم فهو

بذلك فاعل للشر. في هذه الأمور ما يحدث غالبًا فقط أنّ النيّة والفعل فاسدين، النيّة بواقع أنّ المرء يسعىٰ للسلطة والمال، والفعل بواقع أنّه يفعل أمورًا منهية ويُهمل واجباته دون مُقاومة أو السعي للأنفع والأصح.

فضلًا عن ذلك؛ قد يكون تولّي الولاية عمومًا جائزًا أو مُستحبًّا أو واجبًا، لكن قد يكون تولّي منصبًا آخر لشخص مُعيّن أكثر وجوبًا أو أكثر استحبابًا، ولذلك عليه منح الأولوية لخير الخيرين بحسب ما إذا كان الشيء واجبًا أو مُستحبًّا.

**يوسف عليه السلام والفرعون:**

يُذكر في هذا الموضوع: قصة يوسف الصدّيق عليه السلام الذي اؤتمن علىٰ مخازن الدولة لملك مصر، أو طلبه من الملك أن يولّيه علىٰ مخازن دولته[1]،

---

(١) اقرأ في سورة يوسف، الآية (٥٥): ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، ولم تظهر كلمة «فرعون» في سورة يوسف بينما سمّي حاكم مصر «بالملك» و«العزيز». هذا الحاكم بالطبع مختلف عن «فرعون» الحاكم المُستبد في مصر الذي ذكر كثيرًا في القرآن الكريم فيما يتعلّق بقصّة موسىٰ عليه السلام، لكن بالنسبة لابن تيمية فهو من الفراعنة؛ انظر: أعلاه ص (٢٤٦)، رقم (٣).

تذكر المصادر التقليدية الشيعية أنّ الإمام الثامن «علي الرضا» (مات عام ٢٠٣هـ/ ٨١٨م)، قد انتقده بعض أتباعه لتعاونه مع الإمام العبّاسي المأمون، قال له رجل: «أعطاك الله الصلاح! كيف لك أن تقابل المأمون للدرجة التي وصلت إليها؟» كان وكأنّه يوبّخه علىٰ ذلك، قال له أبو الحسن الرضا:

- يا فلان، من أعظم: الرسول أم الوصي؟ =

حتّىٰ وإن كان هذا الملك وشعبه كافرين، كما قال جَلَّاللهُ: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾ (غافر:٣٤)[١]، وقال له جَلَّاللهُ أيضًا: ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف:٣٩ - ٤٠)[٢].

نعلم أنّ المصريين رغم كفرهم كان لديهم دومًا عادة وسنّة لجمع الضرائب وإنفاقها لمصلحة حاشية الملك وأهل بيته، وعلىٰ جنده ورعيّته، مع ذلك لم تكن هذه الأدوار تتم تبعًا لسُنّة (عُرف) الرسل وعدلهم، ولم يكن مُمكنًا ليوسف عليه السلام تطبيق كلّ شيء أراده - أي: ما يعدّه جزءًا من دين الله -. بالتأكيد لم يقبل الناس سير الأمور هذا، لكنّه طبّق ما كان مُمكنًا تطبيقه من عدل الدين وإحسانه وبفضل سلطته؛ عامل أخيرًا المؤمنين من أهل بيته

---

= - الرسول طبعًا.

- ومن أعظم: المُسلم أم المُشرك؟

- المُسلم طبعًا.

- العزيز، عزيز مصر، كان مُشركًا وكان يوسف عليه السلام رسولًا، بينما المأمون مُسلمٌ وأنا فقط وصيّ. وقد سأل يوسف عليه السلام العزيز أن يُولّيه عندما قال: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف:٥٥)، بينما أنا قد أجبرت. (محمد بن الحسن الحرّ العاملي، الوسائل، الباب ١٧، ٢٠٢، رقم ٢٢٣٤٧).

(١) لم ينقل ابن تيميّة نهاية الآية، لكن اكتفىٰ فقط بقوله: «إلىٰ نهاية الآية».

(٢) لم يذكر ابن تيمية نهاية الآية ٤٠ لكن كتب فقط: إلىٰ بقية الآية.

بكرم، والذي بغير ذلك لن يكون ممكنًا له فعله، وكلّ ذلك في كلام الله ﷻ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن:١٦).

## مُقارنة الإيجابيّات والسلبيّات.

عندما يُعرض لنا أمران واجبان لا يُمكن أداء كليهما معًا؛ تعطىٰ الأولوية عندها لأكثرهما استعجالًا، وبهذه الحالة لا يُصبح الأمر الثاني واجبًا، ومن يتركه ليُقيم الأمر الأكثر استعجالًا هو بالأصل لا يترك أمرًا واجبًا، وبالمثل عندما يُعرض لنا أمران منهيّان معًا ولا يُمكن هجر أشدّهما دون ارتكاب الأقل ضررًا بينهم؛ فارتكاب الأقل ضررًا في هذه الحالة ليس منهيًا. إن كان بالمُطلق تسمّىٰ الحالة الأولىٰ: «ترك شيء واجب»، وتسمّىٰ الحالة الثانية: «ارتكاب شيء منهي»، فلا ضرر في ذلك، ولكن يتوجّب علينا في مثل هذه الحالة التحدّث عن «ترك شيء واجب بعذر» و«ارتكاب شيء منهي بسبب مصلحة راجحة» أو «للضرورة» أو «لردّ شيء أكثر حُرمة». يكون هذا - كما ينبغي قوله - لمن نام عن الصلاة أو نسيها، وأن يُصلّيها في وقت آخر غير المُحدّد لها بالمُطلق لكي يقضي الصلاة عن نفسه، وقد قال الرسول ﷺ: «من نام عن الصلاة أو نسيها فليصليها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك»[1].

---

(١) انظر: صحيح مُسلم، المساجد، الباب الثاني (١٤٢). صحيح البخاري، مواقيت الصلاة، الباب الأول (١٢٣). سُنن النسائي، الباب الأول (٢٩٤)، سُنن الدارمي، الباب الأول (٢٨٠).

موضوع التعارض بين شيئين واسع جدًا، خاصة في أزمان وأماكن يتضاءل فيها آثار الرسل وخلفاء الرسل، وتتضاعف هذه الأسئلة، وحيثما يزداد التضاؤل؛ تكثر معه هذه الأسئلة أيضًا، ووجود كلّ ذلك هو من بين أسباب الفتنة في الأمّة. عندما يمتزج الخير مع الشر، يحضر عندها اللبس والتلازم، ولذا؛ قد ينظر بعض الناس لأمور الخير ويُرجّحون هذا الجانب، وإن كان يستلزم القيام بشرّ كبير، وقد ينظر بعض الناس أيضًا لأمور الشر ويُرجّحون هذا الجانب، وإن كان يستلزم هجر خيرٍ مهم. بالنسبة للمُلتزمين بأوسط الأمور الذين ينظرون لكلا المسألتين، أو لمعظم المسائل، قد لا يكون تقدير منفعة أو ضرر هذه الأمور واضحًا، أو أنّه واضح بالنسبة لهم لكن لا يجدون أحدًا مهتمّا بالقيام بالخير وترك الشر لحقيقة أنّ الآراء تصاحبها الأهواء، ولذلك؛ قال رسول الله ﷺ في الحديث: «إنّ الله يُحبّ البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحبّ العقل الكامل عند حلول الشهوات»[1].

## مسؤوليّات العلماء.

من المُناسب للعلماء أن يتدبّروا هذه الأشكال المُختلفة من الأسئلة،

---

(١) أشار ابن تيمية بنفسه (درء تعارض العقل والنقل، الباب التاسع، ٢٢) إلىٰ أنّ هذا الحديث منقطع التسلسل (حديث مُرسَل). أي: أنّ الرسول ﷺ ذكر مُباشرة بعد التابعي دون وسيط من الصحابة. لكن ذكر ابن تيمية هذا الحديث في نصوص مختلفة (خاصة كتاب الدرء، الباب الثاني، ١٠٥؛ xxix. MF، ٤٤).

ففي بعضها - كما أوضحت فيما سبق - الواجب هو منح العفو بخصوص الأمر بأمور معيّنة والنهي عنها، وليس السماح بما هو منهي أو إسقاط ما هو واجب، فمثلًا: قد يعقب أمرَ العالم بالقيام بفعل الطاعة حدوثُ عصيان أعظم من فعل الطاعة، ولذلك يهجر الأمر بفعل الطاعة ليردّ حدوث فعل العصيان، وكمثال علىٰ ذلك: قد يتخلّىٰ عن تسليم أحد العصاة لممتلك السلطة الظالم الذي سيكون بعقابه أشدّ ضررًا من ذنب العاصي، ومثال آخر: عندما يكون النهي عن أحد المُنكرات يتسبب في ترك بعض الأمر المعروف الأكثر منفعة من هجر هذا المُنكر، ولذلك يبقىٰ صامتًا عوضًا عن النهي عنه خوفًا من أن يستلزم النهي عنه هجر شيء أمر به الله ورسوله، وهو شيء يراه بعينيه أكثر أهمية من الهجر البسيط لذلك المنكر.

لذلك؛ قد يأمر العالم أحيانًا ويُحرّم أحيانًا، ويُقرّ أحيانًا ويبقىٰ صامتًا أحيانًا عوضًا عن الأمر بشيء أو النهي عنه أو إقراره، مثلًا: الإقرار بفضيلة مُطلقة أو راجحة، أو النهي عن مفسدة مُطلقة أو راجحة. في حال تعارض شيئين يجعل عندها - كما قلنا سابقًا - الشيء الراجح راجحًا بقدر المُستطاع، لكن إن كان مَن يُوجّه له الأمر والنهي لا يلتزم - سواء بسبب جهله أو ظلمه - بالأشياء التي يقدّر ذاكرها أنّ بإمكانه قولها له، وليس مُمكنًا إنهاء جهله وظلمه، يكون الأصلح عندها التخلّي عن المُحاولة والامتناع عن توجيه الأوامر والنواهي له، ولذا؛ قيل أنّ من بين الأسئلة التي تظهر تكون الإجابة المُناسبة لبعضها؛ البقاء علىٰ الصمت، كما كان الشارع (المُشرّع) صامتًا في المُستهل عوضًا عن الأمر بأشياء مُعيّنة والنهي عن أخرىٰ، واستمرّ

هذا الوضع حتىٰ الزمن الذي انتصر فيه الإسلام وكان له اليد العليا.

يغدو هذا أيضًا بالمِثل فيما يخصّ التبيان والإيصال: فعلىٰ العالم تأخير التبيان والإيصال لأشياء مُعينة حتّىٰ اللحظة عندما يمتلك الإمكانية لفعل ذلك، كما أخّر الله ﷻ إنزال آيات مُعيّنة وتبيان أحكام مُعيّنة حتّىٰ تمكّن رسول الله ﷺ من تبيانها. ما يجعل الوضع واضحًا حقًا في هذه القضية قول الله: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (الإسراء:١٥)[1]. تتعلق الحُجّة الإلهية علىٰ العباد فقط بشيئين، وهما فقط بحكم الظروف: أن يكون لديهم الإمكانية لمعرفة ما أنزل الله من الوحي، وقدرتهم علىٰ أدائه، فمن كان غير قادرٍ علىٰ أن يعرف - مثل المجنون -، أو أن يفعل؛ فالأمر أو النهي ليسا مفروضين عليه. عند تعطّل المعرفة بجزء من الدين أو عجْزٍ عن أداء جزء منه؛ فهذا الوضع بالنسبة لمن يعجز عن معرفة أو أداء هذا الجزء من الدين كمثل وضع مَن هو مُنقطع عن معرفة كامل الدين أو عجزه عن أدائه بمُجمله - كالرجل المجنون مثلًا -. هذه هي أوقات الفَترات (أوقات الكمون) الدينية، فعندما يأتي أحد من العلماء أو الأمراء أو كلّ من في مرتبتهما ويأخذ بيد الدين، عليه تبيين ما نزل علىٰ الرسول الكريم شيئًا فشيئًا بالأسلوب الذي اتبعه الرسول الكريم في تبيين ما أرسل لأجله شيئًا فشيئًا. نعلم أنّ الرسول الكريم ينقل لنا ما يمكننا معرفته وأداؤه، ولم تأتِ الشريعة دفعة واحدة، لذلك؛ يُقال: «إن أردت أن تطاع؛ فاطلب المُستطاع».

---

(١) اطلع علىٰ هذا الموضوع في ص (٦٣ - ٦٧) لابن تيمية.

**مبدأ أساسي للتدبّر.**

كذلك المُجدّد لدينه والمُحيي لسنّته: ينقل فقط المُستطاع معرفته وأداؤه، وكذلك أيضًا ليس مُمكنًا لمن يدخل الإسلام أن يرىٰ كامل تشريعات الإسلام مطبوعة في ذهنه، بلحظة دخوله الإسلام، ويؤدّيها جميعها، وكذلك بالمثل: من يتوب عن ذنوبه، ومن يتعلّم بذاته، ومن يسعىٰ لإرشاد الآخرين؛ ليس مُمكنًا له نقل جميع تكاليف الدين إليهم من البداية ولا حثّهم لاكتساب كامل المعرفة، وقد لا يستطيعون تحمّل ذلك، وفي حال أنّهم لن يقدروا علىٰ التحمّل؛ ففي هذه الحالة لن تكون التكاليف أمرًا واجبًا عليهم، وبما أنّ هذا لن يكون أمرًا واجبًا؛ فلن يكون علىٰ العالم أو الأمير أن يأمر بجميع الواجبات منذ البداية، بل يجب التساهل بتجنّب الأمر بأشياء والنهي عن أشياء لن يستطيعوا معرفتها وأداءها، إلىٰ أن يحين الوقت لتصبح مُستطاعة، مثلما أبدىٰ الرسول الكريم تسامحًا بما كان به مُتسامحًا حتّىٰ الحين الذي بيّنه، لكن يجب عدم تفسير هذا الفعل بقبول الأشياء المنهية ولا هجر أداء الأشياء الواجبة. إنّ الأمر والنهي مشروط بإمكانية المعرفة والفعل. الآن وبافتراض أنّ هذا الظرف لم يتحقّق؛ فتدبّر هذا المبدأ الأساسي! فإنه مُفيد.

أصبح واضحًا من هذه النقطة: أنّ كثيرًا من هذه الأشياء تسقط، وإن كانت بالأساس واجبة أو منهيًّا عنها، وهذا بسبب استحالة النقل الذي تكمن فيه حجّة الله، سواء كان الأمر متعلقًا بجعل الشيء واجبًا أو منهيًا عنه. عدم القدرة تؤدّي حقًا لإسقاط الأمر والنهي، وإن كانا بالأساس واجبَيْن، ومن الأمور المَشمولة فيه هي المسائل الناتجة عن الأمر الاجتهادي بالنسبة

للمعرفة والفعل، فعندما يقول العالم أو الأمير أو يفعل شيئًا بالاجتهاد أو بالتقليد لمصدر، وعندما لا يُشاطره عالم أو أمير آخر الرأي؛ فيجب ألّا يأمر العالم والأمير الآخر أن يتبنّىٰ الأوّل آراءهم؛ أو عليهم فقط أمره بتبنّي ما يرونه كمصلحة عامة، وعليهم ألّا ينهوا عن آرائه. إنّ عليهم ألّا ينهوا الآخرين باتباع جهدهم الاجتهادي، ولا إجبارهم علىٰ اتباعهم. مثل هذه المسائل بالنسبة إليهم من بين الأفعال التي يمكن العفو عنها، فلا يجب أمرهم ولا نهيهم، أو بالأحرىٰ؛ فهي تقع بين الأشياء الخاضعة للإجازة وتلك الخاضعة للعفو.

هذا موضوع واسع جدًا؛ فتدبّره!

* * *